رواية

WALID SAIF

وليد سيف

النار والعنقاء

فريق
متميزون
E-BOOK

1

الرايات السود

الأهلية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الرايات السود

(رواية)

وليد سيف

الكتاب الأول

وميض النار

في ذلك اليوم القائظ من عام تسعة عشر ومائة للهجرة، كان ركب صغير لا يلفت الأنظار يقترب من رصافة هشام. وكان فيه شيخ جليل جاوز الستين، وإن بدا أكبر سنًّا بلحيته الطويلة المخضّبة بالحناء الأحمر، وحاجبيه الكثيفين، ومعه ولده البالغ من العمر نحو خمس وثلاثين سنة، وخادمان ينهضان بأمرهما.

كان قصر الرصافة الذي اتخذه الخليفة هشام بن عبد الملك مقرًّا صيفياً له، يقع على ضفاف الفرات شمالي بلاد الشام، وكان واسعاً يضم عدداً كبيراً من دور السكن الخاصّة، وصالات الاستقبال الرسميّة ودواوين الحكم. ولكنه كان مع ذلك يتسم بالبساطة ويخلو من فخامة القصور الملكية العظيمة وزينتها المترفة. على أن الخليفة هشام كان يجد متعته فيما يحيط به من الكروم والبساتين العامرة بالثمار التي استزرعها وشق لها الترع وأوقف عليها عدداً كبيراً من المزارعين وأهل الخدمة لتكون جنّة من جنان الدنيا، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين. فكان الخليفة هشام يدعو أصحابه وأعوانه للتجوّل فيها معه، فإذا رآهم يكثرون من قطف الثمر، قال ممازحاً:

- ما لهذا دعوتكم. أراكم قد اتبعتم ما تشتهي الأنفس وتركتم ما تلذّ به الأعين!

فلربما أجاب أجرؤهم طريقةً متظرفاً:

- يا أمير المؤمنين، إنما نصيب منه كما يصيب الطير من ماء النهر الجاري، ولا يخشى أمير المؤمنين الفقر.

فيجيب هشام:

- لا أخشى الفقر، ولكني أخشى السَّرَف. قولوا فِيّ ما شئتم.

فيضحك القوم وقد فهموا مغزى الكلام. فقد كان الخليفة يعلم أنه مُتَّهَم بالبخل والإمساك على ما تحت يده من الأموال الطائلة. ولكنه مع ذلك كان يترك الناس في حيرة من أمره، فقد يجود أحياناً جود من لا يخشى نقص خزائنه، ثم يرونه يمسك في العطاء القليل. وعلى ذلك مضت سيرته في الشؤون الأخرى، يحلم أحياناً حتى يقال: لا يغضب، ويبطش أخرى حتى يقال: لا يرحم.

أحسن الخليفة هشام استقبال الشيخ الجليل ذي اللحية الحمراء وولده، على مضض في نفسه. لم يكونا من أهل الحُكْم والسلطان، وكانا يرتديان ثياباً بسيطة لا تدل على شيء من اليسار والغنى. ومع ذلك كان عليه أن يتلقاهما بقدر من التبجيل والاهتمام، كما يليق بسادة بني العباس بن عبد المطلب. أما الشيخ الكبير فكان محمَّدا بن عليّ بن عبد الله بن العباس، وأما الثاني فكان ولده الأكبر إبراهيم. وكانت تلك الصفة كافية ليُظهِر لهما الخليفة الاحترام، وكافيةً في الوقت نفسه ليشعر بالانقباض والريبة.

ولما جلس إليهما أخذ يحدّق فيهما مُنتظراً أن يبادرا إلى الكلام، فلما تأخّرا فيه، سأل على سبيل المجاملة:

- عساك وأهلك بخير يا أبا إبراهيم.

- الحمد لله أولاً وآخراً.. ثم الشكر لأمير المؤمنين.

- كيف الحُمَيْمة وأهلها، والبلقاء وناسها.

- كلهم يحمد الله على نعمة الأمن في ظلّ أمير المؤمنين.

- قد أَلِفتم مقامكم فيها، على انقطاعها عن تزاحم الخلق في المدن والحواضر.

- لذلك اخترنا المقام فيها منذ نزلها والدي علي رحمه الله. وقد رضينا منها بالهدوء والعزلة، والبُعد عن ضجيج الناس وكثرة القيل والقال مع ما يخالط ذلك من فساد النفوس وإقحام الأنوف فيما يعني الرجل ولا يعنيه. وقد أخذت نفسي وأهلي، كما يعلم أمير المؤمنين بطلب العبادة والتفرغ لأعمال الخير، ولا أطلب من الدنيا غير ذلك.

كتم هشام شعور الريبة الذي طاف به كالعادة مع هؤلاء القوم، وقال:

- نِعْمَ الطلب يا أبا إبراهيم.

ثم رانَ صمت ثقيل لبضع لحظات، قبل أن يرفع الخليفة رأسه ويرسل نظرة غامضة إلى محمد بن علي، ويسأل بلهجة مبطّنة:

- وما خبر تلك النبوءات التي تحدَّث بها بعض الناس عنكم؟

بينما اضطربت ملامح إبراهيم بن محمد، كان أبوه أقدر على كتم مشاعره في كل حال، فلا تنبسط ملامحه للخبر الطيب، ولا تنقبض لخبر السوء، ولا يكاد أحد من الناس يعرف ما يجول بخاطره، ولم يتأخّر في الجواب بصوته الهادئ الثابت:

- ذلك من أوهام الناس يا أمير المؤمنين، وقد هلك فينا محبّ غالٍ أو مبغض قالٍ.. ولا يعدو من أطلق تلك النبوءة أن يكون أحد هذين. فإن كان الأوّل فقد نطق عن أمنية كاذبة تصوّرت له في نبوءة موهومة، ولا ذنب لنا فيما يعرض لبعض الناس من الأوهام، والله تعالى يقول: (ليس بأمانيكم)، وإن كان الثاني المبغض فما أطلقها إلّا ليحرّض علينا أمير المؤمنين، فيأخذنا بها، ونحن منها براء، وأمير المؤمنين أجلّ وأعلم وأحكم. وكلنا يعلم أن الكهانة من عمل الجاهلية، وأن خبر الغيب لا يعلمه إلّا الله، وقد انقطع الوحي بعد رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-.

هزّ هشام رأسه وقال:

- صلى الله عليه وسلّم. ولكن، أخطر ما في النبوءة يا أبا إبراهيم ليس ما فيها من خبر الغيب وحقائق الأقدار. ولكن ما تبعثه في نفوس الرجال من الطمع، فيجتهدون في تحقيقها اجتهاد المستيقن بها، المطمئنّ ببلوغها، وفي ذلك فساد عظيم، ودونه مَقاتل الرجال!

تريّث لحظة ثم تابع بلهجة أخرى، وسأل سؤالاً يعرف جوابه، ولكنه كان يحبّ أن يسمعه:

- والآن، ما الذي أقْدَمك علينا من الحميمة يا أبا إبراهيم؟

- لا غنى لنا عن زيارة أمير المؤمنين كلما وسعنا ذلك. ولولا ما نعلم من مشاغلك لأكثرنا منها، إلّا أن الطريق طويل، والزاد قليل. وقد علم أمير المؤمنين أن ذوي الحاجات يأتوننا ويتوقعون منا الرفادة والعطاء، لمنزلة أنسابنا، ولا يسعنا أن نردّهم على قلة مافي اليد. ولنا بعدُ عند أمير المؤمنين قرابة ونسب.

التفت الخليفة إلى الأبرش الكلبي، وزيره ومستشاره، وقال:

- أَعِن أبا إبراهيم على تكاليف مروءته، وزد على حاجته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن النبوءة التي دار عليها الحديث إلا ما شاع عند بعض الناس أن رجلاً من بني العباس سوف ينتزع مُلك بني أمية ويجعله فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، وأنه يقتل بني أمية مقتلة عظيمة حتى لا يبقى عليها أمويّ!

خرج محمد بن عليّ في ركبه من الرصافة محمًّلا بعطايا الخليفة هشام، وحين صار على بُعد منها توقف، والتفت مرسلاً نظره إلى مقر الخليفة، وقال هامساً بنبرة عميقة:

- نعم وربّ الكعبة يا هشام بن عبد الملك، إنها لحق كما أنكم تنطقون. وسوف يملك أبنائي ما تحت قدميك.. وقد اقترب أوانها.. اقترب الوعد الحق.. (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

بينما أخذ ركب محمد بن عليّ يبتعد عن رصافة هشام، ظهر على بُعد موكب كبير آخر في طريقه إلى مقر الخليفة، يتقدّمه شاب شديد الوسامة مترف المظهر، تطوّق عنقه قلادة ضخمة من الذهب المرصع بالجوهر تتدلى إلى صدره الذي كشف أعلاه، وتُحَلِّي يديه أساوِر من ذهب أيضاً، وكذلك كان حزامه وسيفه، فكان كل ذلك يبرق في ضوء الشمس كأنه يعلن ترف صاحبه ومنزلته. وحين التقط بصره ركب محمد بن عليّ البسيط، توقف وأرسل بصره إليه متمعِّناً ومتفحِّصاً. وما كان لأحد أن يعلم في تلك الساعة أن هذين الطرفين اللذين تقاطعت طرقهما المتعاكسة بالقرب من رصافة هشام، بين مُقبِل عليها ومُدبِر عنها، وبين شباب مترف صارخ وكهولة متواضعة صامتة، هما في قابل الأيام إقبال الدهر وإدباره، ومعهما انهيار دولة وقيام أخرى!

ولم يكن ذلك الشاب الغريب المظهر والأطوار إلّا وليّ عهد الخليفة هشام وابن أخيه: الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الذي آثر منذ وقت أن يقيم بعيداً عن عمّه في قصره في بادية الشام، حيث يقضي وقته في الصيد ومجالس السمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفع الوليد بن يزيد داخلاً على عمّه في الرصافة، فوجده ينظر في بعض السجلّات، وبدلاً من أن يُقبِل عليه بالسلام وتقبيل يده، ابتدره بالقول مستنكراً:

- ذلك الدعيّ الدجّال محمد بن علي، وولده إبراهيم، كانا عندك؟

كان الخليفة هشام قد اعتاد نزق ابن أخيه واندفاعاته، فرفع رأسه ونظر إليه دون حماس، بينما تابع الوليد:

- ولعلّك قد وصلته بمالٍ ومؤونة! بلى وربّي قد فعلت.

حافظ هشام على هدوئه وكتم غيظه، وقال:

- قد فعلتها إذن، ولست من النادمين.

- كيف بحق الله، وهو ألدّ الخصام؟ قد علمتَ أن هؤلاء قوم موتورون، وما تزال نفوسهم ثائرة علينا يرجون هلاك بني أميّة.

- ولكنهم لا يستطيعون.

- إلّا أن نعينهم على أنفسنا بمثل المال الذي تعطيهم. وأحسب أنه الآن يسخر في نفسه ويقول: إنما انتزعت من هشام بعض حقي وحق آبائي، أتألف به الناس من حولي ضد بني أميّة، فيكون مالهم في آخر الأمر حسرةً عليهم. لو كنت مكانك لما وسعه عندي إلّا الحبس والضرب.

هنا نهض هشام وتحدث لأول مرّة بلهجة حازمة:

- ولكنك لستَ مكاني.

- ولكني سأكون.

تصاعد غضب هشام وقال:

- تباً لك. تستعجل موت عمك؟

- العفو يا عمّاه.. ولكني ولي عهدك.

- وهذا ما يجب أن أخشاه على مُلك بني أميّة، أكثر مما أخشى نفراً من بني العباس قد انقطعوا عنِ الناس في الحميمة من أرض البلقاء، وآثروا السلامة. فأنا أَصِلهم بالمال حتى تبقى أعناقهم خاضعةً لي. إنما أخشى على مُلك بني أمية من بعدي شاباً طائشاً لا يُحسِن السياسة ولا الكياسة، يضع السيف موضع السِّلْم، ويضع السِّلْم موضع الحزم.. يستعدي الصديق، ويستثير العدو الساكن، ويقضي وقته في اللهو والصيد والخمر والغناء والنساء.

- يجب أن أشكر لعمّي أمير المؤمنين هذا الذي صرتُ إليه وما ينعتني به.

اهتزت ملامح هشام وقال مُغْضباً:

- كيف قلت؟

استأنف الوليد متدفقاً غير آبه بغضب عمّه:

- أو تحسب يا عمّاه أني لا أعرف ما يدور حولي وما يُدبَّر عليّ؟ عمّي.. حبيبي هشام بن عبد الملك الذي عهد إليه أبي يزيد بالخلافة، على أن تكون ولاية العهد لي، ما زال منذ حين يلتمس السُّبل ليصرفني عن ولاية عهده إلى ولده معاوية. لو شئت يا عمّاه أن أكون غير الذي وصفتني به لقرّبتني إليك وأشركتني في أمرك، ودرّبتني على شؤون الحكم والسياسة. ولكنك حجبتني عن ذلك كله، وصرفتني إلى ما تعيبه عليّ الآن من اللهو والصيد والنساء. وقدّمت أولادك بدلاً مني. حتى إذا شاعت أخبار لهوي ومجوني، هانَ عليك أن تقنع الناس بأني لا أليق بالخلافة ولا تليق الخلافة بي، وأن المصالح تقضي بنقض العهد الذي عاهدك عليه أبي. فليكن إذن، سأمتّع نفسي بكل ما رسمته لي.. ولكني لن أتنازل عن ولاية العهد، إلّا أن تقتلني.

هنا انفجر هشام بغضب جارف:

- اخرج أيها الأحمق السفيه قبل أن أفعل حقاً. اخرج!

امتثل الوليد من فوره ومضى نحو الباب، ولكنه توقف قبل أن يبلغه. نظر عمّه مستطلعاً، ثم استدار الوليد من جديد وقد انقلبت ملامح وجهه من تعبير الغضب إلى الحزن والترجّي، وتحدث الآن بلهجة الاستعطاف:

- سامحني يا عمّاه.. نشدتك الله سامحني.. إنما أزلّني الشيطان بذلك الكلام.

ثم أقبل على عمّه مسرعاً ونزل على ركبتيه وأحاط عمّه بذراعيه القويتين، وألصق رأسه ببطنه.

قال هشام الذي أَلِف تقلّب مزاج ابن أخيه:

- قم!

ولكن الوليد تابع وهو على تلك الحال:

- إنما أنطقتني الحاجة في أن أفوز بمحبتك وأحوز رضاك.

- وهكذا تفوز بمحبتي ورضاي؟

- إنها ثورة الولد الذي يطلب محبة أبيه فلا يطالها، وغضب المحب حِيل بينه وبين حبيبه. أنا لم أدرك من أبي إلّا القليل، فصرت أنت في مكانه. وقد علم الله أني ما رجوت شيئاً أكثر من محبتك وعطفك. وذلك مقدَّم عندي على الحكم والخلافة.. ولطالما حاولت التقرّب إليك.. علم الله أني حاولت.. فلا تصدّني عنك يا عمّاه. لا تدعني أكرهك، نشدتك الله لا تدعني أكرهك، فإني مسرف في الكراهة إسرافي في المحبة.

بدا هشام حائراً فيما يفعل، بينما اشتدّ ضغط الوليد متعمَّدًا على وسط عمه بذراعيه اللتين تطوقانه، وكان شديد القوة، حتى كاد هشام أن يتأوّه متوجًّعا، وقال بصوت مُجهَد:

- قم! إنك توجعني.

ثم حمل نفسه على أن يربّت عليه متعطفاً، أو متظاهراً بالعطف، وقال من جديد بنبرة مشوبة بالرقة والحنان:

- قم يا ابن أخي.. قم.

أخيراً أطلق الوليد ذراعيه وأفلت عمّه، ثم نهض واقفاً، وبدا طيف دمعة جامدة في عينيه. أطرق بضع لحظات صامتاً، ثم استدار من جديد ومضى خارجاً، وترك عمّه كالعادة متحيِّراً فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الخليفة هشام قد عزم على عزل الوليد وصرف ولاية العهد إلى ولده معاوية. وكان أحب أبنائه إليه وإلى بني أميّة وسائر القادة والوزراء والأعيان وشيوخ القبائل الموالية، لما عُرف عنه من مكارم الأخلاق وطول جهاده للروم، فلا يرجع من غزوة حتى يتجهّز لأخرى. ولكن الخليفة كان يعلم أن الأمر ليس بتلك السهولة. فحسابات السياسة وعواقبها غير حسابات المفاضلة بين الأفراد بمعايير الأخلاق والسيرة الحسنة. وللوليد بن يزيد بيعة في أعناق الجميع، ولم يسبق حتى الآن أن تمَّ عزل ولي للعهد أو خليفة مهما تكن سيرته. والناس تخشى من السابقة المستحدثة وما يمكن أن تجرّه من العواقب والانقسام.

ومع ذلك جمع الخليفة نفراً من أهل الرأي والمشورة، منهم خالد القسري والي العراق. وكان رجلاً قوياً محنَّكاً ذا عقل ورأي، قد صقلته التجارب. ولم يكن هشام في حاجة إلى أن يطيل الشرح عن مفاسد الوليد وسَفَهِه. فقد كان ذلك كله معروفاً مشهوراً. وكان أول المتحدثين الأبرش الكلبي، ألصق المستشارين بالخليفة. فأيّد الرأي بقوّة، وساق الحجج الدامغة التي تُقدِّم مصلحة الأمة والخلافة على أي اعتبار آخر. وأنهى كلامه بالقول:

- وقد ينزل الإنسان عن بعض أعضائه ليسلم له الجسم.. ومثل ذلك حجامة الطبيب. ونحن تبعٌ لأمير المؤمنين فالرأي عندنا ما يرى.

ثم قام شيخ بني القعقاع الذي تلحق به بطون كثيرة من القيسيّة، فقال مثل ما قال الأبرش. وأشهد الجميع أنه وقومه يرفعون من يرفع أمير المؤمنين، ويخلعون من يخلع.

بدا الرضا على وجه أمير المؤمنين. ولكنه لحظ أن خالداً القسريّ قد بقي صامتاً مطرقاً متفكراً واجماً، فأدرك أن في نفسه شيئاً مما قيل. ولما تنبه القسري إلى نظرات الخليفة المستطلعة إليه، تحدث أخيراً بصوت هادئ:

- أهي المشورة يا أمير المؤمنين، أم أمر وليّ الأمر؟

- بل المشورة.

- لا تفعل يا أمير المؤمنين.

رفع هشام حاجبيه مندهشاً، بينما سُمِعت همهمات من الحضور. واستأنف القسريّ دون تردد:

- قد عرفنا من ولي عهدكم الوليد مثل الذي قلتم فيه يا مولاي. ولكنا قد تعلمنا أن ندفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر. وللوليد، على ما فيه بيعة في الأعناق، أعطيت مع بيعة أمير المؤمنين. وهذه إن مضت سابقة يخشى معها اختلال ناموس الخلافة. وربما أفضى ذلك إلى اختلاف القلوب في بيت الخلافة نفسه، ثم في أهل الشام، وهم عمد الخلافة. وقد علم أمير المؤمنين أن أهل الطمع والشرور يتربصون الدوائر، وأنا أعلم الناس بهم، إذ شرّفني أمير المؤمنين بولاية العراق. وهناك مَواطن الفتنة وأصل الشقاق، وأشدّ منها ما والاها من أرض خراسان. وقد نُمِيَ إلينا أن نفراً من الناس هناك يدعون بدعوة غريبة لا ندري حقيقة خبرها ولا من وراءها، وهي وإن لم يكن لها شأن الآن، فإن أول النار

شرر، وأخطر الدعوات ما كان في السرّ والخفاء. فإن كان لا بدّ، فلينهض بعض من لهم دالة عند الوليد، فليقنعه بأن ينزل عن ولاية العهد طوعاً ورضاً، وإلّا فالأمر على حاله إن شاء أمير المؤمنين.. هذه مشورتي لوليّ النعمة، فإن المستشار مؤتمن كما قال رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-، والله تعالى يقول: (ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) والحمد لله أولاً وآخراً.

رانَ الصمت على المكان، وازداد وجه الخليفة شروداً وانقباضاً.

في مقر الوليد بن يزيد في بادية الشام، كان قد استخفّه الطرب مع نشوة الخمر، فخلع ثوب العذار، وقام يتمايل مع الجواري الراقصات على أنغام الطنبور والدفوف والمزامير، ثم مالَ إلى جارية بارعة الجمال حتى كاد أن يلتصق بها، وما هي حتى قدّم كأسه إلى فمها ليسقيها منه بيده وهتف قائلاً:

- هيا احتسي من يد سيدك وتباهَيْ بين الجواري والقيان أن الوليد بن يزيد، ولي العهد، وأمير المؤمنين بعد حين، قد سقاك بيده الشريفة، شربة هنيّة مباركة لا تظمئين من بعدها أبداً.

وأطلق ضحكة عابثة، تابعه عليها ندماؤه. وبعد أن احتست الجارية من الكأس، أدار الكأس إلى موضع شفتيها منه واحتسى منه وصاح متخلّعاً:

- الله! ما هذا؟ أهي نشوة الخمر أم ريق الحسناء!

ثم التفت إلى ندمائه وهتف:

- ما ذنبي إن كنت قد جُبِلت على حب النساء والشراب؟ وهل يُلام الرجل على ما رُكِّب به؟ إذن اعلموا أني على مذهب الجبريّة.. مذهب قومي بني أميّة.. مسيَّرون لا مخيَّرون، لخير أو لشرّ.. وكذلك ملك آبائي، قدر مقدور لا رادّ له من دون الله. فمن عانده خاب مسعاه.. ولكن عمي الأحول يقول بهذا المذهب في ملكه، ثم ينساه في أمري فيلومني فيما أقيم عليه. لا يتمتع بالدنيا التي جُمِعت له، ولا يريد لأحد أن يتمتع.. ولكن هذا لن يطول، فله القبر، ولي الخلافة غداً، و.. الخمر!

هنا سمع صوت أحد الندماء يحذره:

- اش ش ش. لا ينقل أحد هذا عنك يا سيدي.

التفت الوليد إليه بوجه شديد العبوس، وما هي حتى قذف كأسه بعيداً وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ. فتوقف العزف وتراجعت الراقصات، واقترب من النديم الذي بدا عليه الخوف، فقال معتذراً:

- إنما قلت ما قلت حرصاً على سيّدي.

وما هي حتى جذبه الوليد من ثوبه، ثم رفعه عن الأرض بذراع واحدة وطوّح به بعيداً حتى اصطدم بالجدار، وهو يصيح بغضب جارف:

- لا يجرؤ رجل على إسكات ولي العهد.. ماذا تحسبني أيها الأحمق.. أجيراً عندك؟ ما يمنعني من قتلك الآن؟

التصق الرجل بالجدار وهو يرتجف رعباً ويردّد معتذراً:

- العفو.. العفو يا مولاي.

مدّ الوليد ذراعه ورفعه من جديد ودعّه إلى الحائط ومرّت لحظة صمت، قبل أن تتحوّل ملامح الوليد فجأة إلى ابتسامة أعقبتها ضحكة مدويّة وأنزل الرجل على قدميه، وأخذ يصلح له ثوبه ويربت على صدره، وهو يقول:

- أخفتك، أليس كذلك؟

تنفّس الرجل الصعداء وقال:

- ما أحسب أني أنجب بعد اليوم.

انطلق الوليد بالضحك المجلجل من جديد، وما لبث الآخرون أن تابعوه على ذلك، حتى انخرط فيه النديم المسكين نفسه. ثم دار الوليد في المكان وهتف قائلاً:

- نعم.. ذلك ليعلم الجميع أن الوليد بن يزيد هو اليد النديّة إن شاء، ويد البطش إن شاء.

ثم اتجه إلى صندوق كبير من الخشب الجميل المحلّى بزخارف العاج، فاستخرج منه صرّة من النقود قذفها إلى الرجل.

- هذا عوض الخوف الذي أوقعناه بك.. هل رضيت الآن؟

أقبل الرجل على الوليد يقبّل يده شاكراً:

- أسعد الله أيام الأمير وأدام عليه نعمته.

ثم أخذ الوليد يقذف بقية الصرر في المكان، فيسرع الحضور إلى التقاطها، وهو يطلق ضحكاته العابثة مستمتعاً بالمنظر..

ولكن استمتاعه لم يطل كثيراً إذ دخل عليه كاتبه المقرّب عيّاض بن مسلم وهمس في أذنه، فانقبض وجهه انقباضاً شديداً. ثم أومأ إلى الحضور بالخروج، وبقي مع عيّاض.

- هكذا إذن! يستشير القوم في عزلي.. الخليفة الأحول يستشير في خلعي. أما بنو القعقاع، فلئن أحياني الله حتى أملك فلأبطشنّ بهم جميعاً بطشة جبار عنيد.

قال عياض:

- ولكن، أحسن خالد القسري حين أطفأها.

- أطفأها إلى حين.. فما يلبث الأحول أن يعاود المحاولة.

- ولا أحسبه يغفرها للقسريّ، فيعزله عن ولاية العراق متذرًّعا بتلك الشكاوى التي ما زالت تصله من أهل العراق على واليهم، يتهمونه باحتياز الأموال حتى صار ينافس الخليفة في ثروته. وما زال عمّك يردّهم ويماطل لطول بلاء القسري في حفظ الدولة. ولكن، ليس بعد الآن فيما أرى. فإذا عزله فقد كسب به عدواً قوياً، وكسبنا به صديقاً حليفاً مع رهطه من اليمنيّة.

صحّت التوقعات، إذ عمد الخليفة هشام إلى عزل خالد القسريّ عن ولاية العراق. ثم أوكل به من يدقق في أمواله ودفاتر الخزانة في العراق، فإذا تبينت خيانته حاسبه بما يستحق، وإلّا أبقاه في قومه مكرَّما. وأكّد هشام لأصحابه أنه ما فعل ذلك لأنه خالفه في أمر الوليد، وإنما لكثرة الشكاوى التي تتابعت عليه، مع كراهية أهل العراق له.

ولم يكف هشام عن التدبير لعزل الوليد وتولية ولده معاوية. ولم يستمع في ذلك حتى لأخيه مسلمة بن عبد الملك الذي يكبره سناً ويجلّه إجلالاً عظيماً كما كان عند جلّ الناس، لِما أُثِر عنه من الحكمة والشجاعة والفروسية وطول جهاده ضد الروم. وكان مع ذلك عابداً زاهداً. ولولا أنه ابن جارية لانصرفت إليه الخلافة دون أن ينازعه عليها أحد. ولكن تولية أبناء الجواري لم يكن أمراً مقبولاً حتى ذلك الحين. ولم يكن مسلمة ليبالي بذلك. ومع ذلك كان مسموع الكلمة في بني أميّة. فلا عجب أن يرسل إليه الوليد بن يزيد كتاباً يستغيثه فيه على عمّه هشام، ويذكّره بعهد أبيه، ويبالغ في استعطافه. وعلى الرغم من أن مسلمة كان يعلم من طيش الوليد وخلاعته ما يعلم غيره، فقد رقّ له قلبه. وكان على كل حال، يرى رأي خالد القسريّ في أن ضرر خلع الوليد أكبر من بقائه. فلما راجع أخاه هشاماً فيه، قال هشام:

- أنت يا مسلمة أجدر الناس بأن تخشى على مُلك بني أميّة إن تولّى هذا الطائش.. بل أنت الذي أوقعت في قلبي الخوف من ذلك المصير.

- وكيف ذلك؟

- ألستَ عالِماً بالحَدَثان؟ ألم تحدّثني في يوم أن عِلْم الحدثان ينبئ بزوال مُلك بني أميّة، وأن الرايات السود سوف تنحدر من المشرق لتملأ السهل والوادي؟ وعندها تشهد الأرض مصارع بني أميّة.

- ولم تصدّق هذا.. بل سخرتَ منه.

- وأي خليفة من بني أميّة يُحِبُّ أن يصدّق ذاك؟ ولكن هذا أقبح ما في النبوءة المشؤومة. يردّها عقلك، ويستقبلها وجدانك. ترفضها أول الأمر، وتنكر على صاحبها، بل ربّما اتهمت عقيدته، فإذا رجعت إلى فراشك عاوَدَتْك على الرغم منك، وطافت بك طواف الحمّى، فلم تعرف للنوم غمضاً. ثم تتناساها حيناً، فإذا وقع من أمر الدنيا ما ينذر بشرّ، عاوَدَتْك من جديد. والآن حين رأيت من الوليد ما رأيت تصوّرت حال الخلافة من بعدي، فعاودتني النبوءة.. ولعمري إنها تلتقي مع النبوءة التي يشيعها خصومنا من شيعة آل البيت.. ولكن، أهي نبوءة حقاً؟ أم نذر الحاضر لا يخطئها عقل اللبيب؟ فمنذ ملك بنو أمية والثورات لا تتوقف.. من الخوارج وآل البيت وآل الزبير وغيرهم. فلا تخمد واحدة منها حتى تشتعل أخرى.. وكلما أخمدنا إحداها زاد الموتورون، وتربّصوا بنا الدوائر ليميلوا علينا.. والآن، هاأنذا آخر الخلفاء من أبناء عبد الملك.. فهل نحتاج إلى خبر الغيب لنخشى على مُلك بني أميّة إذا

تولى رجل طائش نزق كالوليد، ينشغل بلهوه وشرابه وجواريه عن حفظ الدولة؟ فلماذا تتكر عليّ الآن رغبتي في خلع الوليد لأمنع أسباب الشرّ وأحفظ مُلْكَ آبائي وآبائك يا أبا سعيد؟ إن لم تكن نبوءة الغيب، فهي نبأ الحاضر الماثل أمام أعيننا.

- هذه هي المعضلة يا أخي.. إذا كان نبأ المستقبل ذلك حقاً، وهو قدر الله، فلا رادّ له، سواء أعزلت الوليد أم لم تعزله. وإن لم يكن كذلك فلا خشية على مصير الدولة من الوليد. ولكن أَعْذِر إلى ربك، فقرّب الوليد وأشركه في أمرك حتى يتمرّس في شؤون الحكم، وينصرف بالجدّ عن الهزل. هذا رأيي.. وهذه مشورتي هداك الله.

لم يفلح مسلمة، على قدره، في أن يثني الخليفة هشاماً عن عزمه، فمضى يهيئ الأمور لولده معاوية عند سائر شيوخ بني أمية، ورؤوس القبائل والولاة وأهل الرأي.

ولكن، ما لم يفلح فيه مسلمة بن عبد الملك وقبله خالد القسريّ ونفر قليل آخر ممن جرؤوا على الجهر بالنصيحة نفسها، أفلح فيه أخيراً مخلوق ضعيف أعجم لا يستطيع نطقاً ولا يملك رأياً..

ثعلب!

نعم، ثعلب من ثعالب الصحراء.

فبينما كان معاوية خارجاً للصيد، رأى ثعلباً فأحب أن يصطاده، فانطلق خلفه بفرسه، فعثرت به فسقط عنها واندقّت عنقه وفارق الحياة!

هكذا بكل بساطة.. الفارس الذي نجا من قتال الروم على مدى أعوام طويلة، قُتِل في ثعلب! وبذلك انتهت محاولات الخليفة هشام لعزل الوليد.. قدّر الله وما شاء فعل، وإنها إشارة من صاحب الأقدار. هكذا وقع في نفس هشام وهو يغالب أحزانه.

أما الوليد فكان يستعد للخروج مع أصحابه للصيد أيضاً، حين وصل رسول هشام، وابتدره قائلاً بصوت كسيف:

- أحسن الله عزاءك يا سيدي.

هتف الوليد محتفلاً بالبشرى:

- مات عمّي؟

- بل ابن عمّك معاوية.

- كيف قلت؟

- كما سمعت يا سيدي.. وعمك الخليفة يدعوك إليه متعجِّلا..

أحب الوليد أن يعبث كعادته بمشاعر من كانوا حوله، فتظاهر بالحزن والآسف، وقال:

- لا حول ولا قوّة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. ابن عمي معاوية، أحب أبناء الخليفة إلى نفسه.. وبالضرورة أحب أبناء عمّي إلى نفسي.. كيف لا، وعلينا أن نقدّم من يقدّم الخليفة، ونؤخر من يؤخّر.. ولكن.. كيف حدث ذلك.. أعني، لم يكن فيه...

قاطعه رسول هشام موضِّحاً:

- صرعه جواده وهو يطارد ثعلباً!

كتم الوليد ضحكة كادت أن تنفلت منه، وقال:

- ثعلب؟ قلت ثعلباً!

ثم التفت إلى أصحابه وتابع بنبرة تبطن التهكّم:

- هل تسمعون هذا؟ بطل بني أميّة وفارسها المغوار، يقاتل الروم عاماً بعد عام، فينجو.. ثم يصرعه ثعلب؟ ألم أقل لكم، إنها الأقدار. فكيف لا أكون من القائلين بالجبريّة؟ ما شاء الله وما قدّر فعل..

ثم خاطب رسول عمّه:

- انطلق.. قد بلّغت رسالتك.

وإذ انطلق الرسول مبتعداً، نظر الوليد في أصحابه مبتسماً وقال متهكماً:

- يعزّيني في ابن عمّي معاوية! هل سمعتم ذلك؟ نعم.. حقاً لقد أحسن الله عزائي.. بموته!

أطلق الآن ضحكة عالية وأكمل:

- يعدّه ليكون مكاني، ويصرعه ثعلب.. ثعلب! أنا أطلب صيد السبع وهو يطلب ثعلباً!

قهقه الحضور مجاراةً له. وفجأة تحوّل وجهه إلى العبوس وصاح بهم:

- تضحكون، قاتلكم الله؟ أين الأدب مع أميركم وليّ العهد، والخليفة التالي؟ يموت ابن عمّي ويكون عزاؤكم لي بالضحك؟

نكس القوم رؤوسهم صامتين. وما هي حتى قفز على ظهر جواده وصاح:

- هه! ثعلب! وأي بأس في الثعلب؟ من الآن هو عندي أحق من الأسد بأن يكون سيّد الوحوش. والله لا أقتل ثعلباً بعد اليوم أبداً.

عاد إلى الضحك، وتردد القوم هذه المرة في مجاراته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينِ دخل على عمّه بالرصافة مندفعاً فيما يشبه الهرولة احتضنه بقوّة متظاهراً بالحزن على نحو مبالَغ به:

- لله ما أخذ، ولله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمّى، فلْنصبر ولْنحتسِبْ. أحسن الله عزاءك وعزاءنا.

لم يُظهِر عمّه أي تجاوب معه، فقد كان يدرك حقيقة مشاعره. والحق أن الوليد قد تعمّد المبالغة والإسراف في تعبير الحزن والأسى بأسلوب مكشوف. فإذ لم يكن في وسعه أن يجهر أمام عمّه بالتشفّي والتهكم، وجد أن ذلك الأسلوب يمكن أن يُشْعر بهما دون أن يتعرّض للتهمة.

انفلت هشام منه وابتعد عنه ينظر من النافذة صامتاً. وتابع الوليد بمزيد من المبالغة والتصنّع الظاهر:

- ليتني كنت معكم يا أمير المؤمنين لأتلقّى العزاء فيه، ولكن ما إن وصلني رسولكم بالخبر وأنا في البادية حتى..

قاطعه الخليفة وقد نفد صبره:

- دعك من هذا أيها الوليد.. والله ما أسِفتَ عليه أكثر مما أسِفَ عليه ذلك الثعلب الذي هَمّ باصطياده.

أجاب الوليد متصنِّعاً المسكنة:

- لا تظلمني يا عمّاه.. إنما هي مشيئة الله، جرت عليه كما ستجري عليك وعليّ وعلى الخلق جميعاً.. ولا يد لنا فيها.. أليس هذا هو المذهب الذي ارتضاه آباؤنا وارتضيناه معهم؟

- ما لنا ولهذا الآن. نعم قد نفذت مشيئة الله. والعاقل من نظر أمامه.. ونحن الخلفاء نحتمل أمانة كبرى..الأمّة.. وإرث آبائنا.

هز الوليد رأسه وردّد بلهجة مبطّنة:

- نعم.. إرث آبائنا!

قال هشام:

- ولقد كانت بيني وبينك أمور أغضبتني منك، وخشيت منها على مستقبل الخلافة.. والآن عفا الله عمّا سلف.. وإني أعِدك أني سأُقِرّك على ولاية العهد، ولن ينالك مني ما تكره.. ولكن تعدني أنت أولاً أن تلزمني لتتمرّس بشؤون الخلافة وطرق المُلْك والسياسة، وتكف من فورك عما ألفته من اللهو ومخالطة أهل الخلاعة والمجون.. هاه.. ما قلت؟

أطرق الوليد لحظات متظاهراً بالتفكير، ثم رفع رأسه وقال:

- كما قلتَ يا عمّاه.. لقد ألفتُ اللهو.. والمرءُ عبد لما يألف.

رفع هشام حاجبيه متعجباً، بينما استأنف الوليد بلهجة قوية صارمة متحدّية:

- الآن تريد أن تستدرك على ما فات، بعد أن أهملتني دهراً وتركتني لأهل الخلاعة والمجون.. الآن وقد سُقِط في يدك وقضى الله بموت معاوية لم يعد لك من خيار إلّا ما اختارته الأقدار: ابن أخيك وولي عهدك الوليد بن يزيد. والآن تريد أن تدرّبه على شؤون الحكم، لا بداعي المحبّة، ولكن بداعي الضرورة، وأنا كنت أطلب المحبة أولاً، فحرمتني منها.. والآن أحرمك كما حرمتني.. أحرمك محبتي ومطلبك مني معاً، فلا ألبث في جوارك أبداً.. بل عزمت على فراقك إلى بلدة الأغدف من أرض الأزرق بالأردن، فأقيم فيها عاكفاً على الصيد واللهو والنساء، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.. أما المُلك والسياسة، فإذا تولّيت حكمت على طريقتي، لا على طريقتك، فليس عندك ما تعلّمني إياه، كما ليس عندي ما أمنحك... نحن النار والماء، والحرّ والبرد، والليل والنهار.. ولك أن تُقَدِّر بفطنتك أينا هذا وأينا ذاك!

إذ فرغ من كلامه، ارتدّ خارجاً بخطى سريعة، مخلِّفاً عمّه في حال من الصدمة والذهول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

في الحميمة من أرض البلقاء كان الليل قد دخل حين أناخ الزائرون الثلاثة عيسهم في الساحة الترابية المحيطة ببيت الإمام، الذي يحجبه عن الأعين سور مرتفع من اللِّبن. وتلقاهم أبناؤه الثلاثة: إبراهيم، وعبد الله المكنّى أبا جعفر، وعبد الله المكنّى أبا العباس.

في داخل البيت الطيني البسيط كان الإمام محمد بن عليّ يجلس على وطاء غليظ خشن يحيط به إخوته: عبد الله، وصالح، وداود. وكان المكان معتماً إلّا من ضوء مصباح ضئيل. وحين دخل الزوّار الثلاثة يقودهم أبناء الإمام، تتابعوا على التسليم عليه بخشوع وإجلال، فينزل أحدهم على ركبتيه ويقبِّل يده ثم يتراجع حبواً للجلوس قبالته.

كان الجوّ يوحي بالرهبة. وبقي الزوار الثلاثة مطرقين لا ينظرون في الإمام إجلالاً، بينما كان بعض الخدم يدخلون حاملين صناديق مما جلبه الزوار معهم. وحين خرج الخدم، أومأ الإمام لكبير الضيوف سليمان بن كثير، فقال بصوت متخشّع وهو يشير إلى أحد الصناديق:

- هذا ما جمعه أهل دعوتكم في خراسان من المال، تستعينون به على حاجاتكم. وتلك أمتعة أخرى قد اشتراها القوم من خير مالهم، وهم يطلبون الرضا والقبول والبركة، وينتظرون أوامركم ووصاياكم.

كان القادمون الثلاثة من مقدّمي نقباء الدعوة في خراسان. أما كبيرهم فكان سليمان بن كثير الذي عَهِد إليه الإمام برئاسة الدعوة في خراسان، أما الآخران في صحبته فهما لاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب. وكان تنظيم الدعوة شديد الإحكام والسريّة، فلا يعرف الإمام بشخصه إلّا النقباء، وهم اثنا عشر رجلاً فقط، يتوزعون بين خراسان والعراق، وكبيرهم جميعاً هو بكير بن ماهان في الكوفة. ويليهم في الطبقة المجلس الذي يُعرَف بمجلس السبعين الذي يعمل بإمرة النقباء الاثني عشر. وهؤلاء السبعون يتفرّقون في أنحاء العراق وخراسان، ويتقسّمون الإشراف على الدعوة ومن يلتحق بها من عامة الناس. وهؤلاء جميعاً لا يعرفون الإمام إلّا بالصفة التي يبايعون عليها وهي الرضا من آل محمّد. وكان يكفيهم أن غاية الدعوة هي الثورة على حكم بني أميّة تحت راية آل محمّد الذين استقر في وجدان الجماعات التي لحقت بالدعوة أنهم فوق عصبيّات العِرْق والقبيلة، إذ هم امتداد لبيت النبوة، والنبوّة دين للناس كافة. ولذا لم يكن من الغريب أن يكون الأعاجم من أكثر الناس تقبُّلاً للدعوة ونقمة على بني أميّة، للحيف الذي نزل بهم بإقصائهم عن الدواوين وأعمال الدولة، بل بقيت الجزية مفروضة على بعضهم بعد أن أسلموا، لا سيّما في أطراف خراسان وما وراء النهر. والحقيقة أن شطراً كبيراً من الفرس الذين تقبّلوا الإسلام، لم يرضوا بالعرب الذين حملوه إليهم بعد أن قوّضوا دولتهم العظيمة التي امتدت أكثر من ألف سنة، وكانوا قبل ذلك لا يرون في العرب إلّا قوماً من الأعراب الجفاة الحفاة، وكانوا سادتهم في عراق العرب، يسوسونهم بالسوط. فكانت مشاعر هؤلاء تتقلّب بين الرضا بالدين، والنقمة على مادته الأولى من العرب وقبائلهم المتغلّبة التي استقرّت في ديارهم وهيمنت عليهم. وقد وجدوا المخرج من هذه المفارقة في دعوة لا تُخرجهم من الإسلام، ولكنها تعد بأن تُخرجهم من هيمنة العرب. فإذا كان لهم فيها سبق وتقدّم، وصاروا مادّتها، استردوا سلطانهم في دولة الإسلام بعد أن فقدوه بدولة الإسلام التي بدأها العرب وسادوهم بها!

كان إمام الدعوة محمد بن عليّ يدرك هذا كله حين جعل من خراسان وما حولها بؤرة الدعوة ومادتها الأولى. وكان له من ذلك غاية أخرى تدل على دهائه وبُعد نظره. فقد رأى أن انطلاق الثورة من مركز الخلافة أو قريباً منها -كما فكر آخرون من قبله- محكوم عليه بالإخفاق. وبدلاً من ذلك رأى أن يكون منطلق الثورة من الأطراف بعيداً عن مركز الخلافة وشوكتها وقبضتها الشديدة وعيونها المنبثة، فإذا نمت السيطرة على الأطراف يبدأ الزحف إلى الأقرب فالأقرب، حتى إذا وصلت الثورة إلى مركز الخلافة كانت قد خسرت مددها وأذرعها، وصار جلّ الناس من وراء الثورة.

وإذا كان الأعاجم في خراسان جماعة واحدة، فقد كان العرب الذين استوطنوا تلك البلاد عصباً قبلية متفرقة متناكرة. فكان جلّ اليمنيّة والربعيّة -وهم أكثر العرب هناك- ينقمون على بني أمية لأن الولاة قرّبوا القيسية دونهم واختصوهم بالمال والأعمال. بل إن شطراً من القيسية نفسها قد نقموا كذلك على بني أمية وولاتهم لأنهم قدّموا قبائل منهم، دون أخرى، وكلّهم يرى نفسه حقيقاً بالتقديم.

وأما عامة الناس من زرّاع الأرض فقد ضاقت نفوسهم بالمغارم والمكوس التي يقتضيها دهاقين الفرس للوالي، ومعهم السوط. وأما العبيد والأقنان فلا يرجون إلّا الخلاص من سادتهم.

وبذلك اجتمعت كل تلك الطوائف، على اختلاف أغراضها وأسبابها، على النقمة على بني أميّة والولاء لبيت النبوّة الذي يرونه فوق العصبيات.

أصغى الإمام محمد بن عليّ وإخوته وأبناؤه باهتمام إلى سليمان بن كثير وهو يصف لهم أحوال الدعوة وانتشارها وكيف تعاهد الجميع على الكتمان حتى لو نُشِر رأس أحدهم بالمنشار. ولما فرغ هزّ الإمام رأسه هزّة الرضا، ثم قال بصوت خاشع خشوع من يرى وعد الله بعين اليقين:

- صدق الله وعده. وليورثن الله أرضه عباده الصالحين.. وكأني أرى الرايات السود تنحدر كالسيل من المشرق، فيطيح أصحابها بالكفرة الفجرة، والطغاة البغاة، ثم يملأون الأرض عدلاً بعد أن مُلِئت جوراً.. وإن أهل بيتنا قد اجتباهم الله تعالى لهذه المهمة العظيمة، والغاية السامية النبيلة. فإذا تحقق الوعد ووقع القول، فإن مُلك بني العباس يدوم إلى الأبد، حتى يُسَلّموها للمسيح عليه السلام حين يأذن الله برجعته. هذا هو الوعد، ولا يخلف الله وعده، فأشيعوه بين الناس، حتى يعلم أهل دعوتنا أنهم إنما يقدمون على نصر محقق، بالقدر المقدور من صاحب الأقدار، سبحانه وتعالى، وأن الشقيّ المحروم من فاته حظ الشراكة فيه، وأن الناس في هذا فسطاطان لا ثالث لهما: فسطاط حقٍّ لا باطل فيه، وفسطاط باطل لا حق فيه. فما الذي يختاره العاقل من حظ دنياه وآخرته؟ إنما هي جائزة معجّلة في الدنيا، وجائزة مؤجلة في الآخرة. لا نقول لهم: بيعوا دنياكم بآخرتكم. ولكنا نقول: اشتروا دنياكم وآخرتكم معاً، فإن غايتنا محققة في الدنيا لا محالة، وهي فوق ذلك سبيل الفوز في الآخرة.

ردّد النقباء الثلاثة:

- السمع والطاعة.

وتابع الإمام:

- واحذروا العيون في الطريق إلينا كلما جاء وفدكم. فإذا كان عام قابل، لقيتموني في الحج، فهو أبعد عن الشبهة. والزموا رأي كبير دعاتنا في الكوفة، بكير بن ماهان، إذ مرجعكم إليه، وهو محل ثقتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كان مسلمة بن عبد الملك يهم باعتلاء فرسه ليغادر الرصافة بعد زيارة لأخيه الخليفة هشام، حين دخل من البوابة الكبيرة ركب يضمّ عدداً من الصبيان مع القيّم واثنين من الحرس. التفت مسلمة إلى هشام بنظرة متسائلة فرآه يبش لقدومهم، وقال:

- أيتام معاوية.

ترجّل الصبيان عن دوابهم بمساعدة القيّم والحرس، وأقبلوا على جدّهم يحتضنونه ويقبّلون يده. وكان قد تعهّدهم بعد وفاة والدهم ورتّب لهم أفضل المؤدّبين، وغمرهم بعطفه.

وقف مسلمة يتمعّن فيهم، ثم قال هشام وهو يشير إلى مسلمة:

- ألم تعرفوا أخي وعم أبيكم وفارس بني أميّة، مسلمة بن عبد الملك؟ أين أدبكم؟

تتابعوا للسلام على مسلمة وتقبيل يده. وكان آخرهم وأصغرهم في زهاء الثامنة من عمره، ويتدلّى شعره في جديلتين. وما إن سلّم على مسلمة حتى تراجع ووقف وراء إخوته، وبدا أنه شديد الحياء، فلبث في مكانه مطرقاً. ولكن، لأمر ما، ثبّت مسلمة نظره عليه دون الجميع حتى لحظ هشام ذلك منه، فقال:

- هذا عبد الرحمن.. أمّه راح النفزاويّة من أقصى المغرب. على أنه ليس أصغر أولاد معاوية، فثمة ولد آخر.. هشام في الثالثة من عمره.. وُلِد بُعَيْد وفاة أبيه رحمه الله.. وأعقب الله علينا بخير في ولده.

بدا أن مسلمة لم يكن يسمع، أو أنه لم يكن مهتماً بالسماع، إذ لم يتحوّل ببصره عن عبد الرحمن، مستغرقاً في التأمّل والتمعّن والشرود. ثم تقدّم مفرِّقاً الصبيان حتى وصل إلى الصبي عبد الرحمن الذي ازداد حياءً وحرجاً وتراجع خطوتين بأسلوب عفويّ. ولكن مسلمة جذبه إليه... وجلس القرفصاء أمامه وأخذ يتحسس شعره وجديلتيه، ثم تحسس عنقه متفحِّصا حتى كشف عن كتفه، وكانت دموعه تسيل من عينيه بغزارة حتى اخضلّت لحيته.

كان المشهد شديد الغرابة. ولكن الغرابة بلغت أقصاها حين سُمِع مسلمة يقول لعبد الرحمن:

- أهلاً بالأمويّ الذي يحيي دولة بني أميّة في المغرب، بعد زوالها في المشرق!

ثم طفق يقبّل الصبيّ بضع مرات، قبل أن ينتصب من جديد، ويلقي نظرة غامضة على أخيه الذي كان قد بلغ به العَجَب كل مبلغ، ثم مضى نحو فرسه. ولكن هشاماً أسرع وراءه حتى أدركه قبل أن يعتلي فرسه، وقال:

- ما هذا الذي رأيته وسمعته منك؟ ما زلتَ في خبر الحدثان؟

نظر مسلمة في وجه أخيه نظرة عميقة، ثم قال:

- سمِّها الفراسة إن شئت.. أو الحدس الذي يهبه الله لمن يشاء.. قلتَ إن أمّه من نفزة في أقصى المغرب.. ثم رأيت فيه العلامات.. أو سمِّها المخايل.. فإن شئت أن تعينه، وتعين بني أميّة من بعدك،

فأحسن تأديبه وتدريبه، وابعث في نفسه عزائم الرجال، والصبر على نوائب الدهر، وطلب البعيد مهما تكن تكاليفه، وأنه منذور للمهمة العظيمة، وأنه أهلٌ لها. وأوْقِف على خدمته رجلا عرف المغرب والأندلس، ومُرْه أن يُكثِر من الحديث عنها معه، حتى كأنه يعاينها ببصره، وأعظِم له شأن أخواله من نفزة، وأنهم أهل نخوة ومروءة وبأس، حتى يتطلع إلى لقائهم، والاعتصام بشوكتهم. هذا قولي لك. وأحسبه آخر قولي.. فخذ أو فدَع.

قفز على ظهر فرسه كأنه ما يزال شاباً، وهو الذي قضى جلّ حياته على ظهره مجاهداً. وانطلق مبتعداً دون أن يلتفت، مخلِّفاً أخاه يشيّعه بأنظاره متفكراً شارداً.

وقد صحّ كلامه في نفسه. فكان ذلك آخر ما رأى منه هشام وسمعه، إذ لم تمضِ بضعة شهور، حتى وصل الخبر بوفاته، وكان ذلك في عام 121 للهجرة.

أما هشام فلبث أياماً بعد ذلك اللقاء، لم تفارقه فيها كلمات أخيه. إنه لا يؤمن بالنبوءات وخبر الحدثان التي شاعت بين الناس في ذلك الزمان، وعرف عن أخيه مسلمة اشتغاله بها، ولا ينبغي له. ولكن كلامه ذاك وقع في نفسه موقعاً عميقاً لا يدري كنهه. ولم يعمل هذه المرّة على مدافعته كما كان يفعل ذلك دائماً. هل كان محض فراسة وحدس من رجل حنّكته التجارب، وله مع ذلك من الحكمة ما يعطف به أمر الحاضر على المستقبل؟ فالعلامات التي يراها ليست علامات غيب تتكشف لبعض الناس في الحاضر،وإنما هي علامات الحاضر تنبئ بالمستقبل. وها هو آخر أبناء عبد الملك من خلفاء بني أمية قد اتسعت دولتهم في زمنه إلى أقصى المشرق في أطراف الصين إلى أقصى المغرب والأندلس حتى جبال البرتات (البرانس) وما وراءها. ولكنه يعلم أنه لا يمسكها إلّا بالقوّة الطاغية، فمازال خلفاء بني أميّة يقسمون جهدهم بين الفتوح والتوسّع، وبين محاربة الثورات الداخلية التي لا تتوقف. وقد انقمع الكثيرون على دخَن في أنفسهم يدبّرون في الظلام حتى إذا ارتخت يد الخلافة، تفجّرت بهم الأرض. أما الأعاجم فملّة واحدة على ما يظهر من خضوعهم، وأما العرب فقبائل لا تجتمع على رأي، وكل يطلب نصيبه منها، فإن أعطوا منها رضوا، وإلّا سخطوا، وحليف الأمس عدو اليوم. وليس للخلافة ضَمينٌ موثوق إلّا أهل الشام، واجتماعهم على بني أميّة. فماذا إذا ذهب الرجل القويّ وخلف الأحمق السفيه الوليد بن يزيد، فاختلف عليه بنو أميّة ومعهم أهل الشام؟ تلكم هي الطامّة الكبرى. فإذا انفرط القلب انفرطت الأطراف البعيدة. أما المغرب والأندلس فلا يدينان بالولاء لبني أمية إلّا بالاسم، لبُعد المكان. ومنذ الفتح ما تزال القبائل يقتل بعضها بعضاً بين قيسية ويمنيّة، ولم يمضِ على فتح الأندلس غير تسع وعشرين سنة. وقد ظهر الخوارج هناك في المغرب والأندلس ودوّخوا ولاتها، ولم تُجْدِ حتى الآن كل البعوث والجيوش التي وجّهها هشام إلى تلك البلاد لإخماد ثوراتهم. ولكنّ بُعد المغرب والأندلس عن دار الخلافة على ما فيه من مصاعب، يعني أيضاً بُعدهما عن أعداء الأمويين في المشرق. ألهذا استوقف مسلمة بن عبد الملك أن أم الصبي عبد الرحمن، من قبائل نفزة البربرية في أقصى المغرب؛ ثم أوصى بأن يُوقِف عليه جدّه رجلاً يعرف المغرب والأندلس فيصفها له ويشوّقه إليها؟ هل كان يوحي بخطة للمستقبل أكثر مما كان يتحدث بخبر الغيب؟

مهما يكن فقد وجد الخليفة هشام نفسه يأخذ بنصائح أخيه. فاختص عبد الرحمن بن معاوية برعايته وتدريبه ونصائحه في شؤون الحكم والسياسة والمال والحرب، وأوقف عليه من يدرّبه على أعمال

الفروسية والقتال منذ ذلك الحين، وكنّاه بأبي المطرّف.

أما الصبي عبد الرحمن، ففي الليلة التالية على ذلك اللقاء مع مسلمة، فوجئت به أمه راح النفزاوية يدخل عليها في جوف الليل وقد تغشاها النوم، ولم تكن تلك عادته. فاعتدلت في فراشها وسألت مستغربةً:

- عبد الرحمن؟ ما الذي أيقظك الآن؟ متوعّك؟

هز رأسه بالنفي، واقترب منها وجلس على حافة السرير، ثم قال:

- أمّاه! حدّثيني عن المغرب وأخوالي فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

في دكان أبي موسى السرّاج في مرو الشاهجان بخراسان، كان غلامه إبراهيم البالغ من العمر زهاء عشرين عاماً منهمكاً في إصلاح أحد سروج الخيل، حين التقط بصره مجموعة من الفتيات يعبرن أمام الدكان، فتوقف عن عمله، ثم قام من مكانه ووقف أمام الدكان يلاحقهن بنظراته، إذ توقفن عند محل لبيع الأقمشة وأخذن يستعرضن البضاعة المعروضة ويقلّبن بعضها. وكان من الواضح أنهن من علية القوم وهن يرفلن بثياب الحرير الموشّى بخيوط الذهب، ويتحلّين بالذهب والجوهر. وانصبّ نظره على أكثرهن جمالاً وترفاً في مظهرها، فأدرك أنها أعلاهن مرتبة، وأن سائر الفتيات قد خرجن في صحبتها.

تسمّر في مكانه وهو يرقبها بتمعّن واهتمام، ثم أخذ يغيّر من مكان وقفته ليرى من وجهها أكثر ما يستطيع، إذ تتحوّل بجسمها من وجهة إلى أخرى وهي تتفحّص الأقمشة المعروضة. ولم يُخرِجه من استغراقه في النظر إلا صوت أبي موسى السرّاج الذي برز من خلفه:

- عد إلى عملك يا إبراهيم. أنا لا أدفع لك أجرك لتراقب الفتيات الجميلات.

التفت إليه إبراهيم وقال غيرَ آبهٍ به:

- بل فتاة واحدة يا سيّدي.

- لا تنظر إلى من هم فوقك فتشقى، ولا تتمنَّ ما لا تطول، فلا تغنم غير الحسرة، وارْضَ بما قسم الله لك.

- وما الذي قسمه الله لي؟ هل تعرف يا سيّدي؟

وارتدَّ داخلاً ليتابع عمله وقد اكتسى وجهه بملامح التأمّل والتفكير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما كان إبراهيم بن ختكان ليستمع إلى نصيحة سيّده الذي لا يكنّ له إلّا الازدراء، وما زال في سرِّه يلعن أحوال الزمان واختلال الحظوظ الذي جعلته مولى تابعاً لرجل يراه دونه عقلاً وموهبةً وعلماً. ولكنه لم يكن أيضاً ليقنع بما قسمته الحظوظ له حتى الآن. ومن هو أبو موسى السرّاج، ومن كان أجداده قبل مائة عام أو يزيد، وأين كانوا؟ لعلهم كانوا يرعون الإبل في صحراء نجد، حفاةً عراة، فإذا لم يجدوا ما يأكلونه قطعوا من سنام البعير حيًّا ليقتاتوا به، حين كان أجداده ملوك الأرض يرفلون في الدمقس والحرير! ولكنِ من قال إن حظوظ اليوم هي حظوظ الغد؟ ومن قال إن الحظوظ موروثة، وأن الرجل لا يصنع حظّه بهمّته؟ لو كان الأمر كذلك لبقيت الدنيا على حالها وكان أبو موسى السرّاج ما يزال يرعى الإبل في نجد كما كان يفعل أجداده، وكان إبراهيم بن ختكان الآن أميراً في جيوش الفرس، أو قصور المدائن.

لم يكن من الصعب عليه أن يتتبع خبر تلك الفتاة الجميلة. فعرف أن اسمها جلنار، وأن أباها هو أبو النجم المروزي، أحد كبار التجار الأثرياء. هذا إذن رجل فارسي مثله، ولم يمنعه ذلك من أن يكون

من علية القوم ثراءً ومنزلة. فلا العرب سواء في الحظوظ فرادى، ولا الفرس، وإن غلب حكم العرب في جملتهم.

ترصّدها عن بُعد وهي تتنزه مع صويحباتها في الطبيعة الجميلة الممرعة في ذلك الربيع الزاهي، ورآها تلتقط بعض الزهور البريّة.

- لا تتعبي نفسك في هذا يا سيّدتي.

جفلت إذ سمعت صوته من ورائها، وإذ التفتت رأته يقدم لها ضمة من الزهور والورود المنتقاة..

- أليس هذا ما تطلبين يا سيّدتي؟

عبست في وجهه وقالت مستنكرةً وهي تستعرض هيئته البسيطة:

- وما أنت حتى..

قاطعها قائلاً:

- خادمك يا سيدتي إبراهيم بن ختكان.

- هيا انصرف.. لا أريد زهورك.

لم تثنه لهجة الازدراء التي صدّته بها عن المضيّ في محاولته:

- لا تردّي هديّتي يا جلنار، فإنها..

صاحت به هذه المرّة بغضب:

- وتعرف اسمي؟ وتخاطبني به خطاب من رفع الكلفة؟ وتريد أن تهديني.. من تظن نفسك أيها الـ.. ومن تحسبني؟

- لا أظن بنفسي شيئاً إلّا أنني عاشق صادق العشق، وأنتِ مُنْيَة النفس، وكفى.

لم تصدّق سمعها، وصاحت به من جديد:

- إنك والله لجريء صفيق.. إن لم تغادر الآن ناديت عليك.

كانت صاحباتها قد تجمّعن عندها، فانطلقن بالضحك وهن يرسلن إلى إبراهيم نظرات مستهزئة، وقالت إحداهن:

- قد عرفته. هذا غلام أبي موسى السرّاج.

انطلقن بالضحك من جديد، بينما وقف إبراهيم يحدّق بهن بنظرات فاحصة عميقة دون أن يغيّر من تعبير وجهه، ثم نظر في ضمة الزهور التي بيده، فقرّبها إلى أنفه وشمّها، ثم قذفها إلى الأرض جانباً،

واستدار مبتعداً تلاحقه ضحكات الفتيات.

قالت إحداهن لجلنار متهكمة:

- هنيئاً لك يا جلنار. قد وجدت عاشقاً مُتَيَّماً يقطف لك الزهور!

قالت أخرى:

- لقد والله أشفقت عليه، انظري إليه يمشي منكسر القلب! أليس لغلمان السرّاجين قلوب كغيرهم؟

ردّت جلنار:

- كسر الله قلبك. إن كنت مشفقةً عليه فاتبعيه. هو لك من دوننا.

تضاحكن من جديد، حتى قالت جلنار:

- هيا نرجع، لا يتعرّض لنا غلام آخر من أضرابه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبيل المساء، وصل إبراهيم إلى بيته في حيّ فقير، وإذ همّ بفتح الباب قفز ثلاثة رجال أشداء من خلفه وأمسكوا به بغلظة. حاول التفلّت منهم ولكنهم تغلبوا عليه. ثم ساقوه معهم على الرغم منه. حاول أن يعرف السبب والوجهة دون طائل، فمضى معهم مغلوباً على أمره، إلى أن وصلوا به إلى بيت فخم أنيق في إحدى ضواحي مرو، ودفعوه إلى الداخل. كان أبو النجم المروزيّ في انتظارهم. وأدرك إبراهيم الموقف، بينما أومأ أبو النجم للرجال الثلاثة بالخروج. ثم نظر إلى إبراهيم متفحِّصا وعابساً وسأل:

- ما أمر بلغني عنك؟ تتعرّض لابنتي في الرياض.. وتلاحقها في الأسواق.. أما علمت من هي، ومن تكون؟

- بلى يا سيدي.. ولكن علم الله ما في غرضي ريبة ولا..

قاطعه أبو النجم:

- فما هو إذن؟

أطرق أبو مسلم متردداً، وتحولت ملامح أبي النجم إلى تعبير الصدمة وقد أدرك المغزى:

- كأنك قد تطلّعت إلى.. خطبتها؟ أهذه هي غايتك؟ هذه والله أشدّ وأعظم.

هنا لم يتردد إبراهيم في الرد بجرأة غير متوقعة:

- لِمَ لا يا سيدي. قد شرع الله الزواج.

فوجئ أبو النجم بجرأته، بل بصلافته:

- وماذا عن التكافؤ؟ قد ذهبت بعيداً في أوهامك وصلافتك أيها الفتى.

- إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه، إلّا تفعلوا تكن فتنة وفساد كبير. أليس هذا قول النبي؟

قال أبو النجم بنبرة التنبيه:

- صلى الله عليه وسلم.

ردد إبراهيم:

- صلى الله عليه وسلّم.

- إنا لا نعرف دينك ولا خلقك. ولكنا نعرف أنك غلام أبي موسى السرّاج.

- نعم يا سيدي. وهي مهنة أعتاش منها.. الآن.. ولكن غلام السرّاجين لا يبقى غلاماً ولا سرَّاجا إن كانت له همّة عالية، وكان يطلب الغاية البعيدة. وأنا رجل قارئ.. وإني وإن كنت الآن فتى رقيق الحال، فإن ذلك من تداول الأيام، التي لا تبقى على حال.. فقد كان أجدادي من سادة القوم أيام الأكاسرة.. ولكن الدهر لم ينقضِ، والأيام التي دالت علينا يمكن أن تدول لنا من جديد.. وأنت يا سيدي.. أنت أجدر الناس بأن تفهم قولي.. إذ دمي دمك، إلّا أنك غنيّ، وأنا الآن فقير.

وقع كلامه موقعاً عاطفياً خاصاً من نفس أبي النجم. وأدرك أنه أمام فتى، شديد الذكاء أو الدهاء حتى يأتي بذلك الكلام في ذلك الموقف، وكان ذلك ما قصد إليه إبراهيم. فعلى نحوٍ ما رقّ له قلب أبي النجم، ولكنه تدارك على نفسه وقال، وقد زايله الغضب والغيظ:

- أنصت يا إبراهيم. والله لقد هممت أن آمر غلماني أن يوجعوك، لولا أن سيّدك أبا موسى السرّاج من أهل مودّتنا. والآن أعفو عنك لما سمعته منك، على ألّا تعاود. فإن عاودت لم أرعَ فيك دماً نرتد إليه، إذ يجمعنا العرق ويفرّقنا اختلاف المنزلة.. و.. ربما كان كما قلت: لا يبقى غلام السرّاجين غلاماً ولا سرَّاجا إن كان أهلاً للغاية العظيمة. ولكن، لا أحد يبيع على شرط الغيب، فذاك بيع الغَرَر.. كن أولاً ما تسمو إليه قبل أن تتعرّض لخطبة بنات السادة. هل تعي قولي؟

هز إبراهيم رأسه ممتثلاً. وقال أبو النجم:

- اخرج الآن.

إذ مشى في طريق الخروج، انفتح الباب وفوجئ إبراهيم بدخول أبي موسى السرّاج، الذي توقف من فوره ينظر إليه بوجه عابس وقال مؤنِّباً:

- ألم أنهك يا إبراهيم؟ سوّد الله وجهك.

تدخّل أبو النجم:

- لا بأس يا أبا موسى.. دعه يخرج، قد فرغت منه.

خرج أبو مسلم وقد أخذته الحيرة والدهشة. فما كان يعرف قبل الآن أن لأبي موسى صلة بأبي النجم. وبالطبع ما كان ليعلم أن أبا النجم واحد من نقباء الدعوة العباسية، وأن أبا موسى أحد مجلس السبعين. وكل ما كان قد تناهى إلى علمه خبر غامض عابر لا يعلم حقيقته ولا صدقه من كذبه، عن دعوة سريّة لإمام مجهول من آل محمّد. ولم يستوقفه الخبر يوماً ليبحث فيه. فالإشاعات في زمانه كثيرة، والنبوّات أكثر. وكان من الذكاء والدهاء بحيث يدرك أن الناس إذا تسلّطت عليهم النقمة من أحوالهم والرغبة في الخلاص، مالوا إلى اصطناع البشائر والأوهام حتى تصير عندهم بمثابة النبوءة المحققة بفردوس أرضي قادم ومهديّ مخلّص بعد انقطاع النبوّات.

حين خلا أبو موسى بأبي النجم قال:

- إن شئتَ أوجعه ضرباً.. ولكنه فتى مسكين، ويحسن الخدمة.

أما أنه فتى مسكين، فربما صحّ ذلك في وصف حاله من الفقر. ولكنه ليس مسكيناً على وجه اليقين، بالنظر إلى كلامه الذي أنبأ عن عقله. هكذا وقع في نفس أبي النجم وهو يستمع إلى تعليق أبي موسى. وردّ قائلاً:

- لا.. لا تضرّه بشيء.. قد انتهى الأمر.

- على أي حال، لن يُرى في مرو بعد الآن. فقد عزمت على الرحيل إلى الكوفة.. سأصحبه معي.

- الكوفة؟ ودعوتنا هنا؟

اقترب منه أبو موسى ومالَ عليه هامساً:

- أريد أن أكون في خدمة كبير الدعاة هناك. وإذا نزلتم بها في طريقكم لملاقاة الإمام، كنت في خدمتكم.. ومن يدري، لعلي أن أكون فيمن يستقبلون الإمام في الكوفة، حين يأذن الله بظهور دولته. فأفوز فوزاً عظيماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن تختفي مرو وراء الأفق، توقف إبراهيم ببغلته، والتفت يشيّع المدينة بأنظاره. وحين تنبه له أبو موسى الذي كان يتقدمه قال:

- لا تلتفت وراءك. وانظر أمامك فقط.

هز إبراهيم رأسه هزة خفيفة دون أن يتحول ببصره عن أطراف المدينة البعيدة، وقد اكتسى وجهه بملامح التأمل والتفكير، وقال بنبرة عميقة:

- أمامي الذي ورائي، وورائي الذي أمامي.

علق أبو موسى متهكماً:

- ما هذا الذي تهرف به؟ حكمة أخرى من حِكَم الفرس؟

وحثّ بغلته متقدماً.. لاحقه إبراهيم بنظرات غامضة قبل أن يستأنف المسير في أثره:

- وما أدراك أنت يا بائع السروج؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هاه.. ألم تفرغ من إصلاح سرجي بعد؟

قبل أن يجيب إبراهيم بن ختكان الذي كان منهمكاً في عمله، تدخل أبو موسى وخاطب السائل متهكماً:

- ليس سرجك يا أبا عيسى.

أشار الرجل إلى السرج الذي يعمل عليه إبراهيم وقال مؤكِّداً:

- بل هذا سرجي وأنا أعلم به.

- بل هو سرج بغلتك!

مرّت لحظة قبل أن يتفطّن الرجل للطرفة، فانطلق بضحكة خفيفة تابعه عليها أبو موسى، بينما اكتفى إبراهيم بابتسامة ماكرة وهو يرمق الرجل. ثم قال:

- أوشكت على الفراغ منه، فلو عدت بعد ساعة..

قاطعه الرجل محتجاً وتوجه بالكلام إلى أبي موسى:

- ما بال غلامك هذا يا أبا موسى؟ ما زال يؤجّل ويماطل. ألا تجد لعملك غلاماً أنشط منه؟

ثم توجه بالكلام إلى إبراهيم:

- أنصت.. سأعود بعد ساعة، فإن وجدت أنك لم تفرغ منه أسمعتك ما تكره أمام أهل السوق.. ولو كان الأمر إليّ لأوجعتك.

تدخل أبو موسى من جديد:

- سيفرغ منه، إن لم تشغله بكلامك هذا الذي لا يطحن قمحاً.

ما إن خرج الرجل حتى ظهر أمام الباب أربعة رجال ذوو هيبة ووقار، وزاد عجب إبراهيم إذ رأى أبا موسى يخف لرؤيتهم ثم يقبِّل رؤوسهم. وسمعه يهمس لهم:

- أنتم في الكوفة وأنا لا أعلم؟

قال كبيرهم:

- ها أنت تعلم، وقد وصلنا منذ قليل..

قال أبو موسى وهو يتلفت يُمنةً ويُسرة:

- نذهب إلى دارنا من الآن.

قال كبيرهم:

- واعدنا صاحبنا عاصم بن يونس في داره.

ابتعد القوم، وارتد أبو موسى إلى إبراهيم وقال:

- اخرج من الآن إلى دار عاصم بن يونس لتكون في خدمته وخدمة ضيوفه.

قال إبراهيم مشيراً إلى السرج الذي يعمل عليه:

- وسرج الرجل؟

عقب أبو موسى مبتسماً:

- تعني سرج بغلته؟

- بل سرجه كما قال هو نفسه. لا أكون أرفقَ به من رفقه بنفسه.

قال أبو موسى ضاحكاً:

- إذا عاد واعترض، وضعته على ظهره، ثم شككته بعود حتى يعدو في السوق.. انطلق الآن ولا تبالِ.

خرج إبراهيم، وقد أدرك بفطنته من تصرفات أبي موسى مع الرجال الأربعة وتهامسه معهم، ثم ما أعقب ذلك من أمره المفاجئ بترك عمله والإسراع إلى دار صاحبه عاصم، أن وراء الأكمة ما وراءها.

وكان مصيباً في إحساسه. فلم يكن أولئك الأربعة غير نقباء خراسان: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وقحطبة بن شبيب، ومالك بن الهيثم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذ إبراهيم يرفع صحاف الطعام بعد أن فرغ الضيوف من عشائهم. ثم غاب وراء ستارة غليظة في انتظار الأمر. وكانت الصالة الواسعة معتمة إلّا من ضوء سراج واحد. ثم توجه عاصم إلى ضيوفه الكبار وسأل:

- أحسب أنكم في طريق الحج لملاقاة الإمام.

هز سليمان بن كثير رأسه، ثم أومأ إلى الستارة وقال:

- هل يسمعنا من أحد؟

نظر عاصم حيث أومأ ابن كثير وقال:

- تعني إبراهيم؟ لا أحسبه يسمع. ولو سمع فما أحسبه يفقه قولنا. إنما هو غلام من السرّاجين لا يُحسِن غير عمله والخدمة.. وهو مولى صاحبنا...

أكمل سليمان عنه:

- أبي موسى السرّاج.. لمحناه عنده اليوم.

قال عاصم:

- وهو من أرسله عندي لخدمتكم.. وكذلك يفعل كلما اقتضت الحاجة.. فلم نرَ منه إلّا الصمت والتفاني في الخدمة. ثم إنه من عجم خراسان، وهم كما علمتم أشدّ الناس بغضاً لبني أميّة، ولا يرجون غير زوال دولتهم، فقولوا.. كيف خلفتم خراسان من ورائكم؟

أجاب سليمان بصوت خفيض:

- وراءنا في خراسان ما يسرّ قلب الإمام وقلوب أهل دعوته. قد دخل في الدعوة جموع من العرب والعجم لا نعدّهم. وكلهم مترقب إظهار الدعوة وظهور الإمام، ليعتدل به ميزان الحكم، فيرفع الجور، ويقيم العدل، ويحكم بالقرآن والسنّة وسيرة الأئمة المهديين الراشدين، ويعامل الناس بالسويّة: العرب والعجم.. اليمنية والرَّبعيّة والقيسيّة.. الأمراء والأجراء..

قال عاصم:

- ما زال الناس يتوقعون ظهور الإمام المهدي منذ دهر.. وقد ضجر بعضهم من الانتظار.. وأخشى إذا تطاول الأمر أن يداخلهم الشك في وقوع الخبر المأمول، أو يظنوا أنه إن صحّ فزمانه غير زمانهم.

تدخّل لاهز قائلاً:

- بل إنه لحق مثلما أننا ننطق.. وقد أزف أوانه، وظهرت علاماته. وإلّا كيف وصلت الدعوة إلى كل مِصْر وبلدة، ودخل فيها أمة عظيمة من الناس، منهم السيد والمولى، والغني والفقير.. ذلك وهم لا يعرفون من إمامهم إلّا الصفة.. وهو مقيم بعيداً عنهم في قرية نائية مجهولة، يجلس على وطاء من الصوف الخشن.. ثم يبلغ من ولائهم أن يَقسِموا له الخُمس من أموالهم لا يسألون كيف تُنفَق.. وإذا أخذ الوالي بعضهم بالظنّة لم يبوحوا بشيء حتى لو أحرقت جلودهم بأسياخ الحديد المحمّاة، أو سِيقوا إلى القتل. فإن لم تكن هذه بشائر التمكين، وأدلّة صحة الخبر وإحكام القدر، لإمامنا المهديّ الموعود، فما تكون؟

أضاف قحطبة:

- بلى وربّ الكعبة. فإنهم وإن لم يكن عهدهم لرجل مخصوص يعرفونه باسمه وشخصه، فإنهم يعطونه للمعنى الذي اجتمعت عليه قلوبهم وائتلفت أرواحهم. العدل الذي لا يخالطه ظلم، والحق الذي لا يشوبه باطل، والصدق الذي لا يلابسه كذب.. بل يعطونه لأنفسهم على ما تتوق إليه، وتعتقد به من وعد القرآن وأثر الرسول.. من الماضي النقي الطاهر الذي عفى عليه الحاضر، والمستقبل الذي يستدير به الزمان على ذلك الماضي.. فلو رأيتهم يستمعون إلى هذه المعاني، لرأيت قوماً قد أخذهم الخشوع، واخضلّت لحالهم بالدموع.. و..

توقف إذ سمع الجميع شهقة بكاء مكتومة من خلف الستارة، فتوجهت أنظارهم إليها مستطلعين، ثم برز إبراهيم من ورائها وقد ارتفع نشيجه، وقبل أن يتبيّنوا ويخرجوا من دهشتهم أقبل مسرعاً وانكبّ عليهم يقبِّل أيديهم ورؤوسهم، وهو ما يزال يجهش بالبكاء. ودون أن يقول شيئاً استدار ومضى خارجاً، مخلِّفاً إياهم في حال من الذهول يتبادلون نظرات التعجب والتساؤل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان قد أوغل الليل، ولكن إبراهيم كان ما يزال مستيقظاً وهو متمدد على حشيّة خشنة في غرفته الخالية من الأثاث إلّا من الحصير وكوز ماء وصندوق خشبي قديم يحفظ فيه ثيابه، وكومة من الرقع المخطوطة بالفارسية في ركن الغرفة. وكان يضع ذراعه تحت رأسه وينظر في السقف وقد ذهب في تفكير عميق، حين سمع طرقاً على الباب، فاعتدل جالساً من فوره وقد تنبهت حواسه كلها، ولما تكرر الطرق التقط فانوسه الصغير وهبّ إلى الباب مسرعاً.

فوجئ بسيّده أبي موسى السرّاج ومعه سليمان بن كثير ولاهز بن قريظ الذين دخلوا بلا تلكّؤ وأغلقوا الباب وراءهم. وبدا إبراهيم شديد الدهشة وهو يرحِّب بهم متلجلجاً.

- سادتي ومالكي عنقي.. أي نبأ عظيم أقدمكم على خادمكم ومملوككم في جوف الليل؟ وأنا الأجدر بأن آتيكم زحفاً.

ثم تلفت في المكان وتابع:

- اعذروني.. لا أجد ما أجلسكم عليه غير الحصير.. ولكن قلبي وروحي أوسع لكم.

قال أبو موسى:

- قد رأى السادة منك شيئاً، فأحبّوا أن يراجعوك فيه.

تظاهر إبراهيم بالخوف وقال:

- هل رأى مني سادتي خطأً أنكروه؟ فهذه عنقي مبذولة لهم، إن شاؤوا ضربوها بخطئي.

تحوّل أبو موسى بنظره إلى سليمان الذي قال:

- بل نطلقها لو كانت مغلولة. هذا سيّدك أبو موسى قد منحنا إياها.. ولكن.. قل لنا أولاً: ما أبكاك اليوم في دار عاصم؟

أجاب إبراهيم دون تردد:

- أبكاني الذي أبكى إخوانكم في خراسان.. وأنا منها.. أبكاني الفرح بالبشرى القريبة، والوعد المحقق.

قال سليمان:

- وقد وعيتَ مقالتنا؟

أجاب إبراهيم:

- ومن يستمع إليها ثم لا يعيها إلّا من انغلق قلبه، وذهب فؤاده، ولم يكن له من صفة البشر إلّا الرسم؟ بل وعيته يا سيدي قبل أن أسمعه!

تدخل لاهز قائلاً:

- وكيف ذاك؟

- أنا غلام من السرّاجين يا سيدي.. نعم.. ولكني أقرأ في كتب الأقدمين من أخبار الحدثان.. خبر الماضي وخبر المستقبل.. فكأني أعاينه.. وكأني عشت ما لم أعشه من تواريخ السابقين، وأعيش ما لن أعيشه من أخبار آخر الزمان.. فاجتمع في فؤادي الزمان على هيئته الدائرة.. وعلمت أن الإمام المهديّ يظهر في زماننا هذا، وأنه قد ظهرت علاماته، وبانت إماراته، وأن الله تعالى يشرّف موطني خراسان فتكون منها شوكة الإمام وجيش دعوته المنصور بإذن الله، فتنحدر الرايات السود من المشرق كالسيل العَرِم لا يصدّه شيء.. ثم يملك أئمة الدعوة مشرق الأرض ومغربها، فلا تمطر سحابة في موضع من الأرض، إلّا ويرجع إليهم خراجها. ومازلت أقرأ مثل هذا وأرى فيه الرؤيا كفلق الصبح، حتى اعتمرت نفسي به، ورجوت أن أكون خادماً عند نعل الإمام.

قال ذلك كلّه بتدفق عجيب، وصوت متخشّع مشبع باليقين، فترك القوم حيارى وقد غمرهم الذهول. وكانوا قد تنبهوا إلى كومة الرقع المخطوطة في ركن الغرفة. ثم نظر سليمان في لاهز وأبي موسى وقال:

- وهذا الذي قيل لنا إنه لا يفقه إلّا عمل السّروج!

ثم عاد يتفحّص إبراهيم الذي ظل واقفاً مطرقاً منحنياً بكتفيه تهيًّبا وخشوعاً. ثم قال سليمان:

- قد اطلعت على سرنا يا إبراهيم.. وقد رأينا منك وسمعنا.. فهل تبايع وتعاهد ثم تخرج معنا لرؤية الإمام في موسم الحج؟ فإنه يحتاج إلى خادم.

هتف إبراهيم كمن لا يصدّق سمعه:

- الإمام؟ رؤية الإمام؟ أنا..

ونزل على ركبتيه وأخذ بيد سليمان يقبّلها وهو يجهش بالبكاء، وقال بصوت متقطع:

- أما الإمام، فقد بايعته وعاهدته في نفسي على الأخبار التي قرأت، والآن أجدّد العهد والبيعة... أما أنت يا سيدي، فلك عليّ عهد الله أن أحفظ لك منّتك هذه ما عشت أبداً.

إذ خرج القوم وأغلق إبراهيم الباب وراءهم بهدوء وهو يحمل الفانوس، تحوّلت ملامحه فوراً من التذلّل والتخاشع إلى الصلابة والقوة، وانتصب بجسمه من حال الانحناء الذي كان عليه، ولاحَ على وجهه طيف ابتسامة غامضة!

في منى، كان الإمام محمد بن عليّ يجلس في القبة التي ضُربت له مع إخوته حين دخل عليه النقباء الأربعة، بينما تخلّف عنهم إبراهيم خارج القبة في انتظار الإذَن. فلما أذِن له آثر أن يزحف إلى الإمام على ركبتيه، ثم نزل على قدميه يقبّلهما بخشوع وهو يجهش بالبكاء، ثم قبّل يده ووضعها على رأسه تبركاً.

ربت الإمام على رأسه وقال:

- خفِّض عنك يا إبراهيم.. قد ذكر لي القوم خبرك. وقد رضينا بما رضوا منك، وقبلنا تزكيتهم.

قال أبو مسلم دون أن يرفع رأسه:

- ومن هو إبراهيم بن ختكان حين يمنّ الله عليه بخدمة الإمام المهديّ الذي ما زلت منذ عقلت أقرأ عن صفته في كتب الطوالع، فلا أنام ولا أصحو إلّا على تخيّله، فأضرع إلى الله ألا يميتني حتى أكحّل عيني بطلعته، ثم أكون من أدنى خدمه، أحمل له نعله، وأصبّ له الماء. وها قد أجاب الله دعوتي.. فاللهم لك الحمد، عاملتني بما أنت أهله لا بما أنا أهله.. فلك المِنَّة ولك الفضل.. لبيك اللهم لبيك، فيما أمرت من اتباع دعوتك مع من اجتَبَيْت من آل الرضا.. عليها نحيا، وعليها نموت.

تأمله الإمام وهزّ رأسه هزة خفيفة علامة الرضا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

[redacted]

هجرتُكِ حتى قلتِ لا يعرف الهوى

وزرتكِ حتى قلتِ ليس له صبرُ

صدقتِ أنا الصبُّ المصاب الذي به

تباريحُ حبٍّ خامر القلبَ، أو سحرُ

وإني لتعروني لذكراك هزّة

كما انتفض العصفور بلّله القَطْرُ

بينما كانت الجارية تغني هذه الأبيات، وهو مضطجع على أريكته بين أصحابه وندمائه ويحتسي من كأسه، بدا من ملامح وجهه وهزَّة جسمه وإغماض عينيه أنه شديد التأثر بالسماع. ولكأنه أراد أن يتمرّد على مشاعر لا يحب أن يبديها، أو أنه لا يحسن التعامل معها، فاعتدل في جلسته وصاح معترضاً:

- ألا يكفينا من شعر العشاق المحرومين، يبكون ويستبكون.

قالت المغنية ورد، وكانت بارعة الجمال حسنة الصوت:

- وهل في أشعار العشق الصادق غير هذا يا مولاي؟

- إذن لا كانت ولا كان قائلوها. ولكن دونك هذه الأبيات للمنخل اليشكري، فذاك هو الفحل.

ثم أنشد الأبيات.

ولقد دخلتُ على الفتاةِ

الخِدرَ في الليلِ المطيرِ

الكاعب الحسناء ترفل

بالدِّمَقْس وبالحريرِ

فدفعتها فتَدافَعَتْ

مشـيَ القطاةِ إلى الغديرِ

ولثمتها فتنفَّسَتْ

كتنفس الظبي البهيرِ

وأحبها وتحبّني

ويحبُّ ناقتَها بعيري

هتف الندماء بصيحات الإعجاب والتأييد. وعاد الوليد بن يزيد يخاطب الجارية المغنية الحسناء:

- هل تحسنين غناء هذا؟

- يمنعني الحياء يا سيدي!

أطلق ضحكة ساخرة، تابعه عليها الآخرون، وقال:

- هل سمعتم هذا؟ يمنعها الحياء! وماذا يبقى لنا من القينة الجارية مع الحياء؟ إذن نمكث عند أزواجنا حتى يقتلنا الضجر.

ضحك الجميع من جديد، إلّا ورد التي اكتسى وجهها بملامح الحزن والضيق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقي متمدداً وحده على الأريكة بعد أن خرج السّمار، وقد استغرقه التفكير، وطافَ به طائف من الحزن.

وإذ أحسّ حركة خفيفة التفت إلى جهتها ليرى ورداً واقفة هناك، بوجه ساكن حزين، قال بصوت هادئ، وقد عاد لينظر في السقف:

- ما الذي رجع بك وقد انفضّ المجلس؟

قالت بصوت هادئ يشوبه الحزن:

- حاجة القلب يا مولاي.

- لا أجد حاجة لقلبي.

- بل قلبي يا مولاي!

لم يفاجئه كلامها، فقد كان يستشعر من حركاتها ونظراتها وسلوكها معه أنها ليست كأيّ من جواريه، وأنها تحمل له مشاعر المحب الحريص. قال:

- وما حاجة قلبك يا ورد؟

- حبّ مولاي.

وجلست على ركبتيها عند أريكته. قال:

- ألا يحب الرجل جواريه جميعاً؟ لماذا يبقيهن حوله إذن؟

- إن كنّ كلهن سواء عنده، فهو لا يحب أياً منهنّ. وحاجة القلب يا سيدي غير حاجة المتعة.

- لا حاجة لك أن تتزلفي بكلام الحب، فإن كان لك حاجة أخرى..

قاطعته:

- لا والله لا أطلب شيئاً من متاع الدنيا.. بل أريد أن أخدم سيدي خدمة المحب، لا خدمة العبد والجارية.

- ما بك أيتها الجارية؟ هل اختلط عقلك حتى صرتِ تهذين؟ أم شربت من تلك الخمرة..

رفع رأسه قليلاً ينظر في وجهها وتابع متهكماً:

- تعلمين أنه حرام!

- لا أشربه يا مولاي.. و.. نعم إنه لحرام.

وأرسلت نظرها إلى أواني الخمر في المكان.. قال الوليد:

- كأنّك تعرّضين بمولاك!

- بل أضنّ به على أن يناله سوء في الدنيا والآخرة.

قال ساخراً:

- ما شاء الله! هل جاؤوني بجارية أم فقيه؟ هيا.. ذريني وحدي.

لم تتزحزح من مكانها، فانتهرها قائلاً:

- ما بك؟ أصابك الصمم أم ماذا؟ لا تعصي أمر مولاك فيؤدبك.

- أعصي مولاي، وأطيع قلبي فيه.

قال متضجًّرا:

- هل عدنا لحديث القلب والحب؟

- وأيّ شيء أجمل من الحب الذي سخرتَ به الليلة.

- وما الحبّ؟ هاه!

- أمر تعرفه حين تختبره، وتدركه حين تتذوقه.

- إذن لن أعرفه يوماً ولن أدركه.

- ولذلك فإنني شديدة الحزن على مولاي. فإن من فاته الحب، فاته أمر عظيم.

- بلى لقد اختلط عقلك لا ريب. أينا أحق بأن يحزن على الآخر: الأمير الذي سيقت له الدنيا، أم الجارية التي تُباع وتُشترَى؟

- ما علمت أن الله قد خلق الجارية على فطرة أخرى غير فطرة الحرائر. فكلنا لآدم، وآدم من تراب. وأما أنها تُباع وتُشترَى، فهي لم تختره لنفسها.. إنما هي حروب الرجال وغاياتهم. أريد أن أبقى في جوار سيدي على أيّ حال، لا بحكم الرق، ولكن بحكم القلب.

- القلب من جديد!

- ومهما تظهر يا مولاي، فإنك والله لوحيد حزين، وفي قلبك حاجات غير حاجات الحكم والملك.. ولكنك تنكرها. وأريد أن أتقرّب منك، بغير متعة الأسماع والأبصار.

- وما وراء الأسماع والأبصار؟

ثم استدرك متهكّماً من جديد:

- آه، نعم. العقل والفؤاد.

قالت بنبرة التأكيد:

- نعم.. العقل والفؤاد.

مرت لحظات صمت. وبدا شارداً منشغلاً في التفكير وهو يتابع النظر إلى السقف، كأنه قد غفل عن وجودها في جواره. ثم بدأ يدندن بالأبيات التي اعترض على تَغَنيها بها، وكان صوته مفعماً هذه المرّة بالعاطفة. ولم يكتفِ بالأبيات التي غنّتها حتى جاء بغيرها من القصيدة نفسها:

هجرتكِ حتى قلتِ لا يعرف الهوى

وزرتكِ حتى قلتِ: ليس له صبرُ

صدقتِ، أنا الصَبُّ المصاب الذي به

تباريح حب خامر القلبَ أو سحرُ

وإني لتعروني لذكراكِ هزّة

كما انتفض العصفور بلّله القَطْرُ

لقد كنتُ آتيها وفي النفسِ هجرُها

بتاتاً، لدى الأيامِ ما طلعَ الفجرُ

فما هي إلّا أن أراها فجاءةً

فأَبْهَتُ، لا عُرف لديَّ ولا نُكُّر

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها

فلّما انقضى ما بيننا سكنَ الدُّهر

أما والذي أبكى وأضْحَكَ والذي

أماتَ وأحيا والذي أمره الأمرُ

لقد تركتني أحسد الوحشَ أن أرى

أليفَيْن منها لا يَرُوعُهما النُّفرُ

ما أن فرغ حتى تحوّل بجسمه عنها كي لا ترى دمعة ترقرقت في عينيه. ولكن ذلك لم يُخف عنها ما يداريه من الشعور بالوحشة والحزن، بكل ما يُظهر من العبث واللهو والمجون. ولم يكن حوله أحد غيرها يدرك ذلك منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل الأبرش الكلبي على الخليفة هشام يستأذن لمحمد بن عليّ الذي قَدِم عليه من الحميمة على مجرى عادته السنويّة للحصول على صلته، ومعه ولداه أبو جعفر وأبو العباس. وهذه المرّة بدا هشام شديد الانفعال، فقال للأبرش:

- هذا قبل أن يكثر الكلام في دعوتهم، يزعمون أن الخلافة تصير إليهم. وقد استشرف الناس لهم. وكنت أقول: لا آخذ أحداً بالظنّة. أما الآن، فقد زاد الدخان، وأخشى أن تكون تحته نار عظيمة. ولقد هممت الآن وقد وصل أن أحبسه وأنكّل به.

كان الأبرش أجرأ وزراء هشام على نصحه مهما يكن الكلام ثقيلاً. فقال:

- لا تفعل يا أمير المؤمنين. إن كان في المقدور أن ينالوا الخلافة فلا بدّ والله أن ينالوها. فلا تقطع أرحامهم وتأثم برأيك فيهم، وصانِعهم، فإن مصانعتك إياهم من أجل عقبك لهو الرأي والحزم. وإلّا يكن مقدوراً، فما خوفك لما ليس بمقدور؟ على أن إظهارك الخوف منهم تنبيه للناس عليهم، فأمْسِك أعزّك الله.

أخذ هشام برأي مستشاره الحكيم على مضض وقد أضمر أن يشتد على محمد بن عليّ. فلما دخل عليه بالسلام، قال من فوره:

- والله لولا الإسلام لقلت: لا سلّم الله عليك ولا قربّ دارك، ولا حيّاك. ولقد هممت أن أنكّل بك.

صُدِم الزوار الثلاثة، ولكن محمد بن عليّ حافظ على هدوئه ورباطة جأشه وقال:

- أعيذك بالله يا أمير المؤمنين.

تابع هشام بالنبرة الصارمة نفسها:

- ولقد كنا نَصِلك ونُحسِن وفادتك لله والرّحم، حتى كثر الكلام فيك وفي غش بني أبيك وما يؤملون ويرجون، والله مكذّب آمالهم. فإن كنت تطلب الصلة وسداد الديون، فانتظر بها دولتكم التي تتوقعونها وتروون فيها الأحاديث، وترشحون لها أحداثكم، ثم اقضِ دينك ودين إخوتك.

ردّ محمد بن علي قائلاً:

- كأنا قد تحدثنا في مثل هذا عامنا المنصرم يا أمير المؤمنين.. وقلت..

قاطعه هشام:

- ذلك قبل أن يكثر الكلام فيه ويفشو في الأمصار.

- وهل وقع ذكري في تلك الأخبار يا أمير المؤمنين؟

- اللهم لا.. ولكنهم يذكرون بني العباس.. وأنت كبيرهم.

- لو كان لي شأن فيه لما كنت ألزم داري في الحميمة، قريباً من دار الخلافة، وبعيداً عن مواطن الفتنة وأهلها، ولما جرؤت على أن آتي مع بعض ولدي إلى عرين الأسد أرجو صلته. ولقد قلت عامنا المنصرم مقالةً أذكرها. قلت: لا يعدو من يفشي هذه الأراجيف أن يكون: محباً لنا غالياً غرّته الأماني فصارت عنده بمثابة الحق الواقع، أو مبغضاً قالياً لنا يريد أن يحرّض علينا أمير المؤمنين لينكبنا. أما الآن أقول: لا يعدو أن يكون مبغضاً لنا على الغاية التي ذكرتها، أو مبغضاً لأمير المؤمنين غرّته الأماني بزوال مُلْكه، فعلّق ذلك بنا لمكاننا من بني هاشم، ونسبنا في عم رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-. فأحرى بنا وبكم أن نخيِّب ظن المبغضين لنا أو لكم، على الرحم التي بيننا. وإنك لتعلم يا أمير المؤمنين أنّا ما نقدر على لجم أفواه الناس. وكم من شيء قد قيل وخفق في أقاويل الناس، ثم أكْذَب الله أقاويلهم فيه وأبطله. وهذا إن شاء الله من ذاك. فلا تقطع رحمي منك أطال الله بقاءك، فإننا لم نأت حتى بلغنا الجهد، وأنا على ما ترى من الضعف ووهن العظم، ولا أحسب أن أعيش إلى قابل. وإن الله، وله الحمد، قد ولّاك خلقه، وجعل عندك من المعرفة بالله والفضل والبرّ والرأفة والرحمة ما رجوت أن يسعنا، فإن لنا رحماً بكم يا أمير المؤمنين، وحقاً في الإسلام.

تمكّن محمد بن عليّ بحُسْن منطقه وبلاغة قوله وهدوء نفسه أن يستلّ غضب الخليفة، فرَقّت ملامحه، وأمر له بصلة عظيمة.

أما ولداه أبو جعفر وأبو العبّاس فكانا يستمعان في تلك الأثناء وهما يضطرمان بنار الحقد والغضب حتى ليكادا أن يبديا به. وعلى الرغم من إعجابهما بقدرة أبيهما على ضبط مشاعره واحتواء خصمه في عقر داره وقاعدة ملكه حتى أذهب عنه غضبه وهواجسه وتحوّل به إلى مصلحته، فإن اضطراره إلى مجاملة الخليفة وتعظيم أمره والدفع عن نفسه بتلك الحجج زادهما غضباً وحقداً. وما إن أخذوا في الابتعاد عن الرصافة حتى نفخ أبو العباس عن الغلّ الذي ضاق به صدره وقال:

- نبوءة أم غير نبوءة.. أما العزيمة فليست على شرط النبوءة، بل هي على شرط ما في نفسي من العداوة والبغضاء والطلب والثأر. بلى يا هشام، والله لئن صدقت العزيمة، قبل النبوءة، ثم أظفرنا الله بكم فلأقتلنكم قتل سفّاح لا يرعى فيكم رحماً ولا إلًّا ولا ذمّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف عبد الرحمن بن معاوية، وكان قد بلغ الحادية عشرة من عمره، في شرفة قصر جدّه، يلاحق ركب محمد بن عليّ وهو يبتعد، بنظرات عميقة غامضة. وكان قد سمع طرفاً من حديث جدّه معهم وهو في الرواق المتّصل بالقاعة. وكان منذ وقت يَلزم جدّه أكثر وقته كما شاء جدّه. وما هي حتى انضم إليه جدّه في الشرفة، فوضع يده على كتفه.

ولحظ هشام أنه يلاحق ركب محمد بن علي بأنظاره. فعرف أن شيئاً ما قد وقع في نفسه من ذلك الحديث. فأحبَّ أن يعلِّمه درساً آخر من الدروس التي درج على تلقينها له:

- إن من فساد الرأي يا أبا المطرّف أن يضع السلطان اللين في موضع الشدّة، ويضع الشدّة في موضع اللين. وإياك أن تُشهِر السيف إلّا لتهوي به، ولا تعمد إلى ذنب الأفعى فإن السمّ في رأسها، فإذا رأى الناس حزمك في قمع الفتنة ارتدعوا، فتكون بذلك قد حميت ملكك وحقنت دماءهم. فكانت الشدّة خيراً

لك ولهم، وكان باطنها الرحمة وإن كان ظاهرها العذاب في حينها. ولكن، قدّم الرأي. فالسيف بلا رأي يقطع صاحبه. وقد تأخذ العدوّ بالمصانعة والخدعة والتدبير بأكثر مما تأخذه بالسيف.. هل تعي قولي؟

هزّ عبد الرحمن رأسه. ثم فاجأ جدّه بكلام غير متوقع:

- سمعت من يقول: لا ينفع الحذر مع القدر.

تأمله هشام بعمق، ثم قال:

- هذا فوق سنك يا أبا المطرّف.. ولكني أجيبك. فإن لم تدرك المغزى كله الآن، فاحفظه حتى تبلغ أن تدركه. والآن يا أبا المطرّف، هل نعرف قدر الله قبل وقوعه؟

هز عبد الرحمن رأسه بالنفي، فقال هشام:

- وإذن فإن من اختار العجز والقعود، فقد عرفنا أن هذا قدره بعد أن كان منه العجز والقعود. وأما من اختار النشاط والحركة وعلو الهمّة وطلب الغاية البعيدة ثم سعى لها سعيها، فقد عرفنا أيضاً أن هذا قدره، بعد أن ظهر منه كل ذلك. إنما يظهر القدر بأعمال الرجال. أليس كذلك؟

تريّث هشام وقد ذهب في التأمّل، ثم أكمل بنبرة من يحدِّث نفسه:

- على أن الإنسان لا يعيش وحده. فقدره من أقدار الآخرين أيضاً. ثمّة أعداء يدبّرون في مشارق الأرض ومغاربها، وثمّة أنصار محبون لا تعرفهم الآن ولا يعرفونك، وثمة ناس يموتون، وآخرون يولدون.. وثمة عابرون في سفر يوافق طريقهم طريقك.. فكل هؤلاء من قدرك.

ثم ربّت على عبد الرحمن بتحبب وقال مبتسماً بنبرة أخرى أقل جدًّا:

- وثمّة فتاة قد وُلدت أو سوف تولد، لا نعرف الآن أهلها ولا منازلها، ستكون أيضاً من قدرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لدى عودته إلى الحميمة قصّ محمد بن عليّ على إخوته وولده إبراهيم ما دار بينه وبين هشام وكيف همَّ بحبسه، لولا أن دفع الله عنه. وكان إبراهيم بن ختكان ينصت وهو متشاغل بخدمة الحضور.

تساءل إبراهيم بن محمّد:

- ولكن، ألم يراجعنا في ذلك قبل الآن، فأنكرتَ وحاججت حتى سكن ورضي؟ فلماذا اشتدّ هذه المرّة حتى بلغ منه الأمر ما تروي؟

أجاب الإمام:

- كانت قبل ذلك دندنةً متقطعة. والآن زاد الكلام فيها بعد أن انتشرت الدعوة في كل تلك الأمصار. وواليه على خراسان يرسل إليه محذِّراً. وقد علمتم أنه تقبّض على بعض أهل دعوتنا وعذّبهم عذاباً

شديداً ليحملهم على الكلام، فلم يقرّوا له بشيء. فالآن تعلمون الحكمة في كتمان أمر الإمام واسمه حتى تستعلن الدعوة إذا جاء أوانها.

قال أبو العباس بحنق ظاهر:

- لوددت والله أن يكون أوانها اليوم لا الغد، حتى أشفي غليلي من هشام وبني أميّة، حتى لا يبقى عليها أمويّ واحد.

قال الإمام:

- كل شيء بموعد ومقدار. والحكيم من كبح غضبه حتى نال مطلبه. وربّ رجل لبث يدبّر بعقله صابراً على دهره، حتى إذا أبصر آخر الطريق أغراه بالتعجّل فذهب بعمله وجهده.. فالصبرَ الصبر.. أما هشام فلا أحسب أنك تشتفي منه حياً يا إبراهيم.. فقد اجتمع عليه بنو أمية وأهل الشام. واسمعوا الآن قولي: خراسان قاعدتنا وعدّتنا، ولكن أوّل انخذال بني أميّة سيكون بأيدي بني أمية هنا في الشام، إذ يتنازعون بينهم أمرهم وتفشل ريحهم ويخرّبون بيوتهم بأيديهم ثم بأيدينا. وهشام يعرف من ولي عهده الوليد مثل ما نعرف وزيادة. وما زال يرجو أن يستبدل به أحد أولاده. أفلا تسألون لماذا لا يفعل وهو الخليفة صاحب الأمر والنهي، على ما عُرِف عنه من القوّة والحزم؟ ذلك أنه علم أن شطراً من بني أميّة سيخالفون عليه، فيكون الضرر أكبر مَن المنفعة. فإذا ذهب هشام وتولّى الوليد، ثم وقع بينهم ما نرجو من اختلاف الكلمة، انشغلوا عن أطراف الدولة، عندئذٍ نعلن دعوتنا في خراسان.

فجأة سُمِع صوت إبراهيم بن ختكان بما بدا أنه خرج منه عرضاً وعفو الخاطر:

- صدقتَ يا سيّدي.

اتجهت إليه أنظار الجميع وقد أخذتهم الدهشة، فبدا أنه تنبّه لنفسه فقال مستدركاً بسرعة وبنبرة اعتذار:

- العفو يا سيّدي.. ليس لمثلي أن..

قاطعه الإمام وقد غلب عليه الفضول:

- بل قل.

تردد إبراهيم قليلاً، ثم انطلق بالكلام مترفقاً:

- هو كما ألهمك الله يا سيّدي. أما الخُلْف بين بني أميّة فهو أمر واقع لا محالة. فليس بعد هشام رجل من بيت الخلافة يجتمع عليه القوم، أو له قوّة وعزم. أما أبناء هشام فلم يبقَ بينهم بعد موت معاوية من يرضاه القوم. وكثير منهم يذكرون عهد الخليفة السابق يزيد لولده الوليد. وأما الوليد نفسه فقد اشتهر بفسقه وفجوره وتبديده المال وتهوّره وبغضه لعمّه. فإذا تولّى نكّل بأبناء هشام فصاروا له عدواً. وقد علمت أنه ما زال في الأغدف يهدّد ويتوعّد أن يبطش بكل من وافق عمّه على خطة خلعه، وفي مقدّمتهم بنو القعقاع من قيس. فإذا بطش بهؤلاء انقلب عليه القيسية كلهم وانحازوا إلى خصومه. وأما

أبناء الوليد الأول، أعني الوليد بن عبد الملك، فما زالوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة من الوليد بن يزيد، بل من هشام نفسه. إذ في نفوسهم أن الخلافة كان ينبغي أن يرثها الولد لا الإخوة، كما ورثها الوليد بن عبد الملك من أبيه، وقبل ذلك عبد الملك من أبيه مروان. ولكنها ذهبت بدلاً منهم إلى سليمان بن عبد الملك، ثم عمر بن عبد العزيز الذي لم يكن حتى من أبناء عبد الملك، ثم إلى يزيد بن عبد الملك، ثم إلى هشام، والأنكى أن تتصرف بعد ذلك إلى الوليد بن يزيد الفاسق دونهم؛ وليس في أحد هؤلاء حزم السابقين ولا درايتهم بشؤون الحرب ولا المُلك.. إلّا رجل واحد..

تريّث لحظة، وازداد الحضور تنبُّها مع العبارة الأخيرة، واشتدّت أبصارهم إليه استطلاعاً، فتابع قائلاً:

- رجل واحد من بني أميّة.. إلّا أنه ليس من ذرية عبد الملك.. ذلك هو مروان بن محمد، والي أرمينية والجزيرة فهو رجل الحرب ورجل السياسة، وآخر الأمويين الأقوياء القادرين، وله في غزو الروم صولات وجولات أكسبته عزماً وحزماً، ووراءه جيش كبير. هذا هو الرجل، إلّا أنه كما قلت ليس من بيت الخلافة وإن كان من بني أميّة. فإذا تنازع بنو أميّة في الشام، وخلت كرسي الخلافة من رجل يملؤها بحقها، وجد مروان نفسه مدفوعاً لملئها. إذ هكذا طبائع الحكم ونواميس الدنيا كما تبيّن كتب الأوّلين: إمّا أن يتواضع أهل الحلّ والعقد على رجل منهم فيُوَلّوه أمرهم بالشورى، وإما أن يكون مُلْكاً يُوَرَّث. فإن لم يكن هذا أو ذاك، فهي جبريّة القوي المتغلّب. ولكنّ هذا لا يُمكّن لنفسه إلّا بعد صراع طويل وقتال مرير ينشغل به سنواته الأولى. وهنا.. هنا.. ترتفع الرايات السود في خراسان، وتبدأ دولة الأئمة من آل الرضا.. رضيَ الله عن حاضرهم وغائبهم.

رانَ الصمت على الحضور وقد غمرهم الذهول، وتسمّرت عيونهم على «غلام السرّاجين» الذي عاد يتشاغل بعمله في خدمة البيت وهو يتمتم:

- العفو يا سادتي.. قد جاوزت قدري. فإن قلت خيراً فقَبَسٌ من أنوار أئمتي ولله الحمد والمنّة، وإن قلت شرًّا فمن نفسي.. وإني لأستغفر الله.

رجل واحد من الحضور اختلطت مشاعره فيما سمع بين الإعجاب والوساوس. ذلك هو أبو جعفر بن محمد. وحين انفرد بأخيه أبي العباس في ساحة البيت بقي صامتاً متفكّراً. فقال أبو العباس:

- مدهش، أليس كذلك؟

هزّ أبو جعفر رأسه هزّة خفيفة دون أن يزايله السهوم، ثم قال بنبرة خاصّة:

- بلى.. مدهش.. أكثر مما يلزم!

تفحّصه أخوه متعجباً ومستطلعاً:

- ماذا تعني؟

التفت أبو جعفر وحدّق في عيني أخيه وجاهاً وقال مكاشفاً:

- غلام من السرّاجين حدث السنّ، حسبناه لا يصلح لغير الخدمة، يحمل لنا نعالنا ويصبّ لنا الماء ويضع صِحاف الطعام ويرفعها، وإذا أظهر العاطفة لأبينا فاق كل الناس، بل فاقنا نحن، وأجهش بالبكاء حتى نقول: أهلك الرجل نفسه. وحسبنا أن هذه حدّه. ثم نسمع منه فجأة، وعلى غير توقع، هذا الكلام الذي لا يصدر إلا عن رجل داهية انتهى إليه العلم والعقل معاً، كأنه وُلِد على سرير الحكم والقيادة، فهو مطّلع على أسرارهما، عارف بأحوالهما، لا تغيب عنه شاردة ولا واردة، بل نبّهنا إلى أمور غابت عنا. فهل هذا حال غلام من السرّاجين خرج من خراسان؟

ثم ذهب ببصره إلى البعيد وتساءل كمن يحدِّث نفسه:

- ما هذا الرجل؟ وما حقيقته؟ تراه يعمل في خدمتنا أم في خدمة نفسه وخطةٍ نذر نفسه لها؟

في تلك اللحظة كان إبراهيم بن ختكان يراقب الأخوين من زجاج النافذة متشاغلاً بمسحه وتنظيفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

«على أن الإنسان لا يعيش وحده. فقدره من أقدار الآخرين أيضاً. ثمّة أعداء يدبّرون في مشارق الأرض ومغاربها. وثمة أنصار محبون لا تعرفهم الآن ولا يعرفونك، وثمة ناس يموتون، وآخرون يولدون.. وثمة عابرون في سفر يوافق طريقهم طريقك. فكل هؤلاء من قدرك».

لم تغادر هذه المعاني التي سمعها عبد الرحمن بن معاوية من جدّه الخليفة، عقله ووجدانه. فكان يسترجعها بين الفينة والأخرى، ويسترجع معها كلام مسلمة بن عبد الملك عن الأمويّ الذي يحيي مُلك بني أمية في المغرب بعد زواله في المشرق.

كان ما يزال فتى صغيراً يعيش في ظلّ جدّه بين الرصافة ودمشق. ولم يكن له من الأمر شيء إلّا أن يرافق جدّه، أو يجلس إلى مؤدّبيه أو يثوب إلى أمّه يسأل عن قومها في المغرب ويذهب بخياله بعيداً. وقد يشهد جدّه يستقبل عُمّاله وولاته، أو يأمر بتوجيه الجيوش، أو يملي كتبه لقادته وعُمّاله في الأمصار. ولكن، لم يكن له رأي أو عمل في ذلك كلّه. ولو أنه قضى أجله في ذلك الحين، لما كان له سيرة يقصّها رواة التاريخ، وربما نُسِي اسمه إلى الأبد. ومع ذلك فإنه سوف يدرك في يوم من الأيام حكمة ذلك الكلام من جدّه، وأنه بينما كان لا يزال صبيًّا لا يقدر على شيء من عمل الرجال، كان آخرون في مشارق الأرض ومغاربها يحبكون سيرته منذ ذلك الحين دون علم منه ولا إرادة، وأن ما سوف يلقاه في قابل الأيام بعزيمته وإرادته واختياراته وتدبيره، إنما يشتغل على شبكة واسعة، وسع دولة الخلافة، حبك خيوطها آخرون من قبل لتتقرر بها من بعد مصائر دول ورجال، كان كثير منهم غافلين عنها في حينها.

ما كان لعبد الرحمن بن معاوية أن يدرك هذا وهو صبيّ لا يشارك في الأحداث التي تجري علناً أو سرًّا في مملكة جدّه: في خراسان والكوفة والحميمة وسائر الشام، وكذلك في ولاية إفريقية وأقصى المغرب والأندلس! أي في المشرق الذي سمع مسلمة بن عبد الملك ينذر بزوال مُلك بني أمية فيه، وفي المغرب الذي بشّر مسلمة بأن هذا الصبي ذا الجديلتين سوف يحيي فيه مُلك بني أميّة.

ومن مفارقات الدهر أنه رأى في مجلس جدّه بعض الرجال الذين سوف تتشابك سِيَرهم بسيرته في المستقبل: محمد بن عليّ وولديه أبي العباس وأبي جعفر، ثم الصّميل بن حاتم المكنّى بأبي جوشن.

وقد شاهد هذا الأخير قبل عام ونيّف مع آخرين على رأسهم كلثوم بن عيّاض القشيري، وابن أخيه بلج القشيري، وثعلبة بن سلامة العاملي، قبل أن يوجههم على رأس جيش كبير جمعه من كل أنحاء الشام، إلى المغرب لإخماد ثورة الخوارج الذين أعيوا عامله عليها عبيد الله بن الحباب، فأرسل يستنجد الخليفة ويستمدّه. وقد جعل على رأس الجيش كلثوم بن عياض، وعهد إليه بولاية المغرب بدلاً من ابن الحباب، على أن يليه ابن أخيه بلج في الرتبة، ثم ثعلبة العامليّ. وكان أكثر ما لفت اهتمام الصبي عبد الرحمن في ذلك المجلس الصميل بن حاتم الذي يحمل سواكاً لا يفارقه. وكان إذا تحدّث لم يتلطف بكلامه تلطف الآخرين ولم يتكلّف تكلّف أصحاب السلطان. فقد كان الرجل أعرابياً فظًّا لم تهذبه الحواضر. وكان مع ذلك من أشدّ الناس بأساً وشجاعةً وكرماً. وبذلك ساد قومه القيسيّة على الرغم من غلظته وجلافته. ولكنه كان كذلك حاد الذكاء بالفطرة، وإذا خاصم نبذ إلى خصمه على سواء ليكون على بيّنة من عداوته، فلا يباطن ولا يواري. وإذا عاهد لم يخن حتى يخون الآخر، وإذا أعطى

أسرف إسراف من لا يخشى الفقر، وإذا قاتل أسرف في القتل كأن قلبه قد خلا من الرحمة. فكان مفرطاً في كل شيء، ظاهره كباطنه، يجري على سجيته فلا يأبه لقائل فيه، لكأنه لم يخرج من الجاهلية وحميّتها، ولم يمسّه الإسلام إلّا مسًّا رفيقاً.

ولكن جيش الخوارج في المغرب على ضعف عدته، كان أعظم عدداً، وعلى الرغم من استبسال جيش الشام، تمكّن الخوارج من هزيمتهم هزيمة منكرة، في أحواز مدينة طنجة. وقُتِل في المعركة كلثوم بن عياض، فتولى القيادة ابن أخيه بلج الذي اضطر إلى الانسحاب بمن تبقى معه قبل فناء الجميع، والتجأ إلى مدينة سبتة الحصينة التي ضرب عليها الخوارج الحصار. وأقفروا الأرض من حول سبتة يومين حتى لا يجد المُحاصَرون معاشاً بعد أن تنفد أقوات المدينة مع طول الحصار. فلم يجد بلج أمامه إلّا البحر والأندلس. فأرسل إلى واليها عبد الملك بن قطن يطلب منه أن يرسل إليه الميرة والمراكب لتحمله وجنده إلى الأندلس. ولكن ابن قطن خشي أن يزاحمه جند الشام على الأندلس إذا نزلوا الجزيرة، ومعهم عهد أمير المؤمنين بتولية بلج على المغرب بعد عمّه القتيل، والأندلس تبعٌ لها. وعلى الرغم من أن الأندلس ولاية أمويّة تتبع الخلافة في الشام، فقد كان ذلك بالاسم في المقام الأول لبُعد المسافة. أما في واقع الحال، فقد استقل ولاة الأندلس بحكمها معوّلين على عصبياتهم. وحتى عامة الناس في الأندلس كان قد بلغ بهم مقامهم فيها أن باتوا يرونها بلدهم دون سائر المسلمين خارجها، فكانوا يكرهون أن يلتحق بهم فيها طارئون جدد، فيزاحموهم على أراضيها ومنازلها وخيراتها الوفيرة، ويخالفوهم على ما ألفوا فيها من طبائع العيش وطرق الحياة.

ولذلك كلّه أبى عاملها عبد الملك بن قطن أن ينجد طالعة بلج في سبتة. فلما طال الحصار نفدت الأقوات وكاد القوم أن يهلكوا جوعاً حتى أكل بعضهم خشاش الأرض وزواحفها ودويباتها. ولما رأى الصميل بن حاتم بعض الجند يتضورون جوعاً حتى أخذوا يمضغون جلود نعالهم، بلغ منه الضيق والغضب، وخاطبه أحدهم قائلاً:

- أما لهذا الحال من آخر يا أبا جوشن؟ إن كان لا بدّ من الموت فلماذا نطيل احتضارنا؟ أفلا نخرج فنقابل الخوارج ثم نموت بسيوفهم ميتةً أكرم من هذه وأقلّ إيلاماً؟

قال الصميل:

- صدقت.. ولأحملنّ بلج على ذلك، فإن أبى خرجت بمن يختار الخروج معي.

وفجأة نزل عن جواده وأخذ يمسّد على عنقه وقال:

- ما عرفت العرب جواداً كجوادي هذا.. لم يخذلني مرَّة واحدة. وهو عندي كبعض ولدي.

قال أحد الجند:

- بارك الله لك في جوادك يا أبا جوشن.. ولكن..

قاطعه الصميل:

- ولكم فيه!

وبحركة خاطفة سريعة استلّ خنجره وأهوى به على نحر الجواد فشقّه، وانضخ دمه على وجهه وصدره، أمام دهشة الحضور.

- دونكم فكلوه الآن.

ثم انثنى مبتعداً، وإذا ببلج يمشي مُقبِلاً عليه وقد شهد الموقف، قال:

- عقرت جوادك أبا جوشن لتُطعِم بعض الجند.

- قد صار أنفع لحماً منه للركوب والحرب.

- ما ساد أبو جوشن قومه بغير هذا مع شدّة بأسه. ولكن ليتك تريّثت.

- الجوع لا يتريّث.

هز بلج رقعة بيده وقال:

- لو انتظرت حتى تلقاني لادّخرت جوادك للركوب والحرب.. الفرج قريباً يا أبا جوشن. أخيراً.. والي الأندلس ابن قطن يعرض علينا المراكب والأطعمة والنزول في جواره.

- الآن وقد أبى علينا كل ذلك الوقت؟ ما الذي غيّره؟

- حاجته الآن إلينا. قد استقوى خوارج الأندلس حين سمعوا بانتصارات إخوانهم في المغرب، فخرجوا عليه وناجزوه، فلم يقدر عليهم. وخشي أن تذهب الأندلس كلها من يده، فيريد الآن أن يستقوي بجندنا عليهم، ولكنه اشترط علينا.

- وما شرطه قتله الله؟

- إذا فرغنا معه من الخوارج، نخرج من بلاده فنعود إلى عدوة المغرب.

- وتعطيه شرطه، وقد صار أحوج ما يكون إلينا؟

- نعطيه ما يطلب حتى نأخذ منه ما نطلب. فقد استوى حالنا وحاله الآن.. كلانا لا يملك خياراً آخر.

- تعني إذا غلبنا معه خوارج الأندلس، وبلغنا ثأرنا منهم، نرجع عن الشرط الذي أعطيناه وننقض عهدنا معه؟ ما هكذا تورد الإبل يا بلج. ولقد علمت أن الصميل إذا أعطى عهداً لم ينقضه حتى ينقض الآخر.

- وأي عهد له بعد أن تركنا نهلك نحو العام، ولنا عليه عهد أمير المؤمنين؟

أطرق الصميل متفكراً، ثم سأل:

- كيف يحملنا إلى الأندلس؟ هل عنده من المراكب ما يحملنا دفعة واحدة ونحن عشرة آلاف أو يزيد؟

- بل يحملنا أرسالاً. جماعة إثر جماعة على قدر ما عنده من المراكب.

تنبهت ملامح الصميل وقال:

- إذن، اشرط عليه مثلما شرط عليك. نخرج إلى الأندلس أرسالاً، ولكن لا نرجع منها إلّا دفعةً واحدة، حتى لا يتلقانا خوارج المغرب قطعاً صغيرة فنهلك جميعنا.

- ولكن، كما قلت، ليس عنده من المراكب ما يكفي فيعجز لذلك عن تحقيق الشرط.

ابتسم الصميل ابتسامة ماكرة، وقال:

- وهذا عين الطلب، فإذا عجز عن شرطنا عليه، أسقطنا شرطه علينا، وأخلينا ذمتنا، فإذا اعترض، قرعناه بالسيف.

هزّ بلج رأسه مبتسماً وهو يرمق الصميل معجباً بدهائه وبُعد نظره وقال:

- كما قلت.. لم يسد الصميل قومه بلا سبب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان حظ طالعة بلج في قتال الخوارج بالأندلس أحسن من حظها في المغرب. وزادتهم الرغبة في الثأر لهزيمتهم في المغرب، عزيمةً وبأساً. فكانت مقتلة عظيمة في أحواز طليطلة، وتمكّن الجيش الشامي مع الجيش الأندلسي من سحق الخوارج واستئصال شأفتهم. وكان لطالعة بلج الفضل الأكبر في ذلك النصر العظيم.

لم يطل الوقت بعد ذلك حتى اقتضى صاحب الأندلس شرطه على بلج وأصحابه بالرجوع إلى المغرب. وكان شيخاً كبير السنّ قد بلغ التسعين. فلما رآهم يماطلون، جمعهم في داره في قرطبة وذكّرهم بالعهد والميثاق، وأغلظ عليهم. فصاح به ثعلبة العامليّ، التالي في الرتبة بعد بلج:

- وأين كان عهدك مع أمير المؤمنين حين تركتنا نهلك في سبتة عاماً كاملاً، فلم تنجدنا إلّا حين جدّت حاجتك؟

أجاب:

- مع ذلك فقد عاهدتم. والآن وقد امتلأت أيديكم من الغنائم واشتدّت شوكتكم، وثابت همّتكم، نسيتم العهود وطمعتم في بلادنا؟

تدخّل الصميل مُسْتَفزًّا:

- كيف قلت؟

- كما سمعت.

- ما علمنا أن في الأمة خليفتين. فإن لم تكن أنت هنا خليفة، فماذا تكون غير عامل أمير المؤمنين على الأندلس؟ ومن أين جئنا نحن حتى تكون هذه بلادكم دوننا.

- أهل البلد ضاقوا بكم.. يقولون نحن أولى ببلادنا.

صاح الصميل وهو يهز سواكه الذي لا يكاد يفارقه:

- ما شاء الله.. بلديّون وشاميّون طارئون.. نعم سمعنا هذا الهراء. هذا ولم يمض على فتح الأندلس إلّا نحو ثلاثة عقود..

قال عبد الملك بن قطن:

- إذن ستنقضون المواثيق؟

قال الصميل:

- لم تأخذ منا المواثيق حتى أخذت معها رهائن وضعتهم في جزيرة أم حكيم، ثم نسيتهم حتى هلك أحدهم من العطش، ولولا أن بعثنا في إخراجهم لهلكوا جميعاً.. وهؤلاء هم من خلفنا يطلبون ثأر صاحبهم.

ارتجفت ملامح ابن قطن متخوًّفا، وهنا تدخل بلج قائلاً:

- لا عليك. نعم نفي بعهودنا ونخرج من الجزيرة، ولكن على الشرط الذي رضيتَه منا.. دفعةً واحدة لا أرسالاً متفرّقة. فهل لديك المراكب التي تسعنا جميعاً؟

بدا ابن قطن مضطرباً وقال:

- قد علمتم أنه ليس عندنا ما نحملكم عليه دفعةً واحدة.

قال بلج بلهجة حازمة:

- إذا أسقطت شرطنا عليك، فقد سقط شرطك علينا. قُضِي الأمر.

وانثنى خارجاً مع أصحابه، وقبل أن يبلغ الباب، التفت من جديد إلى ابن قطن، وقال بلهجة مبطنة بالتهديد:

- ولا تحدثك نفسك أن تجمع علينا.. فقد رأيت قتالنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين اختلى بلج بأصحابه وعدد من قادة جيشه قال:

- لقد يئس الآن منا.

قال الصميل:

- وهذا حين يصير الرجل شديد الخطر.

- تعني أنه سيحشد لنا.

- إن قعدنا ننتظر.. نعم.. إلّا أن نستبقه فنبادر إليه.. فقد صدق في واحدة.. جلّ البلديين كما يسميهم معه، إلّا أنني منذ نزلنا الجزيرة واصلت قومي القيسيّة، وهم الآن على أمري.

صاح أحد القادة:

- صدق أبو جوشن.. نبادر إليه فنخرجه من قصره قبل أن ينجم شرّه، وننزلك مكانه، فأنت أحق منه بعهد أمير المؤمنين. ونثأر لصاحبنا الذي هلك عطشاً في «أمّ حكيم».

علت صيحات التأييد، ولكن بَلْجاً اعترض قائلاً:

- وَيْحَكم لا تفعلوا.. فإنه رجل من قريش، وكان موت صاحبكم شبه الخطأ.

صاح أحد الحضور في وجهه متحدياً، وكان من اليمنيّة:

- ألأنه مضريّ مثلك ملتَ إليه؟ ألا تكون كأبي جوشن وهو مضريّ قيسي مثلك؟ لا والله بل تُقيدنا منه وتخلّي بيننا وبينه، أو لنعصيَنّ أمرك، وليكن ما يكون.

ارتفعت أصوات التأييد من جديد، وسُقِط بيد بلج الذي أرسل نظرة إلى الصميل، فوجده يبتسم راضياً وهو يسوك أسنانه.

وفي ذلك اليوم شهدت قرطبة جنود الشامية يقتحمون دار الإمارة ويسيطرون عليها، ثم يُخرِجون عبد الملك بن قطن منها مذموماً مدحوراً وقد بدا عليه الوهن الشديد.. بينما وقفت حشود أخرى مِن الشامية في الخارج تتشفى به وتصيح بطلب الثأر بصاحبهم الذي هلك عطشاً في «أم حكيم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن بلج القشيري الذي غدا الآن والي الأندلس بعد إخراج عبد الملك بن قطن وقتله، بأقلّ بأساً من الصّميل بن حاتم. ولكنه كان أكثر تسامحاً وأحسن رأياً في شؤون السياسة والحكم، وأقرب إلى روح الدين. وقد أدرك أن الثأر من عبد الملك بن قطن سوف يجلب المزيد من الصراعات والحروب. فما كان لولديه قَطَن وأميّة أن يسكنا بعد مقتل أبيهما دون أن يحشدا عليه جموع البلديين الموالين، ومعهما فارس الأندلس في ذلك الوقت: عبد الرحمن بن علقم اللخميّ، الذي كان مسموع الرأي وموضع التقدير. وعلى الرغم من أن بلجاً صمّم على إخمادهم بحزم وقسوة، إلّا أنه كان شديد الأسف أن يؤول أمر الأندلس إلى هذا ولما يمضِ على فتحها زمن طويل. ففي الأمس قاتل مع ابن قطن والبلديين معاً حتى كسروا الخوارج. فلما فرغوا منهم انقسموا الآن فريقين يقاتل بعضهم بعضاً: بلديين وشاميين،

وقد استقوت طالعة بلج الشاميّة بمن انضم إليهم من قبائل القيسيّة من أهل البلد، بفضل الصميل بن حاتم الذي استمالهم إليه بعصبية الدم، وجعلوه رئيسهم.

وأشدّ ما كان ينكأ على بلج أن هذه الحروب التي لا تنتهي بين المسلمين في الأندلس قد شغلتهم عن عدوّهم القوطي الذي استعصم في مناطق أشتوريس وجبال جليقية في أقصى الشمال منذ الفتح. وكانوا في أول أمرهم بضع عشرات من الجنود مع أهاليهم فرّوا من جيوش الفتح واعتصموا على رأس جبل في أقاصي الشمال الغربي لجليقية، ولما طال حصار المسلمين لهم دون طائل، استيأسوا منهم حتى قالوا: حفنة من الرجال، ما عساهم يستطيعون؟ فرجعوا عنهم. والآن بعد زهاء اثنين وثلاثين عاماً صارت لهم مملكة صغيرة، ومكثوا متربّصين متحفزين وقد تعاهد قادتهم على الثأر واسترجاع ما كان ملكهم ولو طال الزمن، على أن يورثوا من يأتي بعدهم تلك الغاية وإن بدت الآن بعيدة. وقد وجدوا أن الحروب التي لا تهدأ بين المسلمين أكبر معين لهم. فكلما تشاغلوا عنهم بقتال بعضهم بعضاً تقدّموا في توسيع مملكتهم ولو قليلاً.

كان ذلك أشدّ ما يؤرّق بلجاً الذي ورث روح الفاتحين وهو يرى نفسه مجبراً على مواجهة ابني عبد الملك بن قطن وجيشهما. وكان يتساءل في نفسه وأمام أصحابه بأسف بالغ: أين ذهب ذلك الروح العظيم الذي خرجت به جيوش موسى بن نصير وطارق بن زياد؟ أين الإسلام الذي يجمع ولا يفرّق؟ أين عزيمة الجهاد في سبيل الله تقرُّبا واحتساباً؟ كيف أخلت مكانها أو بعضه لمطلب الغنيمة وعصبة القبيلة. فهل يقال غداً إن طالعة بلج قد جاءت إلى هذه الديار لتزيد النار سعاراً، وتضيف إلى أسباب النزاع سبباً؟

أما الصميل فلم تكن هذه المعاني لتبلغ من نفسه شيئاً. فقد سُمِع غير مرّة يقول: وطن الرجل عصبته وقبيلته. إما أن يكون بها أو لا يكون.

أما ثعلبة العاملي، نائب بلج، فكان أكثر تفهُّما إذ استمع إلى كلام بلج ومخاوفه. فقال ليهوّن عليه:

- هوّن عليك. إنما كانت هذه الخصومات والحروب قبل نزولنا الجزيرة. فلتكن غايتنا أن نطفئ النار التي ما زالت تأكل الأندلس منذ استقر الفاتحون وأبناؤهم وأغوتهم خيرات الجزيرة، فانصرفوا عما سواها. نعم صدقت فيما وصفت.. ولكن إذا نصرنا الله على جمع ولدي ابن قطن، صار بوسعنا أن نحمل الأندلس على خطة الخلفاء، بل على خطة المجاهدين الذين افتتحوا هذه الجزيرة. وهذا من عهدنا لأمير المؤمنين.

هزّ بلج رأسه وقد أراحه منطق ثعلبة، وقال:

- فليكن إذن. ستكون مقتلة عظيمة. فلعلها أن تكون المعركة الكبرى التي تنهي أسباب الحروب بعدها. فإن كان لا بدّ، فإنّ الرحمة ألّا نريهم رحمة. ذلك ليرتدع الآخرون، فنوفر بدماء هؤلاء دماء غيرهم ممن تحدثهم أنفسهم بالخروج من أجل المطامع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد كان كما قال: مقتلة عظيمة هُزم فيها البلديّون هزيمة منكرة، وفرّ ولدا عبد الملك بن قطن. ولكن بلجاً دفع حياته ثمناً لذلك النصر المؤزّر، وتولّى ثعلبة العاملي أمر الأندلس مكانه.

ولكن الحروب بين الشوام والبلديين لم تتوقف، حتى وصل الجزيرة أبو الخطّار حسام بن ضرار، بعهد من أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك عاملاً جديداً على الأندلس. وكان قبل ذلك في جوار ابن عمّه حنظلة بن صفوان، الذي كان الخليفة قد عيّنه عاملاً جديداً على ولاية إفريقية، وتمكن بمدد كبير جديد من الخليفة من قمع ثورة الخوارج في المغرب. وكانت أخبار الأندلس وحروبها تصل إليه وإلى الخليفة في الشام. فرأى أن يولّي ابن عمّه أبا الخطّار أمر الأندلس ليُصلِح بين الناس، ويضع حداً لحروب البلديين وطالعة بلج إلى الأبد. ورجا أن يجتمع على قبوله الفريقان. فهو ليس إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، ومع ذلك يمت لكل منهما بسبب. فهو من اليمنيّة، وجلّ البلديين منهم، وهو قد قَدِم من الشام مع ابن عمه إلى المغرب قبل فترة قصيرة، فحاله حال طالعة بلج.

وما إن وصل بعهد أمير المؤمنين حتى سلّم له الجميع. فأمر بإطلاق أسرى البلديين من فوره، ودعا زعماء الفريقين بالأمان إلى دار الإمارة في قرطبة، فاجتمع عنده ولدا عبد الملك بن قطن وفارس الأندلس عبد الرحمن اللخمي، وثعلبة العاملي والصميل وغيرهم من رؤوس الشاميّة. ثم خطب فيهم فقال:

- إنما جئت بعهد أمير المؤمنين لأنصف الجميع. ولكن، كان شرطي في القبول أن يرضى بي الفريقان. فإن لم ترضوا رجعت عنكم من يومي، حتى يختار لكم أمير المؤمنين عاملاً غيري. فما تقولون؟

أعلن الحضور جميعهم رضاهم به، ولكن رؤوس البلديين سألوه بعد ذلك أن يختلوا به، وابتدر عبد الرحمن اللخمي الكلام فقال:

- ألا تريد النصيحة لله ورسوله؟

أجاب أبو الخطار:

- بلى.

- لقد رضينا نحن.. ولنستقيمنّ لك ما استقمت فينا.. وسنحمل من هم وراءنا على ذلك.. ولكن عامة البلديّين قد كرهوا مقام طالعة الشام بينهم، وأخشى إن بقوا في عصبتهم أن ينتقض عليهم أهل البلد من جديد، ثم لا يطيعوا لنا أمراً. فانظر ما ترى.

تريّث أبو الخطار متفكراً ثم قال:

- انظروني حتى يستقرّ بي المقام، ثم يكون ما تريدون، فقد ظهر لي أمر فيه صلاح جميعكم إن شاء الله.

ثم اجتمع برؤساء طالعة الشام فشرح لهم خطته لقطع دابر الفتنة إلى الأبد، فقال:

- قد جئتم محاربين بعهد أمير المؤمنين، وقد أبليتم في قتال الخوارج بلاءً حسناً، وأريتم أمانتكم، وصار لكم في هذه الجزيرة ما لغيركم، وعليكم ما عليهم، فتنتشرون في البلاد لتشاركوا في عمرانها وخيراتها. فإن اجتماعكم في موضع واحد يثقل عليكم وعلى أهل البلد، فيزاحم بعضكم بعضاً على ما في الموضع من أرض وأقوات. أمّا توزّعكم في البلد فأَرْحَبُ لكم، وأحرى أن تنخرطوا مع أهل البلد، وتنتهي هذه القسمة البغيضة بين بلديين وشاميين. وقد عزمت أن أُنزِل كل فرقة منكم ما يناسبها من الكور، فأختار لها ما يشبه منازلها في الشام حتى لا يستوحشوا. فأَهل دمشق ينزلون البيرة، وأهل الأردن ينزلون ريّة، وأهل فلسطين شذونة، وأهل حمص إشبيلية، وأهل قنّسرين حبّان، وأهل مصر في باجة وتُدْمير. ونقطع لهم ما يحملهم من الضياع في كلٍّ من هذه الكور.

لم يخالف عن رأيه أحد. وخرجوا من عنده على الرضا، إلّا الصميل بن حاتم الذي بدت على وجهه الكراهة وإن لم يعترض. ولما رأى ثعلبة العاملي ذلك منه سأله:

- لا أراك راضياً!

أجاب:

- والله ما أراد إلّا أن يشتّت عصبتنا.

- قد صرنا من أهل الأندلس كسائر الناس. أفلا نكون معهم أمة واحدة؟

قال الصميل:

- وما الرجل بغير عصبته؟ ما زالت العرب على هذا.

- وأين الإسلام؟

- تسأل أين الإسلام؟ نعم، أين الإسلام حين كنت تقاتل عصبة البلديين بعصبة أهل الشام؟ ولكنكم رضيتم بالمغنم العاجل وطمعتم بالضِّياع دون الحُكْم.

- وما أنت فاعل؟

- أنحاز إلى قومي القيسيّة من البلديين والشوام معاً.. نعم، هو كما قلت.. ما زالت العرب على هذا.. وطن الرجل عصبته أينما حلّت، كرامته من كرامتها، وعزّه من عزها، وشوكته من شوكتها. تصونه من ظلم السلطان، أو يكون له بها السلطان!

هز ثعلبة رأسه يميناً وشمالاً، ثم قال بنبرة ذاتية مشوبة بالأسف:

- كانت القسمة بيننا وبين الخوارج أولاً، ثم بين البلديين وطالعة الشام ثانياً، ثم ها أنت تنذر بقسمة ثالثة: قيسيّة ويمنيّة، وفي نفسك من أبي الخطّار أنه يمني.

قال الصميل:

- نستقيم له ما استقام لنا.

- لم أحسّ منه عصبيّة يمنيّة.

- أرجو أن يكون آخر أمره كأوّله.. لا ننزع يدنا حتى ينزع.

أرسل ثعلبة العاملي نظرة في الأفق، ثم قال:

- أما أنا.. فأرجع إلى الشام إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين وصل كبير الدعاة بكير بن ماهان ومعه صهره ونائبه أبو سلمة الخلّال قادمين من مقر إقامتهما في الكوفة للقاء الإمام في الحميمة، وجداه مسجّى في فراشه وهو في سكرات الموت، يحيط به إخوته وأبناؤه، ويقوم على خدمته وتمريضه إبراهيم بن ختكان.

أكَبّ بكير بن ماهان على يده يقبّلها:

- أذهب البأس ربّ الناس. اللهم اشف، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً.

وكذلك فعل أبو سلمة الخلّال. وقال الإمام بصوت ضعيف:

- أسندوني.

ثم أشار إلى إبراهيم بن ختكان، فأسرع وجاءه برقعة ملفوفة. تناولها الإمام ورفعها وهو يخاطب بكير:

- هذه وصيّتي لأهل دعوتنا في خراسان. الإمام من بعدي ولدي إبراهيم، له عليكم من الطاعة مثل الذي كان لي. وقد تركتكم على المحجة الواضحة ووضعت لكم الأسس والشعار، ورتّبت المجالس والطرق. فلا تنقضوا عهد الله وميثاقه، ولا تختلفوا من بعدي، فإن قوتنا في اجتماعنا، وفي تفرّق بني أميّة، وهو واقع بهم قريباً لا ريب. فإذا حان الوقت فاطلبوا بني أمية في كل بلد ومصر.. فإني أموت ولم يشتفِ منهم صدري.

ثم التفت نحو إبراهيم بن ختكان وقال:

- وهذا إبراهيم بن ختكان الخراساني.. قد عرفنا صدقه وإخلاصه، ورأينا فيه عقلاً وحكمةً وعلماً.

اكتسى وجها بكير وأبي سلمة بملامح التعجب، بينما تابع الإمام:

- جوهرة مكنونة أعثَرَنا الله عليها لأمر كان مفعولاً.. فاستعملوه.. فإن له علماً بخراسان، وعلماً بالشام، فأسْفِروه بينكم وبين إمامكم.. ولا تقولوا: حَدَث السن. فقد نُصِر رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- بالشباب فإنهم أرقّ أفئدةً، وأصبر عزيمةً، ويستقبلون من أيامهم أكثر مما يستدبرون، فهم ينظرون أمامهم، لا يشدّهم إلى الوراء عادة ترسّخت فيهم، ولا مغانم حصّلوها.

بلغ منه الجهد، وزاغت عيناه، ثم قال بصوت يكاد أن ينطفئ:

- أضجعوني إلى القبلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد دفن الإمام محمد بن عليّ، تتابع الإخوة والأبناء ومن حضر الوفاة والدفن على مبايعة الإمام إبراهيم بن محمد. ثم خرج إبراهيم بن ختكان إلى الخلاء يراقب غروب الشمس متفكّرًا.

أحسّ حركة خفيفة خلفه، وكان ذاك أبا سلمة الخلّال. ومرت لحظات صمت وتأمل قبل أن يتحدث أبو سلمة:

- كيف بلغت هذه المنزلة عند أصحاب الدعوة يا إبراهيم؟

لم يتحوّل إبراهيم ببصره عن الأفق البعيد المضرّج بحمرة الشفق، بينما أردف أبو سلمة:

- أعْني، كنا نراك..

قاطعه إبراهيم مكملاً عنه:

- عند أبي موسى السرّاج.. مولىً.. خادم.

ثم التفت إليه وتابع:

- أليس هذا حظ الأعجميّ؟ أن يكون مولى لأحد العرب كي يبلغ شيئاً لا يطاله بمواهبه؟

قال أبو سلمة:

- قد علمتَ أني أعجمي مثلك، وكذلك كبير الدعاة أبو هاشم، بكير بن ماهان.

- وها أنتما قد بلغتما بالدعوة ما بلغتما.. فلماذا تستكثر عليّ بعضَ ما بلغتما؟

- إنما أعني أنه لم يظهر منك قبل التحاقك بخدمة الإمام كل هذا العلم والعقل الذي رفعك عنده.. حسبناك..

-.. غلاماً من السرّاجين، لا يُحسِن غير صنع السروج وإصلاحها وحملها إلى أصحابها!!

وعاد ينظر إلى الأفق الوردي، قبل أن يعود إلى الحديث بصوت هادئ عميق:

- ألا يكفي صدق إخلاصي لدعوة أئمتنا سبباً في تقريبي؟ أليس هذا ما رفعك عندهم؟

- الإخلاص.. نعم. ولكن، رب قوم يفوقوننا إخلاصاً، ومع ذلك لا يصلح أحدهم أن يؤمَّر على اثنين.. أما أنت.. كل هذا العلم بالتواريخ القديمة، وأحوال الحكم القائمة.. قبائل العرب وأنسابها وأحلافها وخصوماتها، ومراتب البطون والرجال فيها.. بنو أميّة وأسرارهم، وما هو جارٍ بينهم وما يُتوقع أن يجري.. بواطن السياسة وظاهرها.. مطامع الرجال ومخاوفهم وطبائعهم.. وأنت بعد حدث السن.

قال إبراهيم بثقة:

- من طلب أمراً تجهّز له بعدّته، إن كان قادراً.. وإلّا فليقنع من الدنيا بعمل السرّاجين.

- وما تطلب يا إبراهيم؟

- ما يطلب أئمتنا.

- لكَ أم لهم؟

- لي ولهم.. معاً.. قد وجدت فيهم غايتي.. ولسوف يجدون بي وسيلتهم.

مرت لحظات صمت أخرى، وقد أدرك أبو سلمة أنه مع رجل يطوي جوانحه على همّة عظيمة لا تكون إلّا في ندرة من الرجال. ثم فوجئ بإبراهيم يسأل:

- هل تعرف نسبك يا أبا سلمة؟

بدا أبو سلمة شديد التعجب، وقال:

- ماذا تعني؟

- العرب يعرفون أنسابهم إلى قحطان وعدنان. فهل حفظنا نحن العجم أنسابنا؟

ثم هزّ رأسه يميناً وشمالاً وتابع بنبرة مشبعة بالمرارة:

- لا، لا أحسبك تعرف من نسبك أكثر من الجد الثالث.. وهذا لا تعرف عنه الكثير. وما حاجتنا إلى معرفة أنسابنا؟ يكفي أن ننتسب بالولاء إلى أحد العرب، أو إلى إحدى قبائلهم.. فلان مولى باهلة.. فلان مولى خزاعة! ألا ترى كيف تنسبني أنت، وأنت من قومي، تقول: إبراهيم مولى أبي موسى السرّاج، كأنه هو الذي ولدني.. أبو موسى السرّاج منتهى نسبتي.. كأني لم آتِ من سلسلة من الأجداد.

هنا استدار مواجهاً أبا سلمة، واستأنف:

- وما يدريك لعل نسبي يرجع إلى الأكاسرة، ملوك الدنيا في زمانهم.

اخترق أبو سلمة عيني إبراهيم بنظرة سابرة، وقد شعر بما ينطوي عليه صدره من غضب دفين، وقال:

- أهذا ما تعتقده حقاً؟ أم ما تريد أن تعتقده.

- وما الفرق إذا صحّ ذلك؟ هاه؟ إذا لم أكن أنا من أبناء الأكاسرة، فأين هم أبناء الأكاسرة؟

- قد ذهبت دولة الأكاسرة.

- نعم، لا بأس.. كما تقول، ذهبت دولة الأكاسرة، ولكن أين ذهب أبناء الأكاسرة أنفسهم؟

- ألم تُسلم يا إبراهيم؟

- بلى أسلمنا والحمد لله. ولكن الإسلام لم يمنع العرب من تأخيرنا وإخضاعنا.. والإسلام لم يمنع قبائل العرب من حفظ أنسابهم.. فهذا من لخم وذاك من طيّ.. يمنية قحطانية ونزارية عدنانية، ومن عدنان إلى مضر وربيعة.. ومن ربيعة إلى بكر وتغلب وعبد القيس وعنزة.. ومن مضر إلى قيس عيلان وإلى إلياس بن مضر.. ومن قيس عيلان إلى هوازن وغطفان وعامر بن صعصعة وسليم وسواهم.. ومن إلياس إلى كنانة ومُزينة وتميم وغيرهم.. ومن كل هؤلاء فروع الفروع حتى البطن والفخذ من القبيلة الواحدة.. وما زالوا يحفظون أشعار الجاهلية ومآثر أقوامهم فيها وأيام العرب قبل الإسلام، ويتفاخرون بها ويتنافسون ويتخاصمون.. أما العجم فهم عجم وكفى. لماذا كان علينا أن نمحو إرث آبائنا وأجدادنا لكي نكون مسلمين، ولم يكن مثل ذلك على العرب؟ لماذا ينكرون علينا ما لا ينكرون على أنفسهم.

رمقه أبو سلمة متمعناً وقد وقع كلامه في نفسه، وقال:

- في نفسك غضب جارف دفين.

قال إبراهيم:

- وغاية بعيدة، بُعْد تلك النجمة.

وأشار إلى السماء التي ظهرت نجومها بعد غروب الشمس. وأردف إبراهيم:

- إلّا أنني سأطولها.

التفت من جديد إلى أبي سلمة، واستأنف:

- كنا ملوك الدنيا حين كان العرب حفاةً جفاةً يرعون الإبل في صحرائهم.. ثم غلبوا بالإسلام. أما آن الأوان أن نغلب بالإسلام كما غلبوا؟ أليس الإسلام للناس كافة؟ فلنا فيه ومنه مثل الذي لهم.

- وأئمة دعوتنا.. أليسوا في الصدر من العرب؟

- أهمَّ من ذلك أنهم في الصدر من أهل الإسلام، وقد نقموا من بني أميّة مثل الذي نقمنا.. فلهم علينا حق الولاء والنصرة، ولنا منهم حق الإنصاف..

لاحت ابتسامة على وجه أبي سلمة وهو يرمق إبراهيم بعمق وتمعّن، ثم ضرب على ذراعه وقال:

- جوهرة مكنونة.. صدق الإمام الراحل رضي الله عنه، وقد كشف عنها من استحقّها.. ولك عليّ يا إبراهيم أن أقدّمك ما وسعني ذلك. أنا وأنت، سنمضي معاً، تردفني وأردفك حتى يبلغ الكتاب أجله، وعندئذٍ لن يحتاج أحدنا إلى أن ينسب نفسه في عرب أو عجم، بل تُنْسبُ إلينا دولة أئمتنا!

قال أبو سلمة:

- ولك عليّ يا سيدي أن أكون سيفك الذي تضرب به، ومستودَع سرّك الذي تفضي إليه.

تصافحا بحرارة، وقفلا عائدين، بينما ازدادت النجوم تألقاً في منازلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

قضى الله أن تكون خاتمة هشام بن عبد الملك في عام وفاة الإمام محمد بن علي: عام خمسة وعشرين ومائة للهجرة.

وحين دخل عليه حفدته، أبناء معاوية،وهو على فراش الموت، كان عنده عدد من أبنائه ومستشاره الأبرش الكلبي. أشار بيد مرتجفة فأقبل أبناء معاوية يقبِّلون يده بوجوه شديدة الوجوم، ثم أشار مرة أخرى لعبد الرحمن بن معاوية، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره، أن يدنو منه، ثم أخذ بيده وقرّبه إليه حتى صار رأسه قريباً من رأسه، وهمس له بصوت مجهد ثقيل:

- أسأل الله أن تخطئ نبوءة مسلمة رحمه الله، ويدوم ملكنا في المشرق والمغرب. أما إن صحّت، فبعض العزاء فيما أنبأت عنك يا أبا المطرّف.. تحيي مُلكنا في المغرب.. ولقد وطّأت لك الأندلس، إذ استقامت أحوالها أخيراً.. فإذا كان الذي أنبأ به مسلمة، وصرت إلى هناك، فاذكر جدّك هشام الذي أحبّك حبَّه لأبيك. واجعل الأندلس صورة من الشام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السنوات الأخيرة كان الوليد بن يزيد، كلما جاءه أحد من دار الخلافة في دمشق أو رصافة هشام، بادره بالسؤال:

- هل مات الأحول؟

يعني بذلك عمّه الخليفة. ثم يُظهِر خيبة الأمل حين يأتيه الجواب بالنفي. وحين وصله الرسول هذه المرّة بدأ بالسؤال المعتاد:

- هاه! هل..

ثم استدرك قبل أن يتم سؤاله:

- ولكن الأحول يأبى أن يموت.

قال الرسول:

- بل مات يا مولاي.

جفل الوليد في مكانه، وبدا أنه كذّب سمعه:

- ماذا قلت؟

- مات عمك يا أمير المؤمنين!

أشار بذهول إلى نفسه:

- أمير المؤمنين!

أشار الرسول إلى أحد مرافقيه، فحمل صندوقاً بديع الصنعة ووضعه أمام الوليد وقال الرسول وهو يفتح الصندوق:

- شارات الخلافة يا مولاي. أرسلني بها كاتبك عيّاض بن مسلم.

كان عياض في سجن الرصافة بأمر هشام، منذ جاءه آخر مرة رسولاً من الوليد يطلب مالاً، فلما أبى عليه هشام اشتد بالطلب، ثم راوده هشام على إقناع الوليد بالتنازل عن ولاية العهد طوعاً لقربه منه، ليجعل ولاية العهد لولده سليمان. ولكنه أبى وآثر الحبس على ما عدّه خيانة لسيّده. فلما وصل إليه نبأ وفاة هشام وهو في حبسه، أمر الحرس بإطلاقه من فورهم، وإلّا نكّل بهم خليفتهم الجديد، ففعلوا. ثم عمد إلى القصر فأمسكه وأخرج سكانه باسم سيّده الجديد. ولم يكن في وسع أبناء هشام أو غيرهم أن يعاندوا خشية بطش الوليد.

نظر الوليد في الشارات التي يضمّها الصندوق وهو ما يزال في حالة من الذهول. ثم قطع أحد الحاشية الصمت هاتفاً:

- مبارك لك الخلافة يا أمير المؤمنين.

فهبّ الآخرون بالمباركة، وأقبلوا على الوليد يقبّلون يده ويبايعونه، دون أن يتغيّر شيء من جمود ملامحه، وفجأة صاح بهم:

- ألا تعزّونني بعمّي أولاً؟ ما أنتم؟

ومشى مبتعداً عنهم وهم في حيرة من أمره وأمرهم. وفجأة قفز صائحاً بنشوة عارمة:

- أنا الخليفة.. أنا أمير المؤمنين!

وخرج وهو يطلق ضحكات غريبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلقته جاريته ورد وهو يتابع الضحك، فقالت متعجبة:

- أضحك الله سنّ الأمير.

- الأمير! أين أدبك أيتها الفتاة في خطاب أمير المؤمنين؟

أخذها العجب والحيرة وتساءلت:

- أمير المؤمنين؟

- أمير المؤمنين.. وغير المؤمنين.. الأتقياء والفاسقين.. الصالحين والطالحين.. الطائعين والعاصين.. جارية مَن أنت منذ اليوم يا ورد؟

أجابت وقد استوعبت الموقف أخيراً:

- جارية أمير المؤمنين.

- وأمير المؤمنين يريد أن يحتفل بإمارته للمؤمنين.. فاسقيني عليها يا ورد.

أسرعت له بالشراب، فنظر فيه وقال مستنكراً:

- شراب الورد؟ وما حاجتي بشراب الورد.. يا ورد؟ أريد الشراب الذي لا يُذهب العقل إلّا ليُحْضر القلب.. الشراب الذي أوله داء وآخره دواء.. الشراب الذي يحجب عن أبصارنا الظاهر ويستحضر الغائب.. فيعطي للبعير جناحاً يطير به.. وللظبية أنياباً تعقر بها السبع، ويوحِّد بين الذئب والحَمَل، والحدأة والحمامة.. والقاتل والقتيل!

حين وصل إلى عبارته الأخيرة، انكسر صوته معها، وتحوّل من نبرة البهجة إلى شيء من الحزن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلقت الخمرة ما في باطنه من الأسى.. وكان قد أمر بخروج ورد وسائر الخدم، وبقي منطرحاً على الأرض مع شرابه.. وفجأة انقبضت عضلات وجهه انقباضاً شديداً، وانحدرت دموعه.. وقال يخاطب نفسه:

- لماذا ضيّعتني يا عمّاه؟ لماذا صنعتني على هذا المثال؟ قلت لك: لا أريد منك غير الحب.. لا تجعلني أكرهك، فإني مسرف في البغض إسرافي في المحبة، أفما كان أجدر بي وبك أن أكون عند سريرك ساعة الموت، أطيِّب نفسك، وأمسح على جبينك، ثم أغسلك وأكفنك بيدي؟ لماذا؟ لماذا؟

وتجرّع المزيد من الشراب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كان أول عمله أن نزل دار الخلافة في دمشق، وجمع إليه عدداً كبيراً من الأعيان والقادة والسادة وشيوخ الأحياء، وخطب فيهم فكان مما قال:

-.. وقد كان مَن قَبْلي قد أمسك المال عن الناس. وقد أمرنا بزيادة أعطيات أهل الكور والأمصار عشرة دراهم لكل رأس، وعشرين درهماً للشوام. وقد كان من قبلي قد منع أعطيات أهل مكة والمدينة، فقد أمرنا بردّ أعطياتهم على ما كانوا عليه قبل ذلك. وأمرنا بإجراء الأرزاق على المرضى العجزة، وبكسوة لهم: واحدة في الحرّ وأخرى في البرد. وأمرنا لهم بالخدم يعتنون بهم حتى نبرّهم ونقضي حاجتهم دون أن يثقلوا على أهليهم. وكل من كان عليه مغرم عجز عن أدائه، تحملناه عنه. وكل من كانت له ظلامة فليتقدّم بها إلينا لننصفه حتى لو كان غريمه من بيت الخلافة. فوالله لنأخذن من الظالم للمظلوم، ومن القويّ للضعيف، حتى يأنس بنا الضعفاء والمظلومون، ويستيئس الأقوياء الظالمون.

تهامس الحضور وهم خارجون من عنده بين رضا البعض، وارتياب البعض، وتهكّم الآخرين.

وإذ اختلى به كاتبه عياض سأل مرتاباً:

- هل فكّرت يا مولاي، من أين تسدّ هذه النفقة العظيمة؟

أجاب الوليد:

- المال يا ابن مسلم، وُجد للإنفاق لا الإمساك.. على أنه ينبغي أن أشكر عمّي رحمه..

أمسك عن إتمام عبارة الترحم على عمه متابعاً:

-.. لأنه كان ممسكاً، فهيّأ لي بذلك أن أكون منفقاً عن سعة، أتألف الناس. فلا شيء كالمال يقرّب البعيد ويحشد النصير، ذلك أني سأكون في حاجة لكثرة الأنصار.. غداً.. حين أبطش بالأعداء.. فلن يكافئ كرمي إلّا بطشي بمن أعانوا عليّ عمي، ثم أعانوا عليّ الشيطان، والآن ينفلت شيطاني ليصيبهم ببعض ما أصابوني.. بل بأضعافه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان كما توعّد.

فما هي حتى انتقل إلى قصور الرصافة وجمع إليه أبناء هشام وحفدته، يحيط بهم الحرس. وأوقفهم في صالة الحكم وقتاً في انتظار دخوله عليهم. فلما دخل اتجه إلى سرير الخليفة فوراً دون أن يلتفت إلى الحضور، وجلس على السرير وأخذ يتحسسه بيديه مع ابتسامة ماكرة، يريد إغاظتهم، وقال:

- سرير مريح.. يليق بالخليفة.

ثم نهض وأجالَ بصره في المكان وقال:

- إلا أنني لا أحب أن أقيم هنا.

ثم أكمل بأسلوب مشبع بالتلميحات والتهكم المبطن:

- أعني، ذكريات كثيرة توجع القلب.. عمّي الخليفة القويّ، يصول ويجول، ويأمر وينهى، ويرفع ويضع.. لا أستطيع أن أتصوّر المكان بدونه.. أخشى أن يغلبني الحزن وأستوحش لغيابه.. وأنا رجل شاعر رقيق القلب.. تغلبني العاطفة.. ولا يليق أن يُرى الخليفة على تلك الحال.. لا.. لا أظن أني أحب الإقامة هنا، فيتمثل لي عمّي..

ثم تحول بلهجته إلى تقليد طريقة عمّه متمثلاً إياه:

- أيها الماجن الفاسق، متى ترتدع؟ والله لهممت أن أصرف عنك ولاية العهد! هه!

ثم تحوَّل بلهجته إلى الغضب الصاخب:

- هممت؟ لم يقل لي: عزمت وخططت ودبّرت وراجعت أهل الشورى ورؤساء القوم.. وشيوخ بني القعقاع.

مدّ صوته في نطق كلمة القعقاع، وركّز على العين في آخرها. وتابع دون فاصل:

- هه! شيوخ بني القعقاع يقضون في خلافة الوليد بن يزيد ابن عبد الملك بن مروان! فأين هم الآن؟ قد عزلنا عُمّالهم على قنّسرين وحمص، ودفعناهم إلى عدوّهم يزيد بن عمر بن هبيرة يتولّى تعذيبهم قبل قتلهم.. نعم، أنا أؤمن بالقضاء والقدر، خيره وشرّه.. أنت تريد.. وأنا أريد، والله فعّال لما يريد.. وقد أراد عمّي، وأراد الله. أراد عمي الخلافة لولده معاوية، فارس بني أميّة، وقاهر الروم. ثم قضى الله أن يصرعه جواده في نزهة وهو يطارد ثعلباً.. نعم.. ثعلب!

كان قد نفد صبر أبناء هشام وقد بلغ ذلك الحدّ من النكاية والتشفي، فتدخّل سليمان بن هشام وقال بجفاء:

- ما الذي تريده الآن؟

صاح به الوليد:

- أين أدبك يا سليمان في خطاب خليفتك ومولاك أمير المؤمنين؟ ولكن.. صبراً.. قل لي أولاً: ألم يضرّك أن أباك قدّم عليكم أخاك معاوية؟ ألم تحسده لذلك؟ اصدقني القول.. ألم تفرح بموته.. أعني في سرّك؟.. ولو قليلاً؟ لبرهة عابرة ربّما؟! ألم يعد الثعلب حيوانك الأثير بعدئذٍ كما صار عندي.. هه! ثعلب!

هنا فوجئ الجميع بصوت عبد الرحمن بن معاوية يقول:

- دع ذكر أبي، رحمه الله.

التفت الوليد إليه مندهشاً واقترب منه، ثم قال:

- يُعجبني وفاء الفتى لأبيه. أي أبناء معاوية أنت؟! اعذروني قد تشابهت ذرية هشام علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون! فمن صاحب الجديلتين الجريء؟

تدخل عياض بن مسلم قائلاً:

- هذا عبد الرحمن بن معاوية. وكان أحب حفدة هشام إلى نفسه.

قال الوليد وهو يرمق عبد الرحمن:

- أم م.. عبد الرحمن..

ثم بدا كأنه تفطّن إلى شيء ما، فاستأنف:

- آاه.. تذكرت الآن.. هذا صاحب الأندلس.. رحم الله عمّي مسلمة بن عبد الملك.. كان سندي الوحيد.. بسط عليّ رعايته وحمايته حتى قضى نحبه.. وكان كهلاً كبيراً يخالط، ويتوهم أنه عالِم بالحدثان.. وقد بلغتني نبوءته.

ثم انحنى ليقترب برأسه من عبد الرحمن وقال:

- إذن أنت الذي يجدّد مُلك بني أميّة في المغرب، بعد زواله في المشرق!

ثم انتصب بجسمه وتابع:

- هل هذه بشرى أم نذير؟ لئن صحّ هذا فقد اجتمع الآن في هذا المكان قتلى بني أميّة وناجيهم. من سيكون بسببه زوال بني أمية في المشرق..

وأشار إلى نفسه، وأردف مع الإشارة إلى عبد الرحمن:

- ومن سيجدد مُلكهم في أقصى المغرب. نحن المستقبل ماثلاً في الحاضر.

ثم أطلق ضحكة ساخرة، قبل أن يعود إلى الكلام بنبرة حادّة قوية:

- إلّا أنني الحاضر. ولا شيء غير الحاضر الآن.. أما أنتم فليس لكم إلّا حسرات الماضي وأوهام المستقبل.. ولكني سأبقي لكم دُوركم تفضُّلا مني ومِنّة. وليس لكم بعد ذلك عود تأخذونه مني.

اعترض سليمان بن هشام:

- تحرمنا إرث أبينا؟

- إنه إرث الخلافة.. إرثي أنا.. إرث أبي يزيد.

قال سليمان بن هشام بنبرة أشد:

- أما مال الخلافة وبيت المال، فهو للخلافة والدولة، تصنع به ما تشاء، وحسابك فيه عند الله وعامة المسلمين.. أما مال أبينا فهو خاصّته، وهو حقنا في شرع الله، نأخذه على رغم أنفك.

فجأة صفعه الوليد بقوة عارمة حتى كاد أن يقع أرضاً، وأحاط به الحرس فوراً، ولكنه مع ذلك قال متحدياً وهو يتحسس خدّه:

- قد ارتقيت مرتقىً صعباً.

ردّ الوليد:

- انظر مرتقاك أولاً أيها الصفيق!

أراد أن يُمعِن في إذلال ابن عمه على مشهد من إخوته وأبنائهم، وجماعة من الحرس وأهل الخدمة، فأمر بإخراجه إلى الساحة، وأُجلِسَ على مقعد موثَّقا، ثم أمر بحلق شعره ولحيته. ثم صاح بالحضور:

- انظروا سليمان بن هشام، واذكروا.. إن كنت أفعل هذا بابن عمّي الذي أساء أدبه، فكيف أصنع بغيره؛ ولكن.. ليس هذا كل شيء.

ثم أمر به فشُدَّ إلى جذع نخلة، ثم قدّ قميصه من دبر وكشف عن ظهره. وأخذ يجلده بنفسه حتى بلغ خمسين جلدة، ثم قذف السوط وأمر أحد الحرس أن يتمّ عنه حتى مائة جلدة ولو تساقط جلده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عاد عبد الرحمن بن معاوية إلى أمّه راح وقد بدا عليه الانقباض الشديد وجفّ ريقه وضاقت عيناه، هبّت إليه متلهفّة وقالت:

- ما الذي ألمّ بك يا ولدي؟

لم يجب. ونزل جالساً مطرقاً. فعاودت السؤال، حتى سمعته يتلو قول الله تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم).

قالت وقد قرفصت أمامه تمسح على وجهه بحنان:

- صدق الله.. ولكن ما الذي..

قاطعها ليقصّ عليها ما وقع من الوليد، ثم قال:

- بعد الذي رأيت، علمت أن الله تعالى قد أراد بأبي خيراً حين توفاه قبل أن يشهد هذا، فيلقى من الوليد مثلما لقي عمي سليمان.. وربما أكثر..

قالت راح:

- قطع الله يده وإن كان الخليفة وابن عم أبيك.

قال بنبرة اليقين:

- سيجد من يقطع أكثر من يده.

وبعد هنيهة صمت رفع رأسه ونظر في أمّه وسأل:

- كل هذه القسوة يا أمّاه، من أين تأتي؟ كيف تخلو قلوب الرجال من الرحمة؟

أطرقت لحظة قصيرة متفكرة، ثم قالت:

- شهوة المُلك يا ولدي، وغلبة الأطماع. ألم يتعوّذ رسول الله من قهر الرجال؟

قال متسائلاً:

- ألا يكون المُلك إلا مع البطش والقسوة؟ ما هكذا كان الخلفاء الراشدون، وما هكذا كان عمر بن عبد العزيز.

قالت:

- ولم يسلم من هؤلاء من القتل إلّا أبو بكر.

- وعمر بن العزيز؟

- سمعت من يهمس أنه مات مسموماً.. وقد يخلق العدل من الخصوم بقدر ما يصنع من الأنصار. فاحفظ هذا يا ولدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مقر الإمام إبراهيم بن محمد بن علي في الحميمة، كان إبراهيم بن ختكان يصب له ماء الوضوء حين قال الإمام:

- قد صحّ أول توقعاتك يا إبراهيم. فها هو الوليد قد نكّل بأبناء هشام وبني القعقاع، وهذا أول التنازع في بني أمية وأهل الشام. بقي أن نشهد سائر توقعاتك.

قال إبراهيم بثقة ويقين:

- ستراها يا سيدي.. ستراها.. بل لك يا سيدي أن تقول: بدأ منذ الآن زوال مُلك بني أميّة. ومثلُهم مثل من قال الله فيهم: (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين).

ناوله إبراهيم المنشفة واستأنف:

- ألم ترَ يا سيدي إلى الوليد قد ظنّ أنه قد فرغ من خصومه واستقام له الأمر، فغادر دار الخلافة وعاد إلى مقر لهوه في الأغدف، مخالفاً نصائح أصحابه، لا سيّما كاتبه عياض بن مسلم الذي نهاه عن ذلك وقال: «بل الآن يبدأ أمر الخصوم بعد أن أوغرت عليك صدور بني القعقاع ومن ورائهم قومهم

القيسيّة، وقد صنعت بشيوخهم ما صنعت.. ومثلهم أبناء هشام ومن يواليهم من الأمويّة. ولن يسكن هؤلاء عن التدبير عليك، وأنت بعيد عن دار الخلافة». وقد اطمأن الوليد أن العامة تؤيّده فلا تميل عليه مع خصومه، لأنه زاد في أعطياتهم وأغاث عاجزهم ومريضهم. وفاته أن الرعيّة تتقلّب كتقلّب الماء في القِدْر، وأنها تميل مع القويّ المتغلّب، وإذا جدّ الجدّ انحاز كل منهم إلى عصبته. ولكن الله أعمى بصيرة الوليد، فلم ينصت إلى النصيحة، وظن أنه في مأمن وسعة إذ ولّى على البلاد رجالاً من ذوي الحزم والدهاء، لا يشك في ولائهم لهم، فجعل خاله يوسف بن محمد الثقفي على المدينة، وعلى دمشق عبد الملك بن محمد ابن الحجاج بن يوسف الثقفي، وأبقى على العراق يوسف بن عمر. وفي ظنه أن هؤلاء يغنون عنه ليفرغ لما يُسِّرَ له بعيداً عن أعين الوشاة. فإذا أحسن عُمّاله أولئك نسب عملهم إليه، وإن أساؤوا هانَ عليه أن يتبرّأ منهم فيعزلهم ويولّي غيرهم. وكل ذلك من تدبير الله لأئمتنا المرضيّين.

أطرق الإمام متفكراً منذهلاً من جديد. ما هذا الفتى الذي يعلم دقائق الأمور كأنه قد شهد مواقفها؟ ثم رفع رأسه ونظر إلى إبراهيم متمعناً، وقال:

- ما زلت تدهشنا يا إبراهيم.. من أين لك كل هذا؟

- من لزوم أئمتنا رضي الله عنهم، ومن فَيْض بركاتهم.

- هذه الفطنة سابقة على اتصال أمرك بنا.

- قد اتصلت روحي بكم يا سيدي قبل أن يمنّ الله عليّ فألقاكم. كنتم معنى في النفس، ثم تمثّل المعنى في صورته. والإنسان يا سيدي رغبة وعقل وإرادة، فإن خلا من إحداها لم يبلغ من مجموعها شيئاً. فالرغبة عندي سيل عرم كالطوفان، وبالعقل أروضه كي يسقي الزرع ولا يهلك الضرع، وجماع ذلك كله الإرادة. أما الوجهة فواضحة وضوح الصبح: غاية أئمتنا المهديّين الذين اجتباهم الله وجعلهم موطن العلم ومنارة الهدى، وسراج التائهين من كل صنف وجنس، فليسوا لأحد دون أحد.

رمقه الإمام بإعجاب، بينما كان إبراهيم بن ختكان يفرش له سجادة الصلاة.. وقال الإمام:

- عرفتَ يا إبراهيم، فالزم.

هنا أطلّ أبو جعفر وخاطب إبراهيم بلهجة آمرة فيها بعض الفظاظة:

- إن كنت قد فرغت من حاجة الإمام، فاخرج واسرج لي جوادي واحمل متاعي على بغلتي، فإني خارج في رحلة قصيرة.

التفت ابن ختكان إلى الإمام كأنه يستأذنه، ولحظ الإمام انقباض وجهه المفاجئ وأدرك أن السبب ما شابَ لهجة أبي جعفر من الفظاظة والاستعْلاء. هزّ له الإمام رأسه بإذن الخروج، وأحبّ أن يطيّب خاطره، فقال:

- سنعرف لك حقك يا إبراهيم.. فطب خاطراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بيت يزيد بن الوليد بن عبد الملك في دمشق، اجتمع سليمان بن هشام وعدد من رؤوس بني القعقاع الذين نكّل الوليد ابن يزيد بعدد من كبار شيوخهم، ومعهم منصور بن جمهور الكلبي، أحد شيوخ اليمنية المقدمين. وكان عند يزيد ابن عمّه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. وكان الهدف إقناع يزيد بخلع الوليد وإعلانه خليفة بدلاً منه. ولما كان بنو القعقاع من القيسيّة، ومنصور بن جمهور من اليمنيّة، فإنه بذلك يضمن نصرة الفريقين معاً، ومعهم أبناء الخليفة الراحل ومن يواليهم من بني أميّة.

لم يعترض يزيد الذي كان يرى نفسه أحق بالخلافة. ولكنه ذكّر الحضور بأن شطراً كبيراً من اليمنية لا يتبعون إلّا خالد بن عبد الله القسري الذي كان والياً على العراق حتى عزله الخليفة هشام، ثم أسلمه لعدوه يوسف بن عمر الذي تولى العراق بعده، لينظر في التهم التي ما فتئ يرميه بها من احتياز المال بغير حق. فسامه سوء العذاب، وقضى زمناً بين سجن الكوفة وسجن دمشق حتى ثبتت براءته، فأمر هشام بإطلاقه، ومكث منذ ذلك الحين في بيته. والآن رأى يزيد أن يراجعه القوم في خطتهم، فإن دخل معهم فيها صار أقوى للجميع، إذ إن يمنية العراق يطيعونه منذ كان والياً هناك.

وهكذا انتقل القوم إلى بيت خالد القسريّ. فشرحوا له خطتهم، وذكّروه بالأخطار التي توشك أن تودي بمُلك بني أمية ومعهم أهل الشام، ومن ذلك ما رشح من أخبار خراسان وتلك الدعوة الغامضة التي يرى البعض أن وراءها نفرا من بني العباس. والوليد بن يزيد ليس أهلاً لحفظ البلاد، وقد آثر أن يهجر دار الخلافة إلى الأغدف بالأزرق سادراً في غيّه ولهوه.

أنصت خالد القسري باهتمام بالغ، ثم قال:

- تعلمون ما تحمّلت من الأذى حين خالفت أمير المؤمنين هشام رحمه الله في عزل الوليد عن ولاية العهد. وما كان لي في ذلك غرض إلا حفظ البلاد والعباد، من أن يتفرّق بنو أميّة ويختل ناموس الخلافة. ولم أكن جاهلاً بسفه الوليد وطيشه، ولكني أردت أن أدفع الضرر الأكبر بالضرر الأقل. والآن، فإن الذي حملني على مخالفة هشام في ذلك الحين، يحملني الآن على الرأي نفسه.. أقول: لا تفعلوا. مهما يكن الوليد فإن له بيعة في الأعناق، وإن كنتم تخشون من فتنة كامنة تحت الرماد في أقاصي المشرق، فلا تعينوا أصحابها عليكم بالخُلف بينكم. وخير ما نصنع أن ننصح للوليد ما وسعنا ذلك، فنبرِّئ ذمتنا ونعذر إلى أنفسنا قبل أن نرى رأياً آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أردف خالد القسري قوله بالفعل، وعلى الرغم من ضعفه وكِبَر سنّه، شدّ الرحال إلى الأغدف في صحراء الأزرق، وتلقاه الوليد بن يزيد بالترحاب، وقال:

- سبحان الله، كنت قد عزمت أن أرسل في طلبك، وها أنت قد بادرت بنفسك، وذلك من توافق الحظوظ والقلوب، ولكن نسمع حاجتك منا أولاً، فما الذي دعاك إلى زيارتنا يا أبا يزيد؟

- النصح لله ورسوله وولاة الأمر يا أمير المؤمنين..

- قل.

- قد علمت يا أمير المؤمنين مدى إخلاصي وولائي لبيت الخلافة، لم أُغيّر حتى حين تغيّر عليّ أهلها.

- ذلك عمّي هشام.. وقد علمت خلافك له في خلعي، ونحفظها لك.

- وقد علم الله أني ما خالفته كرهاً له، ولا لأقدّم لنفسي عندك.

قال الوليد متضجِّرا بعض الشيء:

- نعم.. صالح الخلافة والشام والمسلمين، على الرغم من كل ما يُؤخَذ عليّ.. الضرر الأصغر.. والضرر الأكبر.. وهكذا! فما النصيحة التي قَدِمْتَ عليّ بها الآن؟

- أن تغيّر قبل أن تتغيّر الدنيا عليك.

رمقه الوليد مستفسراً، فأردف:

- قد كره القوم انصرافك عن دمشق ودار الخلافة وإقامتك هنا في الأغدف.. يرون ذلك استخفافاً بهم وبتكاليف المُلك.. وقد بلغتهم عنك أمور أنكروها.

انقبض وجه الوليد وبدا عليه الغضب وقال بجفاء:

- ومن قال إني ألقي بالاً لمن ينكر عليّ؟ ومن هؤلاء القوم؟

تجاهل القسري السؤال، وتابع:

- أخشى أن يتحوّل الإنكار إلى ما هو أعظم خطراً عليك وعلى الخلافة.

قال الوليد بغضب متصاعد:

- تعني أن يخرجوا عليّ؟ ومن يجرؤ؟ ومن يقدر؟ لم يقدر أحد على شيء حين كان الخليفة خصمي ويسعى في خلعي وأنا ولي عهده. فمن يقدر الآن وأنا الخليفة، والولاة صنائعي؟ ولكن.. من هم هؤلاء؟

سلّط النظر على القسري بنظرة مستريبة يستطلع ما يكتمه، واستأنف بلهجة صارمة:

- كأنك تنطق عن خبر مخصوص تعرفه، لا عن حال تؤوّله وتتدبّره.

فهل هناك ما يجب أن تخبرني به يا أبا يزيد؟

- جئت ناصحاً، لا مخبراً يا أمير المؤمنين.

صاح الوليد:

- بلى والله إنك لتكتم عني أمراً يُبيَّت بليل.. ولئن كتمته فأنت شريك فيه.

صار الجو مشحوناً بالتوتر، وكان عياض بن مسلم، كاتب الوليد وموضع سرّه، أكثر الجميع قلقاً من المآلات المحتملة، وهو أعرف الناس بسيّده. وقال القسريّ وقد أدركه اليأس وهمَّ بالنهوض:

- قد أدّيت أمانتي، وبرّأت ذمّتي، فليأذن لي أمير المؤمنين.

صاح الوليد:

- لا وحق الله لا آذن لك حتى تفصح.

- ليس عندي ما أفصح به غير الذي قلت، فخذ أو فَدَع.

- تخالف أمري يا أبا يزيد؟ أمير المؤمنين يستعلم منك وتأبى؟ هذا عصيان.. وللعصيان عندنا دواء.

ثم تنبّه إلى عياض بن مسلم يومئ إليه أن يكفّ، فصاح به الوليد:

- ما بك تومئ إلى مولاك أيها الرجل.

وجد عياض نفسه مضطراً للتدخل، فقال ليلطّف الجو:

- قد عرفنا إخلاص أبي يزيد.. وما حمله من دمشق إلى هذا المكان إلّا صدق سريرته.. ولو كان عنده خبر يجب أن يُعلِمه أمير المؤمنين لما كتمه.

ارتخت ملامح الوليد، حتى ظن الحضور أنه رجع عن غضبه. ولكن، كان له مأرب آخر، فتحوّل بلهجته إلى التلطف إذ قال:

- لكل حق حقيقة، يصدقها العمل لا القول. لا بأس يا أبا يزيد. تمنعك المروءة أن تفضي لمولاك بسر وراءك.. وأنا أقدّر ذلك.. نعم.. أقدّر ذلك.. وأقدّر لك دفاعك عني عند عمي هشام في ذلك الوقت، على الرغم من أنك وافقته على وصفي بكل تلك الأوصاف.. ولكن، لا بأس.. ولولا تقديري لموقفك ذاك، لأجبت والينا على العراق يوسف بن عمر فيما يلحّ به عليّ!

تحفّزت ملامح القسري، بينما اتجه الوليد إلى صندوق واستخرج منه عدداً من الرسائل الملفوفة وهو يتابع الكلام:

- فما زال يكتب لي في أمرك.

يدفع إلى القسري بعض تلك الرسائل:

- ويطلب أن أدفع بك إليه ليستأنف التحقيق في الأموال التي يدّعي.. ويدّعي غيره، أنك قد حزتها بغير حق.. هكذا يدّعون!.. حين كنت والياً على العراق.

امتنع القسريّ عن النظر في الرسائل وقال ممتعضاً:

- قد فعل أيام الخليفة هشام فحبسني وآذاني، ثم لم يجد عليّ بيّنة فأمر الخليفة بإطلاقي.. وقد همّ قومي أن ينتصفوا لي منه، وهم من تعلمون، لولا أني نهيتهم، وما ذاك إلّا لصدق إخلاصي لبيت الخلافة وصالح المسلمين.

قال الوليد متصنعاً:

- هذا الذي ما فتئت أكتبه له.. ولكنه لا يملّ. لا أعلم لماذا ينقم عليك كل تلك النقمة.. وما أحسبه يسكن حتى يرى هلاكك بيده. ولكن، لا تخشَ شيئاً ما دمت أنا أمير المؤمنين، وما دمت أنت على ولائك لنا.. ولكن، كما قلت: لكل حق حقيقة، واختبارها العمل.

لم يفت القسري، ولا غيره من الحضور، ما انطوى عليه كلام الوليد من التهديد المبطّن.

رمقه القسري مستطلعاً بوجه عابس، وبعد برهة قصيرة تابع الوليد:

- أنت رجل ذو قدر في دمشق.. وجلّ اليمنية في الشام والعراق معاً يقدمونك ويرون رأيك. وضرورة الخلافة تقضي بتسمية ولي للعهد.. وقد عزمت على أخذ البيعة لأحد ولديّ: الحكم وعثمان. ولسوف يرجف المرجفون ويقول قائلهم: هما ولدا جارية. وليس لهذا سابقة في خلفاء بني أميّة.. ولكل أمر أوّل، فليكن هذا أوّل هذا الأمر. ولا أدري من الذي أملى على سلفي هذه القاعدة.. وهل يحط ذلك من قدر ولديّ وهما من صلبي؟ رحم الله مسلمة بن عبد الملك.. كان أحق إخوته بالخلافة، لولا ذلك العُرف الذي لم يرد في كتاب ولا سنّة.

ثم سلّط نظره على القسري متفحَّصا وقال:

- لهذا كنت قد عزمت على أن أرسل في طلبك وقد أتى الله بك. فما قولك؟

أجاب القسري بلا تردد:

- لا تفعل يا مولاي.

عاد الجو مشحوناً بالتوتر، وتحفزت ملامح عياض بن مسلم وقد اشتد قلقه. وصاح الوليد بغضب جارف:

- تخالف رأيي يا أبا يزيد؟

- كما خالفت عمّك فيك.

- أهذه حقيقة إخلاصك؟

- نعم هذه حقيقة إخلاصي، فإن هذا الرأي أدعى بأن يؤلّب عليك خصومك الذين جئت إليك ناصحاً لأجنبك خطرهم.

دار الوليد في المكان وقد بلغ منه الحنق مبلغاً عظيماً وقال:

- خصومي، خصومي، خصومي الذين لا تريد أن تفصح عنهم وتخوّفني بهم، وتتعذر بهم لتخالفني في أمر ولاية العهد. والله لا أرى الآن لي خصماً غيرك. وقد صحّ فيك كلام يوسف بن عمر والقائلين معه في العراق، فإن كنت لا أكسبك في صفي، فلا أخسر يوسف بن عمر من أجلك.

ثم أشار إلى الحرس:

- خذوه وأوثقوه، وادفعوا به إلى يوسف بن عمر يتصرّف به كما يشاء.

بينما أسرع الحرس لتلبية الأمر، هرول عياض بن مسلم نحو الوليد وقال ينهاه:

- لا تفعل نشدتك الله يا مولاي، فيغضب له قوم هم الآن أنصارك.

دفعه الوليد بغلظة:

- عنّي أيها الرجل! الوليد لا يخشى أحداً.. أنا وحدي مصدر الرضا والغضب.

سُقِط في يد عيّاض، وسمع صوت القسريّ لآخر مرة يقول قبل أن يخرج به الحرس:

- أخطأت صاحبك أيها الوليد.. ولسوف تأتيك الأيام بالخبر اليقين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين خلا إلى نفسه، أخذ يتجرّع الخمر بشراهة وقد ضجّ رأسه بالغضب. ودخلت عليه جاريته ومحظيته ورد، التي صارت أم ولده، وجعلها ذلك أجرأ على خطابه، فابتدرته باللوم:

- لماذا تكثر خصومك بحق الله؟ إنه خالد القسري.. من علمت.

صاح بها هازئاً:

- وما علم جارية رومية بشيوخ العرب وقبائلهم حتى تراجعني فيما أقضي به فيهم؟

- كنت تنافح عن حق ولدها منك في الخلافة على غير ما أَلِف القوم. والآن تزري بها؟ ولكن الذي يؤرّقني الآن ليس مستقبل ولدك، ولكن، حاضر أمرك.

قال متأففاً:

- الخصوم.. الخصوم.. الكل يحذرني منهم. دلّوني أولاً على الخصم والنصير.. من هم، وما هم؟

- الذين أوقعت بهم والذين عزلتهم، ثم الآن ثالثة الأثافي.. خالد القسريّ..

- هؤلاء وحدهم ليسوا خطراً أخشى منه.. وما جاء القسريّ ليحذّر ممن أعرف.. وقد تألفت سائرهم بالمال حتى لم يبقَ عندي منه الكثير. فمن أين يأتي خصومي؟ ولماذا أسمع عنهم ولا أعرفهم.

- وكيف تعرفهم وأنت مقيم هنا بعيداً عنهم؟

- فإذا كنت لا أميزَهم عن غيرهم، فالكل سواء عندي.. الكل خصمي.

- أنا لست خصماً.

أرسل إليها نظرة استهزاء وقال:

- ومن تكونين أيتها الجارية حتى تكوني خصماً أو نصيراً للخليفة؟

انكسف وجهها، وهمست بأسى:

- إن لم أكن أم ولدك، أفلا يكفي أنني أحبك.

- من لا يملك نفسه، لا يملك قلبه، فكيف تحبّين؟ إنما تحبّين نفسك وقد صرت أم ولد الخليفة، كما هي حال هؤلاء الذين يحيطون بي.

خرجت كسيفةً وقد انحدرت دموعها. فقد كانت تحبّه حقاً. وعاد يتجرّع الخمر وقد اختلطت في نفسه مشاعر الحيرة والغضب والقلق.. والحزن أيضاً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

أخذ عبد الرحمن بن مسلم، المكنّى بأبي مسلم الخراساني، يجيل بصره في أرض خراسان، وقد اقترب الركب من مدينة مرو في صحبة أبي سلمة الخلّال، نائب كبير الدعوة المقيم في الكوفة. ولما رآه أبو سلمة يطيل النظر والتأمّل،اقترب منه وقال:

- أخيراً تعود إلى ديارك يا أبا مسلم، بغير الذي خرجت منها.

هز أبو مسلم رأسه وقال:

- كأنه الأمس، حين خرجت منها فقيراً معدماً لا ألوي على شيء، ولا أملك شيئاً من أمر نفسي.. وكنت أتلفت ورائي فأرى (مرو) تصغر وتتباعد، ثم أنظر أمامي فأراها تكبر وتتسع وتقترب.. هنا..

وأشار إلى رأسه وتابع:

- لم أخلّفها ورائي إلّا بقدر ما نَصَبْتها أمامي. وها أنذا أعود إليك يا خراسان غير غلام السرّاجين الذي خرج منك.

بلى، لم يكن عبد الرحمن بن مسلم -أبو مسلم الخراساني- غير إبراهيم بن ختكان، بعد أن منحه الإمام إبراهيم اسماً جديداً وكنية جديدة، لن يعرفه الناس بعد ذلك إلّا بهما!

في منزل سليمان بن كثير، كبير نقباء خراسان، تتابع الحضور على السلام على أبي سلمة الخلّال. وكان فيهم قحطبة بن شبيب ولاهز بن قريظ ومالك بن الهيثم، وأبو داود خالد بن إبراهيم، وأبو منصور طلحة بن رزيق، وأبو النجم. أما أبو مسلم فقد تخلّف عن صاحبه أبي سلمة، ولبث واقفاً لدى الباب، حتى ناداه أبو سلمة:

- تقدّم يا أبا مسلم.

بدا التعجب على وجه الحضور الذين لم يعرفوه من قبل إلا باسم إبراهيم ابن ختكان، غلام أبي موسى السرّاج، ثم خادم الإمام. وكان سليمان بن كثير أسرعهم إلى السؤال:

- أبو مسلم؟ أليس هذا غلام أبي موسى السرّاج الذي صحبناه إلى الإمام محمد رحمه الله في مكة ليقوم على خدمته؟

جاء جواب أبي سلمة ليزيدهم عجباً ممتزجاً بالصدمة:

- بلى.. وقد كان عند حُسْن ظنكم به، وأبدى من الفطنة ونشاط الحركة وعمق البصيرة ما جعل إمامنا إبراهيم، رضي الله عنه، يقدّمه، وأبدله باسمه الأول اسم عبد الرحمن بن مسلم، وكنّاه أبا مسلم، وأمر ألا يخاطبه أحد إلّا به. ثم اختاره رسولاً بينه وبين الكوفة وخراسان، وحمّله وصايا لكم، وأمره أن يحمل الأخبار منكم إليه، وأن يطّلع على أحوال خراسان بنفسه، ليُحسِن وصفها للإمام.

في أثناء كلام أبي سلمة، تبادل أبو مسلم نظرة عميقة مع أبي النجم. أهذا الفتى الذي أسرف في توبيخه، وهمَّ أن يأمر بضربه حين شكت ابنته جلنار من تعرّضه لها؟

أما سليمان بن كثير فلبث متسمًّرا في مكانه لا يصدّق سمعه وقد اشتد انقباضه، ولم يستطع أن يكتم مشاعره إذ أشار إلى أبي مسلم بازدراء وقال مستهجناً:

- هذا؟

مرت لحظات صمت متوتّرة، وتلفت البعض إلى سليمان بن كثير وقد استهجنوا طريقته في الاستجابة لأمر قضى به إمامهم. ثم تدخل لاهز بن قريظ لتبديد الحرج، فخاطب أبا مسلم:

- هنيئاً لك يا إبرا..

عدل بسرعة إلى الكنية الجديدة:

- يا أبا مسلم ثقة الإمام.. ومن كان موضع ثقة الإمام فهو كذلك عندنا.

قال عبارته الأخيرة وهو يرسل نظرة خاصة إلى سليمان ابن كثير.

وأخيراً تحدّث أبو مسلم:

- إنما أنا خادم الإمام رضي الله عنه، ثم خادم من اختارهم لرئاسة دعوته.

هز سليمان بن كثير كتفيه وقال:

- على كل حال.. تفضّلوا على الرحب والسعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين خرج أبو سلمة وأبو مسلم من منزل سليمان بن كثير، لبث أبو مسلم صامتاً واجماً بعض الوقت، وأدرك أبو سلمة ما يدور في خلده من أمر سليمان بن كثير وموقفه، فقال مواسياً:

- تلك هي عادة الناس يا أبا مسلم، إذا عرفوا الرجل صغيراً لا شأن له، ثم ظهر عليهم كبيراً... ولذلك قيل: لا كرامة لنبي في قومه.

هز أبو مسلم رأسه هزة خفيفة، وقال بنبرة تنم عن أسفه وضيقه:

- غلام أبي موسى السرّاج!

استوقفه أبو سلمة وقال:

- أوّل الدروس.. دارِ غضبك.. كأنك لم تسمع الإساءة.. واصبر عليها صبر البعير، فهذا معيار القوة والحكمة معاً، وقد أوَتيت منهما الكثير. ولسوف تسمع أشدّ من هذا حين يعظم أمرك أكثر.. ولسوف يكون ذاك. وتقرّب للقوي حتى تصير أقوى منه.. وقد عرفتُ سليمان بن كثير هذا.. إنه كبير القوم هنا، وقد وطّأ للدعوة في خراسان كما لم يفعل غيره، إلّا أن فيه كِبْراً وعجرفة كرههما منه حتى أصحابه، فلا تعِنْه على نفسك ولمّا يستغلظ سوقك، واذكر أنك أعجميّ، فلا يشك القوم في صدق نياتك

ولا يرتابون في مقاصدك. بهذا بلغت أنا ما بلغت، وكذلك رئيس الدعوة كلها بكير بن ماهان. وإني أحب لك ما أحب لنفسي.

انبسط وجه أبي مسلم، ونظر إلى أبي سلمة ممتنًّا:

- لا أدري كيف أشكرك يا سيدي على كل ما بذلته وتبذله من أجلي.

قال أبو سلمة مداعباً:

- إن كنت لا تدري كيف تشكرني، فلن تشكرني أبداً.

ضحك الرجلان، وقال أبو مسلم:

- والعجز عن الشكر يا سيدي هو أعظم الشكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما سليمان بن كثير، فلم يفارقه ضيقه بعد خروج أبي سلمة وأبي مسلم وآخرين من الحضور، وبقي عنده لاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب.

وعاتبه لاهز من جديد، فردّ قائلاً:

- ولكن عمل الرسول عمل كبير.. يطّلع على أسرار الإمام وأسرار دعوته وأهل دعوته. فكيف اختار لهذه المهمة شاباً حَدَثاً من السرّاجين، أعجبنا منه صدق عواطفه، فصحبناه ليخدم الإمام ويحمل له نعليه ويصب له الماء.. والآن يأتينا بهذه الصفة!

قال لاهز:

- هل لك رأي على رأي الإمام؟

- معاذ الله.

- إذن ترضى بما رضي به إمامك.

هزّ سليمان رأسه دون أن يفارقه عبوسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

إذا كان خالد القسري قد أبى أن يدخل في خطة المؤتمرين بالوليد بن يزيد، وآثر النصيحة لله ولرسوله وولي الأمر، فقد صار أعظم نصير لهم بموته قتلاً على يد يوسف بن عمر، والي العراق، بعد أن أسلمه إليه الوليد بن يزيد. فالآن تجتمع قبائل لخم وكلب وأخرى من اليمنيّة وراء يزيد بن خالد القسريّ الذي أقسم لا يغمد وقومه سيفاً حتى يثأر لأبيه، وإلى جانبهم قبائل كبرى من القيسية وراء شيوخ بني القعقاع، حتى صار جميعهم جيشاً عظيماً. فأحاطوا بدمشق، ثم دخلوها من أقطارها دون مقاومة، حتى إذا تم لهم السيطرة عليها، حملوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك إلى دار الخلافة، وأعلنوا خلع الوليد بن يزيد، ومبايعة يزيد بن الوليد بن عبد الملك مكانه.

خطب الخليفة الجديد في رؤساء القوم فكان مما قال:

- أيها الناس. إن لكم عليّ ألّا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكري نهراً ولا أكثر مالاً، ولا أعطيه زوجة ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلدة إلى بلدة، حتى أسدّ ثغرة هذا البلد وخصاصة أهله بما يعينهم، فإن فَضُل فضلٌ نقلته إلى البلد الذي يليه. ولكم عليّ ألا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم. وإن لكم أعطياتكم عندي في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم. فإن وفيت لكم بما قلت، فعليكم السمع والطاعة وحُسْن المؤازرة، وإن أنا لم أفِ لكم، فلكم أن تخلعوني، إلّا أن تستتيبوني، فإن تبت قبلتم مني. فإن علمتُم أحداً ممن يُعرَف بالصلاح ويعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم، فأردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته. أيها الناس، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا وفاء له بنقض عهد. إنما الطاعة طاعة الله، فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع، فإن عصا ودعا إلى المعصية، فهو أهل أن يُعصى ويُخلَع. أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما هي حتى جهّز يزيد بن الوليد جيشاً كبيراً بقيادة ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ومنصور بن جمهور، وجّهه إلى الأغدف للقضاء على الوليد بن يزيد ومن تجمّع حوله من أنصاره. ولم تُجْدِ نصائح عياض بن مسلم بالانسحاب إلى حمص أو تدمر لأنهما أحسن تحصيناً.

وبينما كان جيش دمشق يزحف نحو الأغدف، بدأ قادة جند الوليد بالانفضاض عنه مع جندهم تباعاً. فقد أدركوا أنه لا قِبَل لهم بجيش يزيد بن الوليد. وكان المال قد بدأ ينفد عند الوليد حتى انقطعت أعطيات جنده، وعزّت الأقوات، فلم يثبت مع الوليد إلّا القليل منهم.

وحين اقترب جيش دمشق وظهرت طلائعه، ارتدى الوليد لباس الحرب، على الرغم من أنه كان يدرك في تلك الساعة أنه يخوض معركة خاسرة. وقبل أن يخرج، دعا إليه جاريته وأم ولده ورد، وأمرها أن تجهّز نفسها من فورها للخروج مع ولديها وقد أعدّت لهم الركائب، لتحملهم إلى حمص. قالت بصوت مرتجف وقد أخذ منها الرعب كل مأخذ:

- وأنت؟

- أنا؟ ليس للخليفة إلا الصدر أو القبر.

قالت:

- نُخرِج الولدين، وأمكث معك حتى يقضي الله أمره.

قال بلهجة صارمة:

- ألا تسمعين أيتها الجارية؟ ما زلت الخليفة هنا.. على الأقل هنا.. أنا صاحب الأمر والنهي.

- بل أطيع قلبي فيك.. لا أريد العيش بدونك.. نعيش معاً أو نموت معاً خليفة كنت أم رجلاً من عامة الناس.

- أما رأيت أصحابي وندمائي وأهل خدمتي قد انفضوا عني؟ ولا أراني ألومهم، فلا بقاؤهم يغني عني شيئاً، ولا يحفظ أرواحهم.

- ولكني لست كأحدهم.. إنما أنا..

قاطعها بلهجة يمتزج فيها التهكم بالأسى:

- نعم.. الحب.. والقلب..

فجأة تحوّلت ملامحه لأول مرة إلى تعبير الإعجاب والمحبة والعطف وهو يمعن النظر فيها، ولمس خدها برقة وقال:

- ما أنت يا ورد؟ لو كان في الرجال كثيرون مثلك، لكانت الحياة أكثر جمالاً وبهاءً، وكانت النفوس أكثر حباً وصفاءً.. ولما كانت المؤامرات والدسائس والأحقاد والمطامع، ولكنت أنا خَلْقاً آخر وسيرة أخرى، ولاكتفيت من الحياة بلقمة هنيئة ونزهة بريئة، وبعض الأبيات من شعر الغزل الطاهر الصادق، قالها شاعر في امرأة مثلك يا ورد.

وبينما كانت الدموع الغزيرة تنحدر من عينيها، أخذ ينشد أبياتاً من شعر كثير عزة:

وما كنت أدري قبل عزّة ما البكا

ولا موجعات القلب حتى تولَّتِ

وإني وتهيامي بعزّة بعد ما

تخلُّيت مما بيننا وتخلِّت

لكَالمرتجي ظلّ الغمامة كلّما

تبوّأ منها للمقيل اضمَحلّت

من هنا أخذت تدندن معه بقية الشعر:

كأني وإياها سحابة مُمْحِلٍ

رجاها، فلّما جاوزته استهلّت

فإن سأل الواشون فيمَ هجرتها

فقل: نفس حُرٍّ سُلِّيَتْ فَتَسَلَّت

لماذا تتأخر الأشياء الجميلة حتى الفوات؟ ما أجمل هذا منه وما أقساه. هل كان يجب أن يكون آخر العهد به لتزداد غصتها بذكراه؟

أخذ يدها وقبّلها قبلة المحبة العميقة..

قالت وعيناها تفيضان من الدمع:

- والله لا آبه الآن أن أموت.

قال برقة لم تألفها منه قبل الساعة:

- ولكنني لا أريدك أن تموتي يا ورد.

- وما العيش بعدك يا سيدي.

- من أجل الولدين يا ورد. امضي الآن نشدتك الله. لا تجمعي عليّ الموت الذي لا أخشاه، والحسرة التي لا أقدر عليها.. هذا ليس أمر الخليفة، بل رجاء المحب، ونداء القلب للقلب.. هيا لا تكسري قلبي فتقتليني بورد الحب، قبل أن يقتلني جيش يزيد بسيف البغض.

دفعها برقة بالغة. وبعد تردد مشت نحو الباب وهي تشهق بالبكاء، وقبل أن تغيب وراءه، التفتت إليه وألقت عليه نظرة الوداع الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يصمد جند الوليد، أو من تبقى منهم معه، غير ساعة من النهار. فما هي حتى فرّ من لم يلقَ منهم مصرعه أو سقط جريحاً. ولم يجد الوليد إلّا أن يرتد إلى قصره ويغلق أبواب السور الذي يحيط به. وفي الداخل، خلع لباس الحرب، وجلس على الأرض بكل هدوء، أمام حامل خشبي وضع عليه المصحف الشريف وقال: «يومٌ كيوم عثمان!». فتحه وأخذ يتلو من آيات الله صامتاً. ولم يتوقف وقد تناهى إليه ضجيج الجند وخلع البوابة الرئيسة، ثم جلبة تدفق الجند في الساحات الخارجية ثم في ردهات القصر. ولم يرفع بصره عن المصحف حين دخل عليه منصور بن جمهور، مع نفر من الجند. تقدّم منصور بهدوء تام ورفع المصحف من أمامه ووضعه جانباً. ثم رفع عمامة الوليد، قبل أن يهوي عليه بالسيف.

ولكن يزيد بن الوليد لم يهنأ بالخلافة طويلاً بعد ذلك. فلم يلبث مروان بن محمد، والي أرمينيا وأذربيجان، أن بدأ الزحف إلى الشام يطلب بدم الوليد، حتى نزل حرّان، فضرب معسكره هناك. وكان رجلاً قوياً شديد الصبر في الحروب، متمرِّسا بها، حتى لُقِّب بالحمار لشدة صبره وقدرته على احتمال الخطوب. وعلى الرغم من أنه كان صادقاً في طلبه بدم الوليد الذي يرى أنه كان صاحب البيعة الشرعية، فقد كانت له كذلك مآرب أخرى، وهي تولّي الخلافة، وإن كان أميراً أموياً مروانياً من غير فرع عبد الملك بن مروان. ولم يكن ذلك كلّه طمعاً خالصاً، ولكن كان يرى نذر انفراط عقد الخلافة بعد مقتل الوليد، مع ما يتناهى إليه من أخبار خراسان إلى جانب ثورات الخروج وحملات الروم على الثغور. وكان يعلم أن يزيد بن الوليد أضعف من أن يحفظ الخلافة ويجتمع عليه الناس، وأضعف منه أخوه إبراهيم الذي جعل له ولاية عهده. وعلى ذلك رأى أن مصير الخلافة وبني أميّة كلهم صار منوطاً به.

وقبل أن يتابع زحفه إلى دمشق، وصلت الأنباء بوفاة يزيد بن الوليد، بعد ستة أشهر فقط من توليه الخلافة، وأن أخاه إبراهيم قد خلفه عليها، فلم يبايعه إلّا أهل دمشق، وامتنعت سائر الأمصار، وقد أدركوا أن الغلبة ستكون لمروان بن محمد، الذي هزم جيوش سليمان بن هشام وإبراهيم بن الوليد هزيمة منكرة. وحين أدرك إبراهيم بن الوليد أنه لا قِبَل له بردّ جيش مروان، آثر أن يخرج إليه فيسلّمه دمشق، ويتخلّى له عن الخلافة بعهد الأمان، ولم يمضِ عليه في الخلافة غير سبعين يوماً.

ولكن مروان لم يكن رجل أوهام، فقد كان يدرك أن تولّي الخلافة في تلك الظروف المضطربة هي أسهل مهماته، وأن القادم يحمل معه اختبارات عظمى. فما يفعل الرجل القويّ القادر في زمن الضعف والإدبار والانقسام، وقد ورث تركة ثقيلة وثوباً اتسع خرقه على الراتق مهما تكن مواهبه وعزائمه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كان أكثر الناس سروراً بما آلت إليه أحوال بني أميّة: الإمام إبراهيم وشيعته. وبينما كان يتمشى في الحميمة مع أبي مسلم قال:

- كأنك كنت تقرأ الغيب يا أبا مسلم حين تحدثت في ذلك الزمان عن مآلات خلافة بني أمية بعد هشام. ومن كان يظن في ذلك الحين أن الخلافة ستؤول إلى مروان بن محمد جبراً، وهو بعيد في أرمينية وأذربيجان وليس من بيت الخلافة وإن كان أموياً مروانياً. حتى نحن، لم يخطر لنا هذا. ولكن.. أنت.. ابن خراسان، توقعت ذلك كله قبل وقوعه.

قال أبو مسلم:

- نواميس المُلك يا سيدي.. بل نواميس الحياة.. السيل القوي يلتمس المكان الخفيض. لكن أخذ المُلك ليس كحفظه.. فالآن تبدأ مشكلات مروان.. وحاله حال من يرقع الثوب من الثوب نفسه. فهاهم جل بني أمية الذين خرجوا على الوليد قبله، ينصبون إليه بالعداوة، ومعهم جلّ اليمنيّة الذين انتصروا بهم على الوليد.. أما مروان فعدّته القيسية مع يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري.. والخوارج يتربصون في العراق، فإذا انشغل مروان بخصومه في الشام، اقتنصوا الفرصة فثاروا في العراق.. وكل ذلك يشغلهم عنا في خراسان.. وتلك فرصتنا يا سيدي إذا أحسنّا اغتنامها وضاعفنا عملنا هناك!

تعمّد أن يقول عبارته الأخير بأسلوب يبطن النقد.. توقف الإمام إبراهيم ونظر إلى أبي مسلم متفحِّصا ومستطلعاً، وقال متسائلاً:

- وقد وجدت أن العمل هناك دون الطلب؟

أجاب أبو مسلم بدهاء مبطن:

- معاذ الله يا سيدي.. لا يدّخر دعاتكم هناك جهداً يستطيعونه.

تريث لحظة، ثم استأنف:

- قد علمت يا سيدي أن جلّ أهل خراسان من العجم، وهم أشدّ الناس نقمة على بني أمية وعُمّالهم، وهم يرفعون بيتكم فوق العصبيات، فأنتم معدن الإسلام وشعاره، والإسلام للناس كافة، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي إلّا بالتقوى. وهم في ذلك طائفة واحدة فليس فيهم ما في العرب من قسمة القبائل وتناحرها، إلّا أنهم لا يرون من كبار دعوتكم هناك إلا شيوخاً من قبائل العرب، وإن كان كبير الدعوة في الكوفة الآن هو أبو سلمة الخلّال، وهو أعجمي كسلفه بكير بن ماهان رحمه الله. ولكنهم في خراسان لا يرون أمامهم من رؤساء دعوتكم إلّا عرباً، إن لم يكن كلهم فجلُّهم. وقد يتردد بعضهم، فيقول: نخشى أن يكون حظنا غداً من هؤلاء كحظنا من بني أمية، إذ يثب كلٌ إلى قبيلته، ولا يرى فينا إلا تبعاً ومواليَ وخدماً، كما كنت أنا يا سيدي قبل أن يمنّ الله عليّ بخدمتكم.. غلام أبي موسى السرّاج!

وقع كلامه في نفس الإمام موقعاً عميقاً، ولبث ساهماً يفكر في كلامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعترض على الأمر الذي عزم عليه الإمام، إلّا أخوه أبو جعفر، فقال محتجاً:

- ماذا؟ أبو مسلم لقيادة الدعوة في خراسان مكان سليمان بن كثير؟ كيف استطاع غلام السرّاجين أن يغرّك..

تمالك نفسه عن إتمام العبارة إذ حدجه أخوه أبو العباس بنظرة عتاب ونهي، فعدل إلى غيرها:

- العفو يا أخي.. أنت سيدي وإمامي. ولكني أخوك، وهذا أمر إن أمضيته فقد يفتح علينا باباً من أبواب الشرّ.. كيف يرضى نقباء دعوتنا في خراسان، حتى الأعاجم منهم، أن يؤمَّر عليهم فتى حَدَث السن، كان غلام السرّاجين قبل بضع سنين فقط، وكان يبادرُ في الأمس فيحمِل أمتعتهم ويقبِّل أيديهم، وفيهم شيوخ العرب: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وقحطبة بنُ..

قاطعه الإمام قائلاً:

- لهذا نقدّمه.

ثم دار في المكان مستعرضاً أعمامه وإخوته وقال:

- أنصتوا جميعاً وعُوا قولي. والله ما يقوم لكم مُلك ولا يستقيم لكم حكم إلّا بالعجم في المقام الأول، فهم لا يتطلعون إليها ولا ينازعون عليها، وغاية ما يؤمّلون أن يكونوا عماد الدولة وشوكتها وعُمّالها، فإذا بلغنا غايتنا لم يكن لهم ولاء ولا انتماء إلا إلينا. أما العرب فقد عزّوا بالإسلام وعزّ بهم الإسلام أولاً، ثم ما لبثوا أن عادوا سيرتهم الأولى قبائل وعصباً. فولاء أحدهم ينصرف إلى قبيلته أولاً، وهو مع الدولة ما كانت الدولة مع قبيلته. وكل قبيلة تطلب من الخلافة نصاباً تراه حقها، فإذا أُعطوه رضوا، وإلّا خرجوا عليها.. انظروا حال بني أميّة واعتبروا.. إن السيف الذي غلبوا به في الأمس يرتد اليومَ عليهم. تغلّبوا باليمنية على القيسيّة في مرج راهط أيام مروان بن الحكم. وفي الأمس القريب تألّبت اليمنية مع يزيد بن الوليد بن عبد الملك ضد الوليد، ثم تألبت القيسية مع مروان بن محمد ضد خصومه. وها هو منذ حاز الخلافة لم يهدأ يوماً: ثورة ثابت بن نعيم الجذامي في فلسطين، ثم ثورات القبائل في حمص وتدمر والغوطة، وثورة سليمان بن هشام، وما زال على تلك الحال، لا يخرج من واحدة حتى يدخل في أخرى. إذن أقيموا منذ الآن على خطتي، سواء أعشت حتى أرى ثمارها بنفسي، أم كتب الله لأحدكم أن يكون أول خلفاء بني العباس.

كان كلامه قوياً ومقنعاً، وبدا أبو جعفر حائراً، ثم قال:

- بلى والله كما قلت.. ولكن.. أبو مسلم؟ لو كان غيره من أهل خراسان.

قال الإمام إبراهيم:

- أشِر عليّ بغيره من أهل خراسان، خالَطَنا مخالطَتَه، وسمع منا كما سمع، وعنده علم بأحوال الشام والعراق ورجالهما كما عنده، وأنا أرجع عن رأيي فيه!

هزّ أبو جعفر رأسه وقال:

- لا أدري.. أقرّ لك يا أخي بكل ما تصفه به.. ولكن في نفسي حاجة منه لا أعلم كنهها.. أسأل الله تعالى أن أكون مخطئاً فيه.. والرأي رأيك يا أخي.. نسمع ونطيع.

قبل رحيله إلى خراسان، أوصاه الإمام، فكان مما قال:

- انظر ذلك الحيّ من اليمن، فأكرمهم وحلّ بين أظهرهم، فقد ساءهم تأخيرهم في خراسان، وأن الولاة وأصحاب الأمر فيها من مضر. وانظر ذلك الحيّ من ربيعة فقرِّبهم واحذرهم في الوقت نفسه، فهم مستقلون برأيهم وعصبتهم. وانظر ذلك الحيّ من مضر، فمن وافق دعوتنا فخير، وهؤلاء قليل، أما جُلّهم فهو العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره، ومن كان في أمره شبهة، ومن وقع في نفسك منه شيء، ولا تأخذك بهم رحمة. واجمع إليك العجم واستكثر منهم وعوِّل عليهم واستعن بهم في بعض عملك، واتخذ رسلك إليّ منهم، وتخيّر لذلك من لا يعرف العربية حتى لا يفهم فحوى الرسالة، فإن ذلك أبعد من الشبهة، وأنفى للريبة، وأنجى من الشر، وذكّرهم بمظالم بني أمية فيهم، وأن الناس عندنا سواسية كأسنان المشط كما أمر الله ورسوله. ولا تخالف سليمان بن كثير، وداره ولا تَعْصِه، وإذا شكل عليك أمر فاكتف به مني. وانزل في طريقك الكوفة، وأقم وقتاً عند كبير دعاتنَا أبي سلمة الخلّال حتى تسمع منه وتدبّر معه، فإنه الرئيس الذي ينبغي لك أن ترجع إليه في أمرك.

في دار أبي سلمة الخلال في الكوفة، قال أبو سلمة:

- لقد ألقى إليك الإمام قولاً ثقيلاً يا أبا مسلم حين جعلك رئيس الدعوة في خراسان. وأنت مقبل على رجال من العرب هم شيوخ أقوامهم، قد دخلوا في الدعوة وسعوا إليها سعيها قبل أن تولد. فأحسن تأتيّك إليهم، لا سيّما سليمان بن كثير، فمازال منذ أمد رئيس الدعاة هناك، ولن يسرّه أن تحلّ مكانه وتتقدّم عليه. أما أنا فكلما عَلِمْتَني.. أنت عندي بمثابة الأخ.

قال أبو سلمة:

- بل أنت عندي بمثابة الأب والأخ الأكبر معاً يا أبا سلمة.

قال أبو سلمة مداعباً ومبتسماً:

- تكفي صفة الأخ يا أبا مسلم، لا تذكّرني بسنيّ. على كل حال، ما بيننا الآن أعظم من الدم والعرق.. بيننا إرث الماضي الذي نُعيد الآن صنعه على مثالٍ جديد في الإسلام، وبيننا مستقبل سنصنعه معاً: أنا وأنت.. أنا في الكوفة.. وأنت في خراسان.. فمن خراسان سيكون المبتدى والمنطلق، وفي الكوفة المستقرّ والمستودع.. هنا ستكون عاصمة أئمتنا. ونحن معهم مادة الخلافة وشوكتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

«لقد وطأتُ لك الأندلس، يا أبا المطرّف. إذ استقامت أحوالها أخيراً».

كانت هذه من العبارات الأخيرة التي همس بها الخليفة الراحل هشام بن عبد الملك، في أُذن حفيده عبد الرحمن بن معاوية، والتي استقرّت في وعي الفتى ووجدانه، مع غيرها من العبارات والمواقف التي كانت توجّه إلى مصير عظيم قادم، أوله جحيم في المشرق وآخره قيامة في المغرب!

ولقد بدأت مقدّمات الجحيم في المشرق، ولكن ما ظنّ هشام بن عبد الملك أنه قد استقرّ من أمر الأندلس بعد انتهاء فتنة البلديين وطالعة الشام وتولّي أبي الخطار، حسام بن ضرار الكلبي، ولايتها، كان على وشك الانفجار من جديد.

قيسية ويمنية ومضريّة وربعيّة في المشرق، ومثلها في الأندلس على بُعد آلاف الأميال. ولكن الأحداث هنا وهناك كانت على الرغم من بُعد المسافة تتحالف وتتقاطع لتؤسس لملحمة عظيمة من ملاحم التاريخ، وسيرة لواحد من أبطاله الخالدين، وإن كان ما يزال الآن في مطلع الخامسة عشرة من عمره، يقضي وقته في بيت الرصافة بعيداً عن دمشق، في القراءة والاعتناء بأمّه المعتلّة، أو بين إخوته يلعب الشطرنج ويفوز في معظم الأوقات على من هم أكبر منه، أو يخرج للصيد مفضّلاً أن يخرج لذلك وحده، إلّا من خادم أخته أم الأصبغ أبي شجاع الذي كان يتقدّمه في السن أكثر من عشرين سنة، وكان قد ارتحل إلى المغرب والأندلس وقتاً، فكان يؤنسه بأخبار تلك البلاد القاصية وأحوالها وطبيعتها وحواضرها وقراها، فلا يملّ من السماع. فكان يستعيده الكلام عن تلك الأصقاع حتى بعد أن استفرغ أبو شجاع كل ما في جعبته. والغريب أنه كلما توالت على الشام أحداث جسام، كان يرجع على أبي شجاع بالسؤال عن الأندلس، وعلى أمّه العليلة بالسؤال عن أخواله بربر نفزة في المغرب!

لا، لم يكن له حتى ذلك الحين يد فيما كان يتسارع في بلده من الخطوب العظيمة في السنين الأخيرة، إلّا ما شهد منها وسمع عنها. ومع ذلك كان يتنامى فيه شعور غامض بأن عواقبها سوف تنتهي إليه على نحو خاص يختلف عن سائر قومه.

شهد عند جدّه محمدا بن عليّ وولديه أبا جعفر وأبا العباس. وشهد اجتماع جدّه بقادة طالعة الشام لمقاتلة خوارج المغرب قبل خروجهم الذي انتهى بهم إلى الأندلس. ثم شهد وفاة جدّه الخليفة هشام، وما أعقبه من إذلال أعمامه، لا سيّما سليمان بن هشام. ثم سمع بمقتل الوليد الذي كان لعمه سليمان سهم كبير فيه. وعلى الرغم من أنه امتلأ حقداً وغيظاً حين شهد إذلال عمّه بعينيه، فإن نبأ خلع الوليد ومقتله لم يترك في نفسه أي شعور بالتشفّي كما رأى من إخوته وأعمامه. ثم أعقب ذلك من الأحداث السريعة ما انتهى إلى سيطرة مروان بن محمد على الخلافة، ثم ما انخرط فيه مروان من حروب متّصلة مع خصومه ومخالفيه، ومنهم عمّه سليمان، وأخيراً خوارج العراق الذين استغلوا كعادتهم فرصة النزاعات القائمة داخل البيت الأمويّ وبين القبائل المتوزعة في ولائها بين هذا وذاك.

لم يكن غافلاً عن شيء مما يجري. ولكن الغريب، أنه مع ذلك كله كان يتجنّب تماماً مشاركة إخوته في النقاش والتعليق على تطور الأحداث، على خطورتها وعواقبها، وكأنها في ظاهر الأمر لا تعنيه. فلا يُظهِر خوفاً ولا قلقاً كالذي يبدونه علىٍ مصيرِ الخلافة وبني أميّة. وكان أخوه أبان الذي غدا فارساً

مغواراً يشار إليه بالبنان، أكثرهم انفعالاً وغضباً وقلقاً. وقد ساءه ما ساء سائر أبناء هشام وحفدته من تسلّط مروان بن محمد على الخلافة دون بيت الخلافة من نسل عبد الملك.

وبينما كان يلعب الشطرنج مع أخيه أبان، وحولهما عدد من إخوتهما يتحدثون في أحداث الشام وعواقبها المحتملة، وعبد الرحمن مقيم على صمته وهو يركِّز النظر على رقعة الشطرنج، قال أخوه يحيى:

- ما بال أبي المطرّف لا يقول شيئاً فيما نحن فيه؟

ثم تلفت في سائر الإخوة وتابع:

- هل لحظتم هذا؟ الآن فقط بدا لي هذا الأمر.. الحق أننا لم نسمع عبد الرحمن يعلّق برأي منذ اضطربت أحوال البلاد وأحوال قومنا بعد وفاة جدنا هشام رحمه الله.

ثم توجه إلى عبد الرحمن بنبرة مشوبة بالتهكم.

- ألا تدلي بدلوك أيها الفتى حين صرنا أحوج ما نكون إلى الرأي؟ ألم يختصّك جدنا هشام رحمه الله بصحبته ونصائحه لما رأى من نجابتك دوننا جميعاً ونحن أكبر منك سناً؟

لم يزد عبد الرحمن عن القول وهو يتابع نقل حجارة الشطرنج:

- مشيئة الله نافذة على كل حال. وما نفع الكلام فيما لا يد لنا فيه، وإلّا، فما بالكم تجلسون هنا بعيداً عن معترك الأحداث، تتسمّعون أخبارها؟ أفلا خرج بعضكم لينضم إلى عمّنا سليمان في مقارعة مروان، إن كنتم فاعلين، بدلاً من كل هذا الكلام الذي لا يجدي فتيلاً مع مشيئة الله، والله بالغ أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

رفع أبان رأسه عن رقعة الشطرنج، وتنبّهت ملامحه كأنه استذكر شيئاً، وابتسم ابتسامة غامضة وقال:

- لا والله ما قدّمه جدنا هشام علينا، وألزمه صحبته، لما رأى من سمات نجابته.. ولكنها.. نبوءة مسلمة. وهذا سبب صمت أخيكم.. فلا يبدأ عهد الأموي الذي يحيي دولة بني أمية في المغرب إلّا بعد زوالها في المشرق.. فلماذا يقاوم حظه وإن كان شرطه خرابا سابقا.

ثم نظر في عبد الرحمن الذي تجاهل نظراته وبقي يركّز النظر على رقعة الشطرنج، واستأنف أبان:

- أين نحن من الأندلس أيها الأمير الصغير؟ نظّف عقلك من تلك الخرافات والأوهام، وانشغِل بحاضرك الذي يوشك أن تصل إليه النار.

حرّك عبد الرحمن حجراً، وقال:

- صدقت.. قد انشغلت بحاضري وشغلتك عنه.. انظر الآن.. هل ترى لك من مفرّ؟

وأشار إلى رقعة الشطرنج.. نظر أبان فيها، وبعد التمعّن والحساب والتقدير، أدرك هزيمته مستسلماً.. أطاح عبد الرحمن بحجر الملك من جانب أبان.. ثم تحوّل عنه إلى طبق الفاكهة، وتناول حبة تفاح وقضمها، وقال وهو في طريق الخروج:

- هذا فوز لا حظ فيه ولا نبوءة!

كان الخادم سالم، أبو شجاع في انتظاره في الخارج، فلما مضيا معاً، سأل أبو شجاع:

- إلى أين المسير يا سيدي؟

يمّم عبد الرحمن بنظره صوب المغرب متأمِّلاً، وقال بعد هنيهة:

- لا أدري.. ولكن حدثني عن الأندلس يا أبا شجاع.

تأمله أبو شجاع متعجباً وقال:

- الأندلس.. من جديد يا سيدي؟ لا أحسب أنه بقي عندي ما أقوله.

قال عبد الرحمن:

- ولكن، بقي عندي أنا ما أسمعه، ولو كان قديماً يا أبا شجاع. فالقديم أصْلُ الجديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

القديم أصل الجديد وإن كان ما يزال بعيداً بُعد المغرب عن المشرق. ولو أتيح لعبد الرحمن، وهو يرسل بصره نحو الغرب في تلك الساعة، أن يرى ما يجري الآن في قرطبة، لرأى الرجل الذي رآه منذ سنين في مجلس عمّه، والذي سوف يراه في قابل الأيّام، يتجوّل في أسواق قرطبة مع عدد من أصحابه وخدمه، وفي يده مسواكه على مجرى عادته، يسوك به بين الفينة والأخرى دون تدبّر، وعلى نحو عفويّ. ثم توقف عند أحد باعة الفواكه، فملأ منها سلالاً ضخمة حملها خدمه. وكان إذا اشترى أكثر كما يعلم الباعة المحظوظون بزيارته، فيعطي منها الفقير، ويقري الضِّيفان الذين يجتمعون على مائدته في كل يوم، ولا يرد عن بابه أحداً حتى لو كان يجهله. فذلك هو أبو جوشن، الصميل بن حاتم الذي جمع في ذاته أجمل ما في طبائع الأعراب وأغلظها. وحين دفع بالنقود إلى البائع دون أن يعدّها أو يسأل عن الثمن، قال البائع:

- لا نقتضي من أبي جوشن، فإن فضله يطوّق أعناقنا. دونك كل ما عندي.

قال الصميل بنبرة التأنيب:

- وتريد أن تزيد عليّ بالفضل أيها الرجل؟ هذا ليس لك.

ثم زاده من المال، وانصرف عنه. فوقعت عينه على امرأة تجلس على ناصية الطريق تتسوّل الناس، وحولها صغارها. فتوجه إليها من فوره ورمى في حجرها صرّة من المال. لم تصدّق نفسها وهي تنظر إلى الصرّة الكبيرة وتنظر داخلها، ثم رفعت يديها بالدعاء:

- أوسع الله عليك يا سيدي وقضى حوائجك.

مدّ يده وربّت على صغارها بود وعطف بالغين، وسأل:

- ما الذي أحوجك أيتها المرأة؟

أجابت:

- مات بعلي، وأنا معتلّة لا أُحسِن الخدمة.

قال:

- أليس لك قوم يحملون عنك؟

- كلهم منصرف إلى معاشه وحاجة أهله وولده.

قال متأسفاً:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله. فَسَدَ الزمان وضاعت المروءة.

ثم مالَ على أحد أعوانه وقال:

- أجروا عليها من مالي نفقة راتبة تغنيها عن السؤال، لا نريد أن نرى في الأندلس متسوًّلا.

ثم خاطب المرأة قبل أن ينصرف عنها:

- اعتنِ بصغارك أيتها المرأة.

لاحقته بالدعاء وهو يبتعد:

- أعظم الله جزاءك يا سيدي.. والله إنك لخير من الوالي.

الوالي! كأن الله قد أنطقها بالأمر الذي يُقبِل عليه الآن دون توقّع. فقد اعترضه رجل كان يراقبه قبل ذلك عن بُعد، حتى سنحت له الفرصة، فابتدره بالقول:

- سيدي أبا جوشن. لي حاجة عندك لا أريم حتى تقضيها.. فأنا مستجير بك.

قال الصميل:

- قد استجرت بمن يمنع جاره. ولكن ألا تتسمّى أولاً ثم تسمّي حاجتك؟

- أنا منصور الكناني.. أما حاجتي فطلب الإنصاف.

- ويحك، ممّن؟

- من أبي الخطار الكلبي.

- الحاكم؟

- بل قل رئيس اليمنيّة. فهذه هي حقيقته.. إذ لا ينبغي لحاكم الأندلس أن يميل إلى أحد على أحد من رعيّته بغير الحق..

سأل الصميل:

- ألا تبيّن؟

- أنا يا سيدي رجل من كنانة.. نجتمع وإياك في مضر..

قاطعه الصميل قائلاً:

- أما أنساب العرب فنعرفها كما يعرف أحدنا ولده، فاعمد إلى حاجتك ولا تطل.

قال الرجل:

- تشاركت في تجارة مع رجل من كلب، قوم أبي الخطّار، فظلمني حقي. فشكوته إلى أبي الخطّار، وتخاصمنا عنده، وجئته بالبيّنة المكتوبة والشهود، حتى لم يبقَ لخصمي حجّة يحتج بها. ولكن أبا

الخطار أخذه العصب، فمال إلى الكلبي، فلما راجعته ضربني وأذلني وطردني من مجلسه. ولما راجعت قومي قالوا: دونك أبا جوشن، فهو الرئيس وصاحب الحميّة. وإني أنشدك الله والرحم يا سيدي أن تنصفني منه، أو أخرج في الناس فأصيح: يا لضيعة قيس ومضر في أرض الأندلس.. قد صاروا في أرض هوان ومضيعة.

قال الصميل:

- حسبك أيها الرجل، قد أسمعتَ سامعاً، ولكن ائتني أولاً ببيِّنتك وشهودك إلى بيتي..

وحين انصرف الرجل، نظر الصميل في أصحابه وقال:

- أبو الخطار.. أحسنّا به الظن أوّل أمره.. ثم غلبه العصب.. وما زالت تظهر منه أمور بغيضة، ونحن نداري.. فقد آن الأوان لنردّه إلى رشده!

لم يكن الصميل بالذي يمهّد لحاجته بمقدمة أو ديباجة، ولا بالذي يلمّح قبل أن يصرّح، ولا بالذي يراعي ما استقر عليه العُرف من خطاب السلاطين وأهل الحكم. فكانت طريقته في خطاب الحكّام كطريقته في خطاب أي رجل في السوق، وقد ينسب ذلك إلى فظاظته الأعرابيّة، ولكن السبب الأهم أنه كان مستغنياً بعصبيّته وقوة نفسه عن خوف السلاطين أو الرجاء منهم.

ولما دخل على أبي الخطّار، لحظ هذا تجهّمه، وأدرك أنه جاء على دَخَن في نفسه، فابتدره بالقول:

- قد أهمّك أمر يا أبا جوشن.

أجاب بلا تلكؤ وبنبرة جافية:

- قد أهمني تغيّر الرجال يا أبا الخطّار.. وإني والله لا أخالف على أحد حتى أراجعه وأظهر له، حتى تكون عداوتي كصداقتي عن بيّنة.

قال أبو الخطار وقد ضاق بلهجة الرجل:

- إياي تعني يا أبا جوشن؟

- إياك أعني، نعم. قد رضيناك والياً علينا، لما أظهرت من الإنصاف أول أمرك والتنزه عن الميل لقومك، حتى قالت اليمنية: هو منا، وقالت الشامية: هو منا، فقد طرأ على الجزيرة قادماً من حيث قدمنا.. فاصطلح الفريقان عليك.. ثم ها نحن نرى ونسمع من ميلك لقومك على قومنا القيسيّة وسائر إخوتنا المضريّة.. وآخرها ذلك الفتى الكناني الذي انتصرت لصاحبك اليمني عليه، بعد أن ظهر حقّه وقامت بيّنته، وشهد له الشهود العدول. فارجع إلى الحق يا أبا الخطّار، فإن الظلم ظلمات.. واعدل قبل أن نحملك على أن تعتدل.

كان الغضب قد أخذ بأبي الخطّار كل مأخذ، فدعّه في صدره صائحاً:

- هه! من تحسب نفسك؟ جئت هذه الجزيرة عارياً جائعاً حتى كسيت وشبعت، وصار عندك ضِياع ومال تنفقه ادعاءً ومراءً ليقول الناس فيك، حتى ظننت أنك صرت سيداً وندًّا لأمير الأندلس. وما أنت إلّا أعرابي غليظ القلب استوطن قلبه النفاق، ولم تهذّبه الحضارة، ولم يرققه الإسلام. صدق القائل: سمّن كلبك يأكُلْك.. ولكني كفيل بتأديبك..

قال هذا كله وهو ما يزال يدعّه في صدره دون توقف، ثم صاح بحرسه:

- أخرجوا هذا ذليلاً مهاناً.

اجتمع الحرس عليه يدفعونه ويصفعونه حتى مالت عمامته.

وإذ صار عند الباب الخارجي، رآه أحد حجاب القصر، فقال:

- قد مالت عمامتك يا أبا جوشن.

قال وهو يتابع مشيه السريع، ودون أن يعدّل عمامته:

- إن كان لي قوم فسوف يقوّمونها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أول ما فعل الصميل بعد تلك الواقعة، أن ارتحل إلى مدينة «أستجة» للقاء أبي العطاء المرّي شيخ قبائل غطفان القيسيّة، وكان الرئيس المطاع فيهم. فقصّ عليه الصميل ما لحق به من أبي الخطار، ثم قال:

- وقد قلت لمن سأل عن عمامتي: إن كان لي قوم فلسوف يقوّمونها. وقد عزمت على الثأر لشرفي وشرف قومي، فإنا والله لسنا لحماً طرياً ولا طعمة سهلة. ولئن جرؤ عليّ، وأنا من تعلم قيس وتعلم العرب، فقد جرؤ على القيسية كلها، فلا يأمن أحدهم بعد ذلك بطشه وضَيْمه.. فهل لي قوم يا أبا العطار يقوّمون عمامتي!

أطرق أبو العطاء عابساً بضع لحظات، ثم خرج من ديوانه دون أن يقول شيئاً، وخلّف الصميل وسائر الحضور في حيرة من أمرهم، حتى عاد إليهم وقد ارتدى لباس الحرب وأخذ عدّته، وخاطب الصميل:

- قم يا أبا جوشن، جُعلت فداك. والله لا نخذلك ولا نسلمك، ولنعيدنّها جذعاً بين العرب، ولا نقيم الليلة في «أستجة»، ولا نرجع إلى نسائنا وأولادنا حتى نطأ أبا الخطار وقومه بخيولنا.

نهض الصميل وعانق أبا العطاء وقال:

- كفيت ووفيت يا أبا العطاء.. وقد كان هذا ظني بك. ولكنّ لي رأياً يعيننا على حاجتنا.. فاليمنية وإن كانوا عصبة كبيرة، فهم منذ وقت ليسوا على قلب رجل واحد. فهم الآن طائفتان: أما الأولى فكلب، قوم أبي الخطار، وأما الثانية فلخم وجذام. وقد وغرت صدور هؤلاء على أبي الخطار لتقديمه رهطه من «كلب» عليهم. فإذا انفردت قيس الآن بحربه، نسوا خلافهم واجتمعوا عليه، ولكن، إذا قدّمنا زعيم

جذام، ثوابة بن سلامة وأغريناه بإمارة الأندلس مكان أبي الخطار، ضمنّا أن ينفضّ عنه خلق عظيم من اليمنية.

قال أبو العطاء مستغرباً:

- نستبدل يمنياً بيمني؟

أجاب الصميل:

- إذا نَصبنا ثوابة بن سلامة الجذامي بسيوفنا، كان له من الإمارة الاسم، وكان لنا الأمر على الحقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أثبت الصميل من جديد أنه داهية الدواهي. فحين اصطف الجيشان تقدّم الصميل حتى صار بين الفريقين وصاح في جيش أبي الخطّار:

- يا معشر اليمانيّة، ما بالكم تتعرّضون للحرب مع أبي الخطار، وقد جعلنا الأمير منكم.

وأشار إلى ثوابة الذي تقدم بجواده ليراه القوم. وتابع الصميل:

- ولو أن الأمير منّا لقد كنتم تُعْذَرون في قتالكم لنا، وما أقول هذا إلّا تحرَّجا من الدماء، ورغبة في العافية للعامّة.

لم يصدّق أبو الخطار بصره حين بدأت أفواج من جيشه بالانسحاب، تليها أفواج أخرى شجعّها خروج السابقين.. وعمّت الفوضى وارتفع الضجيج والجلبة، بينما كان أبو الخطار يدور بجواده ويصيح بقومه: أن اثبتوا، إنما أراد أن يخذلكم عني فلا تجيبوه، ولكنهم لم يتوقفوا عن الانسحاب. وبينما كان الصميل يراقب ما يجري، التفت إلى ثوابة مبتسماً وقال بنبرة اليقين:

- أبشر. فقد تمّ لك الأمر يا ثوابة.

لم يصمد أبو الخطار مع الفئة القليلة التي بقيت معه إلّا قليلاً، ولم يترك له الصميل مجالاً للفرار، فأُخذ أسيراً وأوثق بالحبال. وتقدّم إليه الصميل على جواده ينظر إليه متشفياً.. وتعمّد أن يثبت عمامته جيداً على رأسه في إشارة واضحة المعنى. وفي المقابل انحنى من على جواده ونزع عمامة أبي الخطار وقال:

- أما هذه، فلن تحتاج إليها في حبسك الطويل في سجن قرطبة!

ثم انفتل بجواده مبتعداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الكتاب الثاني

إعصار النار

أخيراً وصل أبو مسلم إلى مرو الشاهجان في خراسان، بعد أن مكث بضعة شهور في الكوفة مع رئيس الدعاة أبي سلمة الخلّال كما أمر الإمام، وكان ذلك مطلع العام الهجري 129. ولأمر ما في نفسه بدأ بزيارة أبي النجم الذي استقبله بالاحترام الذي يليق برسول الإمام، وزاد من ذلك أنه رأى فيه مخايل جديدة تشي بما ارتقى إليه، بدت في ثيابه ومرافقيه وخدمه ومركبه وأسلوب كلامه الذي تجرّد تماماً من المداراة والتجمّل والخضوع في خطاب من كان لا يرجو مخالطته. وأعلمه أنه يحمل رسالة من الإمام لا تُقْرأ إلّا بحضور نقباء الدعوة الكبار في خراسان.

وإذ اكتمل جمعهم في بيت أبي النجم، اختص أبو مسلم سليمان بن كثير بإظهار الإجلال حين سلّم عليه مع انحناءة قصيرة. ثم أعلن أبو النجم أن أبا مسلم قد جاء بكتاب من الإمام أبى أن يُفَضَّ حتى يصل الجميع، ثم توجه بنظره إلى أبي مسلم وقال:

- دونك يا أبا مسلم، قد حضر كبيرنا سليمان.

نظر الجميع مترقبين، وقد شعروا أن ثمة أمراً جللاً في ذلك الكتاب، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا مستعدّين لما كانوا على وشك سماعه.

دفع أبو مسلم الكتاب إلى سليمان بن كثير الذي أخذ يقلِّب نظره بين الكتاب الملفوف وأبي مسلم وقد خامره شيء من القلق والارتياب. ثم دفع سليمان الكتاب إلى أبي منصور، طلحة بن رزيق وقال:

- يا أبا منصور.. افضض الخاتم، واقرأ علينا كتاب إمامنا، فإن في نظري ضعفاً.

فضّ أبو منصور خاتم الرسالة.. وإذ نظر فيها تغيّر وجهه على نحو واضح مشهود، بينما وقف أبو مسلم مترقِّباً حَذِراً.

أطال أبو منصور النظر، كأنه قد وجد حرجاً من قراءة ما فيه، وكل ذلك زاد الحضور قلقاً وترقُّبا، ثم رفع أبو منصور نظره عن الكتاب، وذهب ببصره إلى سليمان بن كثير متمعِّناً. عندئذٍ قال ابن كثير:

- أحسبه قد جاء بها دويهيّة صمّاء! ما يبطئك عن القراءة يا أبا منصور؟

بعد تردّد بدأ أبو منصور بالقراءة:

«الحمد لله الذي هيّأ لنا من أشياعنا من اعتمر قلبه بالإيمان، واغتنى قلبه بالقرآن، والصلاة والسلام على محمد النبيّ الأمين، وعلى آله وصحبه. أما بعد، فقد وجّهنا إليكم أبا مسلم، عبد الرحمن بن مسلم، ليكون القائم بأمر الدعوة في خراسان، ورئيساً لأصحابنا فيها..».

توقف أبو منصور، وأرسل نظرة أخرى إلى سليمان بن كثير الذي اشتدّ انقباض ملامحه من الصدمة، وضاقت عيناه. ثم أكمل أبو منصور القراءة:

«وأمرناه أن يقدِّم سليمان بن كثير فيما يسعى له ويدبّر، ولا يقطع في أمر إلا برأيه ومشورته. فاسمعوا وأطيعوا. والحمد لله أولاً وآخراً».

رانَ الصمت على المكان بين من أطرق ومن سلّط نظره على سليمان بن كثير، ومن أخذ يقلِّب نظره بين سليمان وأبي مسلم. فجأة صاح سليمان وهو يشير بإصبعه إلى أبي مسلم وقال بلهجة امتزج فيها الغضب بالازدراء:

- أنت! أنت الرئيس علينا؟

تمالك أبو مسلم نفسه، وتكلّف القول بهدوء:

- لا والله ما أنا بخيركم، وإنما هو تكليف لا تشريف.. ومرجعي إليكم يا سيدي.

صاح سليمان بغضب متصاعد:

- دعك من هذا أيها الغرّ الخبيث. هل تظن أنك تغرّني بذاك الكلام المعسول؟ رئيسنا وأصغرنا في آن!! الله أكبر.. إبراهيم بن ختكان، غلام أبي موسى السرّاج، يصير اسمه عبد الرحمن بن مسلم، ويكنيه الإمام بأبي مسلم، ثم يرفعه علينا ليصير الآمر الناهي فينا؟ ونحن.. نحن الذين صُلينا بمكروه هذا الأمر، واستشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر، حتى قُطِّعت فيه الأيدي والأرجل، وبُرِيَت فيه الألسن حزًّا بالشفار، وسُمِلت الأعين، وكان الضرب والحبس في السجون من أيسر ما نزل بنا، فلما تنسّمنا روح الحياة، وانفسحت أبصارنا، وأينعت ثمار غراسنا، طرأ علينا هذا المجهول الذي لا يُدرى أي بيضة تفلّقت عن رأسه، ولا من أي عُشٍّ درج. والله لقد عرفتُ الدعوة من قبل أن يُخلق هذا في بطن أمّه.

ثم توجه إلى أبي منصور قائلاً بنبرة التحدّي:

- اكتب يا أبا منصور بما تسمع إلى الإمام.

انقسمت مشاعر الحضور بين مؤيّد لابن كثير ومنكر عليه أن يعصي أمر الإمام، كما أنْبأت الوجوه والدندنات الغامضة. وكان جُلّهم ممن أنكر على سليمان، ومن هؤلاء المنكرين أبو النجم وقحطبة ولاهز وأبو داود خالد بن إبراهيم، وأبو منصور الذي قال ردًّا على طلب سليمان:

- غفرانك ربنا وإليك المصير. إنا والله أول من سلّم لأمر الإمام وسمع وأطاع.

أعقبه أبو داود، خالد بن إبراهيم، فقال مخاطباً سليمان بن كثير:

- يا أبا محمد، إن كنت مؤتمًّا بطاعة إمامك، فقلّد شعائر الدين، وأطِع فيما وافق هواك أو خالفه.

ثم تحرّك بين الحضور وتابع:

- أتَشُكّون أن أئمتنا معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- ؟

ارتفعت أصوات المؤيّدين:

- اللهم، لا.

استأنف أبو داود:

- فأراكم قد شككتم في أمرهم، ورددتم عليهم علمهم، ولو لم يعلموا أن هذا الرجل هو الذي ينبغي له أن يقوم بأمرهم لما بعثوه لكم، وهو لا يُتَّهم في موالاتهم ونصرتهم والقيام بحقّهم. أما أنه كان غلاماً للسرّاجين، فماذا كان بلال قبل أن يعزّ بالإسلام ويصير سيِّدا، وما كان عمار بن ياسر، وما كان سلمان الفارسي، وما كان صهيب الرومي؟ وكلهم خير منا.

أعقب كلامه صمت طويل، وبدا انقسام القوم واضحاً بين الموقفين ثم تحرك أبو مسلم ليستردّ كتاب الإمام، فعاجله سليمان بن كثير صائحاً:

- يدَك عن كتاب الإمام أيها الصبيّ.

وكان قد تناول دواة حبر قذفه بها، فشج رأسه وأسال دمه. أخذ أبو مسلم يمسح الدم بكُم ثوبه وهو يقول:

- أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم البيّنات من إمامكم؟

ثم خرج بخطى سريعة وهو يضغط على مكان الجرح ليوقف النزف. ولحقه المؤيّدون: لاهز، وقحطبة، ومالك بن الهيثم، وأبو منصور، وأبو داود، وأبو النجم، وآخران من الحضور. واستوقفه أبو النجم، وحلف عليه أن يرجع معه إلى جناح الضيوف في منزله الكبير.وفي الداخل، أخذ اثنان منهم يغسلان الدم عن وجهه، وهو يتلو من كلام الله تعالى:

- (لكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون).

كان لاهز بن قريظ من أشدّ القوم إنكاراً لما فعل سليمان بن كثير. فقال:

- الكِبْر والعُجْب.. هذا هو أبو محمد سليمان بن كثير.. وهل أتى كفر إبليس لعنه الله إلّا من الكِبْر؟ (خلقتني من نار وخلقته من طين)، (أبى واستكبر وكان من الكافرين)، يقرّ لله بربوبيته ويشهد أنه الخالق، ثم يعصيه كِبْراً.

أردف قحطبة:

- لا عليك يا أبا مسلم.. بل نطيع فيك أمر إمامنا. أما سليمان هذا، فإما أن يعتدل ويطيع، وإمّا أن نعزله عنا ونحط من قدره.

تدخّل مالك بن الهيثم فقال:

- بل نراجعه ونترفق به، لقد كان كبيرنا حتى الساعة، وقد أذهلته الصدمة عن نفسه. والأرجح عندي أنه إذا هدأ وروّى في الأمر وعاودناه بالقول الحسن، رجع إلى الرشد، وأطاع الإمام. فإنه والله سابق في الدعوة، وإن كان فيه من العُجب بنفسه ما تصفون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمل القوم بنصيحة مالك، فخرجوا إلى قرية سفيذنج القريبة من مرو الشاهجان حيث يقيم سليمان بن كثير، فراجعوه في الأمر وكان قد سكن عنه الغضب، وتخلّفت المرارة. فقال أبو داود:

- ما عهدناك هكذا يا أبا محمد. لا أتهمك فأقول: قد فعلت كذا، ولكن الشيطان ربما نزغ النزغة فيما يكون وفيما لا يكون. فلا تنقض عملك السابق كالتي نقضت غزلها أنكاثاً، ولا تخالف عن أمر الإمام، فإنه مُلْهَم، واسمع وأطع. وقد اجتمعت كلمة أصحابك على ترئيس أبي مسلم طاعة لأمر الإمام. وإني أنشدك الله أن تلحق بنا ولا تنفرد عنا، فإن الذئب لا تأكل إلّا من الشاة القاصية.

بعد إطراقة طويلة، رفع سليمان رأسه وهزّه هزة خفيفة علامة الموافقة، فانفرجت أسارير القوم. ولكن سليمان أبى مع ذلك إلّا أن يعبر عن مشاعره، فقال:

- أسمع وأطيع على كره مني.

قال لاهز مستشهداً بكلام الله:

- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

كان رد سليمان سريعاً، من كتاب الله أيضاً:

- وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو كره لكم.

في وقتٍ ما من قابل الأيام، سوف يستدعي كل من الرجلين: لاهز وسليمان هذا الحوار بينهما، وتلك الآيتين من كتاب الله اللتين استشهد كل منهما بإحداهما، حين يجمعهما مصير أوشكا في تلك الساعة أن يفترقا عليه! وإذ بدا أن النفوس قد سكنت، قام أبو داود إلى الباب ونادى:

- ادخل يا أبا مسلم.

إذ برز أبو مسلم، أرسل نظرة إلى سليمان الذي ابتدره بالقول:

- نسمع ونطيع أمر الإمام، وما رجعت إلّا لأني أخاف اختلاف أصحابي، ونحن نداري ما نداري. وأنا يدك وصاحبك الذي لا يخذلك ولا يغشّك، ما لم تخالفنا وتعمل ما يوهن أمرنا.

تقدّم إليه أبو مسلم وصافحه قائلاً:

- أحسن الظنّ بي، فلأنا أطوع لك من يمينك.

قال سليمان:

- الرأي أن تقيم هنا في قرية سفيذنج حيث أقيم، فتكون في جوار مرو، إلا أنها أبعد عن عيون الوالي نصر بن سيّار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن رتّب أبو مسلم لإقامته في سفيذنج، واكترى منزلاً لائقاً. عاد بعد أيام لزيارة أبي النجم في مرو الشاهان. وخرج أبو النجم ليستقبله أمام البيت كما يليق برئيس الدعوة، الذي كان منذ عهد قريب غلام السرّاجين، وهمّ أن يبطش به بعد أن أذلّه بالقول، لتعرضه لابنته جلنار. وكانت في غيبة أبي مسلم تلك السنوات، قد تزوّجت رجلاً من كبار الأعيان، فلم تلبث عنده إلا ثلاثة أعوام، ثم مات عنها.

قال أبو مسلم وهو يصافح أبا النجم:

- ما كان عليك أن تتكلّف الخروج لنا يا أبا النجم.

قال أبو النجم متواضعاً:

- بل هو الواجب لرئيسنا.

قالها صادقاً، وإن وجدها غريبة في نفسه.

في الداخل، قال أبو النجم:

- عساك لا تحمل في نفسك ضغينة من سليمان بن كثير، وقد ثابَ إلى الحق وصدع بأمر الإمام.

- ما هذا وقت الضغائن يا أبا النجم. إنما جئنا في غاية نطلبها، ولسوف ندركها بإذن الله، ثم لكل نبأ مستقرّ، ولكل أجل كتاب.

قال أبو النجم:

- من بلغ ما بلغت في هذه الآونة القصيرة، أهل لإدراك الغاية العظيمة.

تناول أبو مسلم كأس الشراب الذي قدّمه له الخادم. وبدا أبو النجم ساهماً ممعناً بالتفكير، قبل أن يقول بنبرة الاعتراف والاعتذار:

- يا أبا مسلم.. هذا أوان الصدق.. قد أخطأت تقديري لك في ذلك الزمان، حين..

قاطعه أبو مسلم:

- لا تقل شيئاً يا أبا النجم.. الأمور بخواتيمها.

- ونِعْم الخواتيم ما نرى.. لقد غدوت اليوم كبيرنا ورئيسنا.

- بل نستقبل من أيامنا أكثر وأحسن مما نستدبر. فما بقي أمامنا أجَلّ وأعظم.

تريث لحظة ثم استأنف بأسلوب مختلف:

- والحق يا أبا النجم أني قدمت برسالة أخرى من الإمام.. لك أنت خاصة.. ولكني آثرت أن أقدّم العام على الخاصّ..

ارتفع حاجبا أبي النجم وهو يترقب مستطلعاً.. وقف أبو مسلم واستخرج الرسالة ودفعها إلى أبي النجم، فقرأ فيها:

«أما بعد. فبالولاية التي لي عليكم وأهل بيتكم، فإني أخطب ابنتكم لصاحبنا وكبير دعوتنا في خراسان، أبي مسلم، عبد الرحمن بن مسلم، وقد سقت معه صداقها».

رفع أبو النجم رأسه عن الرقعة مبتسماً، وقال بحماس:

- السمعَ والطاعة.. السمعَ والطاعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في جناحها الخاص، استدارت جلنار عن أبيها كي تخفي فرحتها، وقالت:

- تستأمرني يا أبتِ؟ أليس الإمام الذي تصفون ولي أمرنا جميعاً؟

- اللهم نعم.

- إذن، فقد أراد وفعل. لا نعصي إمامنا.

هز رأسه مبتسماً وراضياً.. ثم أطلق نَفَساً عميقاً وقال بلهجة المتأمّل:

- ما أعجب تصاريف الأيام.. هذا الذي كدنا أن نضربه بالسوط لأنه تعرّض لك.. هه.. قلنا: غلام السرّاجين، يجمعنا دم العجم وتفرّقنا المنزلة، والآن تسمو منزلتنا بمصاهرته.. ولئن أظهر الله دعوتنا، ليملكنّ هذا الرجل خراسان كلّها، وما وراء النهر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

حُمِلت جلنار في موكب فخم إلى بيت زوجها أبي مسلم في سفيذنج. ثم دخل عليها في زينته، وقد ضمّ ذراعيه وراء ظهره، وانتصب بجسمه متعالياً وهو يمشي بخطوات بطيئة واثقة. أطرقت خجلاً وتحرَّجا وهي جالسة، حتى سمعته يقول:

- ألا تقوم العروس إلى بعلها وسيّدها فتسلّم عليه؟

قامت من فورها وعلى وجهها طيف ابتسامة، واقتربت منه بحياء. ومدّ يده لتقبّلها، ففعلت. وقال:

- ما ظنك الآن بغلام السرّاجين؟

قالت بصوت مرتجف:

- بل سيدي ومولاي وزوجي.

- هو ذاك!

ثم خلع عمامته ودفعها إليها:

- دونك عمامتي! واخلعي عني ردائي.

فعلت كما أمر. ثم جلس على الأريكة ومدّ ساقيه ورجع بجسمه إلى الخلف:

- هاتِ لسيدك شراباً.

أسرعت إلى خدمته، بينما أخذ يراقبها مبتسماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان سليمان بن كثير قد اعترض على أمر الإمام في أبي مسلم، حتى شجّه وأسال دمه، قبل أن ينصاع على كره منه، مُحتجاً بصِغَر سنّه وقِصَر عهده بالدعوة، فقد استطاع أبو مسلم في وقت قصير أن يقيم لنفسه الحجّة عليه، فحقق في بضعة شهور ما لم يتحقق قبله في سنوات. إذ جدّ في نشر الدعوة، وتشمّر لها. وأخذ القوم بالبيعة وتوافد عليه النقباء ومجلس السبعين من كل حدب وصوب من أنحاء خراسان. وأمّل أصحابه ومناصريه ألا يمضي العام، حتى يُظهِروا الدعوة، ويلبسوا السواد، ويرفعوا الرايات. وذكّر بأن أول النصر مخاطبة العقول والأفئدة، واستكثار الأتباع في كل كورة وبلد من خراسان، فإذا تم لهم أن يمتلكوا عقول الناس وقلوبهم، فقد ملكوا سيوفهم،على أن الحكمة تقضي بمخاطبة الناس على قدر عقولهم. وإذا كان الناس أصنافاً، فالمداخل إليهم مختلفة باختلاف أحوالهم وأغراضهم.

وعلى ذلك بث دعاته وقسّمهم على طوائف الناس، وزوّد كل فريق بوصايا تصلح للطائفة التي ندبهم إليها.

أما الفلاحون فيقال لهم:

«قد كان نصيبكم من حيف بني أميّة وعُمّالهم فوق الذي تطيقون. تعملون العام كله في الحرث والزرع، فإذا أينعت الغلّة وحان قطافها، جاءكم الدهاقين فحازوا جلّها، فادّخروا لأنفسهم شطراً، وردّوا على سادتهم عُمّال بني أمية ما تعهّدوا لهم بأدائه، ثم لم يتركوا لكم ما يقيم أودكم وأود أبنائكم».

وأما ملّاك الأراضي فيقال لهم:

«هذه الأرض ورثتموها من أجدادكم الفاتحين حين قُسِّمت بينهم. وليس عليها في شرع الله غير العُشر. أما هذا الخراج الذي فُرِض عليكم فلم يأتِ في كتاب ولا سنّة. فاستويتم في هذا مع الموالي وأهل الذمّة. بل استوى حالكم مع عامة الفلاحين الذين تكرونهم أرضكم لزراعتها وتعهّدها على قسمة بينكم. فما الذي يبقى لكم بعد ذهاب نصف الغلّة للدهاقين وعُمّال بني أمية، إلّا أن صارت الأرض كعدمها».

وأما العبيد، فيقال لهم:

«وقد أفتى إمامنا رضي الله عنه بأن العبيد الذين ينحازون إلى دعوتنا يخرجون من ذمة سادتهم، ويدخلون في ذمة الإمام، فهو وليّهم، ويصيرون بذلك أحراراً حين تظهر الدعوة. واذكروا قول الله تعالى: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين).

واختص أبو مسلم نفسه بمخاطبة العجم على صفة العرق، فجمع منهم جمعاً كبيراً، وخاطبهم قائلاً:

- وقد مَنَّ الله عليكم وعلى آبائكم بالإسلام، فاستوى حالكم مع العرب في أمر الله وشرعه، حتى غيّر بنو أميّة وانحرفوا عن شرع الله، قدّموا غرض الدنيا على الآخرة، فأعادوا الجزية على رؤوسكم كأنكم لم تسلموا، وقد أبليتم وأبلى آباؤكم في الجهاد وراء النهر، حتى قاتلوا بعض قومهم ممن أقاموا على دينهم. إلّا أن بني أميّة حجبوا عنكم أعطيات الجند، ولم يقيدوكم في ديوانهم. فإن أعطوكم شيئاً كان مِنّة منهم وتفضُّلا، ونقصوكم عن غيركم، وإن لم يجدوا ما يحملون الجميع عليه في الحرب، حاربوا راكبين، وحاربتم راجلين. وإن الإمام رضي الله عنه قد خصّ خراسان بدعوته، وقد سمعته يقول: «عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير، والجَلَد الظاهر، لم تُقَسّمها الأهواء، ولا فيهم كتحارب الأتباع للسادات، وكتحالف القبائل وعصبية العشائر». وسمعته يقول: «فكأني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق. فإذا رأيتم الرايات السود مقبلة من خراسان، لا يمرّ أهلها بحصن إلّا فتحوه ولا يرفع لهم عدوهم رايةً إلّا قصموها، ولا يلقاهم جيش إلّا هزموه، يلقى أولهم العدو لقاءً، وتطوى لهم الأرض طيًّا، ويسير الرعب بين أيديهم حتى يردوا أرض القيظ ويقتلوا بها فرعون بني أميّة. فعند ذلك يقصم الله الجبارين من بني أميّة، ويصير الأمر إلى أهله». وها قد ظهرت بوادر هلاكهم بأيديهم أولاً، إذ سلّط الله بعضهم على بعض، فانقسموا بعد أن قسموا الناس. وما زال فرعونهم مروان بن محمد يُخرِج الحملة إثر الحملة، فلا تستقيم له الأمور في الشام والعراق، حتى ظهر الفساد في البر والبحر بما اكتسبته أيديهم، وعمّ البلاء، وضجّ الناس بالشكوى. وهذه علامات ظهور المهديّ، وإنه والله إمامنا، وقد وردت فيه الأحاديث، وتواترت الأخبار، وقد أظلّنا زمانه، يملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً، ويكثر ببركته الخير، حتى لا يجد الرجل من يُخرِج إليه زكاته.

وهكذا وجّه أبو مسلم كل رجل من أصحابه إلى ناحية من خراسان، فكانوا يدورون بها كورةَ كورة، وبلداً بلداً، في زيّ التجار. ودأب على الخروج بنفسه، فأتْبَعه عالَمٌ من الناس عظيم. حتى أجاب جميع أرض خراسان: سهلها وجبلها، وأقصاها وأدناها. وبلغ في ذلك ما لم يبلغه أصحابه من قبله، واستتبّ له الأمر على محبته، وصار من أعظم الناس منزلاً عندهم، حتى كانوا يتحالفون به فلا يحنثون، ويذكرونه فلا يملّون.

في منزل سليمان بن كثير، قال له لاهز وهو يحاوره:

- أرأيت يا أبا محمد إلى هذا الذي استصغرته وكدت تخالف عن أمر إمامك فيه، حتى قلت: حَدَث السنّ لا ندري أي بيضة تشققت عنه. فما ظنك الآن به؟

أجاب سليمان متململاً:

- حسبك يا لاهز.

- قد انطاع إليه الناس محبةً وإعجاباً وثقةً وتقديراً. فلو دعاهم اليوم إلى الموت لأقبلوا عليه راضين غير هيّابين، لا يسألون فيمَ يَقْتُلون ويُقْتَلون.

قال سليمان:

- لست أجادل في هذا الآن. ولكن..

رمقه لاهز متسائلاً:

- ولكن؟

قال سليمان:

- لئن خشيت أول الأمر أن يودي بدعوتنا لحداثة سنّه، فإني أخشى الآن من فرط قوته!

تعجب لاهز وقال:

- قوته قوتنا وقوة دعوتنا، فكيف تخشاها؟

أجاب سليمان بنبرة عميقة:

- قد علمتني التجارب أن الخطر يأتي من أحد قائدين: قائد ضعيف دون المهمة التي نُدِب لها، وقائد مفرط القوة، حتى يصير شخصه أكبر من مهمته، وغاية نفسه أعظم من الغاية العامة.. عندئذٍ تصير قوته كالسيل العَرِم، تجرف الأخضر مع اليابس.

تأمّله لاهز من جديد وقال:

- ألا تنتهي مخاوفك يا أبا محمد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الوقت الذي كان هذا الحوار يجري في منزل سليمان بن كثير، كان أبو مسلم يجتمع في منزله بطائفة من أوساط رجال الدعوة اختارهم على عينه، في جو خاص من السريّة. فخطب فيهم قائلاً:

- اعلموا أني عجمت عيداني، فلم أجد خيراً منكم للمهمة العظيمة التي أريد الآن أن أنتدبكم لها. قد اختلفت أغراض الناس ومشاربهم، وإنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، وقد يبيت الرجل على حال، ثم يصبح على حال، فإن النفوس تتقلّب تقلّب الماء في القِدْر. ومهما نجتهدْ في معرفة أحوال الرجل واختبار صدقه، فليس في وسعنا أن ندخل إلى سريرته. وقد علّمتنا تجارب الأمم من قبلنا، وسِيَر الملوك الذين أسّسوا ممالك عظيمة، أن أعظم الخطر ما جاء من داخل الدعوة وأهلها. فإنه كلما تقدّمت وأيْنَعت ثمارها تحركت الأطماع في بعض النفوس، وظنوا أن الدعوة بستان لهم يتنافسون على جني ثماره. ولربما أفضى بهم ذلك إلى التآمر للاستئثار بالسلطان الجديد، محتجّين ببلائهم فيه، فإن يئسوا من تحصيل ما يرونه حقاً لهم، فربما انقلبوا على الدعوة وانحازوا إلى عدوّها، فيقع الاضطراب والفُرقة وتتخالف النفوس، وهذا أوّل البوار ومقدمة الدمار. ولست أشك في أحد من أصحاب دعوتنا الآن، ولكني أيضاً لا آمن من أحد أَمْنَ اليقين، حتى يأتيه أجله وينقطع عمله، ولذلك كله كان من أوجب الواجبات لحفظ الدعوة أن نصونها بالحرص وتَوَقّي الشر قبل حصوله. وإذا كان النقباء وكبار أهل الدعوة شهداء على الناس، فقد اخترتكم لتكونوا شهداء عليهم بالخفاء، دون أن يحسّوا منكم شيئاً. وإذا كانت السريّة أصل دعوتنا، فأنتم سرّ السرّ، لا يطّلع على عملكم أحد غيري، وليس لكم مرجع إلّا إيّاي، تنبثون في أوساط الدعاة، فترقبون وتسمعون، ثم تعودون إليّ بذلك كلّه، حتى لا تفوتني منه شاردة ولا واردة.

ثم أشار إلى المصحف، وأردف:

- وتقسمون بذلك على كتاب الله، وعليكم به الطلاق والعِتاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

بينما كانت الأحداث تتطور في المشرق وتجري نحو غايتها المقدّرة، كانت الأندلس في أقصى المغرب تنذر بعاصفة وشيكة ستقلب أحوالها. فقد مات صاحبها ثوابة بن سلامة الجذاميّ الذي نصّبه الصميل بن حاتم حاكماً بدلاً من أبي الخطّار الكلبي. فتنازع على إمارتها ولده عمرو بن ثوابة، وشيخ قبيلة جذام: يحيى بن حُرَيث. وكل منهما يرى نفسه أحق بها. وتسابق الطرفان على طلب النصرة من

الصميل، ولكنه امتنع قائلاً: «لا ناقة لي في هذا ولا بعير. إنما أنا رجل من قيس، وهذا أمر وقع بين فريقين من جذام واليمنيّة، لا نميل فيه لأحدهما».

ولكن الحقيقة أنه كان له في هذا النزاع غير ناقة وبعير، ولكن ليس من أي من الفريقين، وإنما بتركهما يقتتلان حتى يُفني بعضهم بعضاً، وتتكسر شوكتهم بأيديهم، فإذا ضجّ الناس وكثر الهرج والقتل خرج الصميل مع قومه في صفة المنقذين، فالتف حولهم الناس، وقبلوا منهم، وصار الأمر إليهم بلا منازع.

حين شرح خطّته لأصحابه، سأل أحدهم:

- وتحكم بنفسك يا أبا جوشن؟

أجاب:

- أحكم، نعم. ولكن ليس بنفسي، بل برجل من قريش، فإن لها منزلة عند الناس، يقرّ بها القيسية واليمنية معاً، فيحكم هو الناس، ونحكمه نحن!

سُئِل من جديد:

- ومن ذلك الرجل من قريش الذي يرضى أن يكون حاكماً بلا حكم؟

ابتسم الصميل ابتسامة ماكرة، وقال:

- يوسف الفهري.

علّق أحد أصحابه:

- هذا رجل معتزل في البيرة، لا شأن له في الحكم والسياسة.

هزّ الصميل رأسه وقال:

- هذا هو الغرض!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دقّ يوسف الفهري على صدره، وقال مستنكراً:

- أنا؟ قد أخطأت صاحبك يا أبا جوشن.. لا.. لست أنا بالذي يصلح للإمارة، وليس لي مطمع فيها.

قال الصميل:

- وخير الأمراء من أتته الإمارة وهو زاهد بها.

قال يوسف مصرًّا على موقفه:

- لا يا أبا جوشن. حسبي من الدنيا أن أخرج منها كفافاً لا عليّ ولا لي، وأن أقضي بقية عمري في عبادة الله وتلاوة القرآن. ما لي وللإمارة وما يخالطها من فساد النيّات والمكائد والمؤامرات والأطماع، إن أرضيت طرفاً فقد خاصمت آخر.. لا.. لا أشتري دنياي بآخرتي.

قال الصميل:

- بل ندعوك لشراء آخرتك بدنياك، فقد علمنا أنك زاهد بها منقطع في بلدك للعبادة، وما ندعوك لها تشريفاً بل تكليفاً، ولا نقدّمها إليك حقاً،وإنما نطلبها منك واجباً عليك عند الله ورسوله وصالح المسلمين. فقد علمت أن الناس ضجّوا من اتصال القتال بين عمرو بن ثوابة ويحيى بن حريث، حتى تعطّل الحكم وتعطلت معه مصالح الخلق، ولا كاشف لها إلّا أن يتولّاها رجل من قريش يجتمع عليه الناس، فيضع الدماء ويحمي الأرواح، وأنت ذلك الرجل. فهل ترى بعد ذلك أن قعودك هنا في البيرة أقرب إلى الله من حقن الدماء وإنقاذ البلاد وإصلاح العباد؟ إن كان هذا رأيك، وهذا علمك من الدين، فاقعد وإثمها عليك، وقد استوفيت حجتي وذمّتي.

ثم نهض من فوره وغادر مع أصحابه.

لئن كان الصميل قد خرج من عند يوسف الفهري، وقد أخفق في إقناعه، فما كان له أن يعلم أن له في داخل بيت الفهريّ حليفاً أكثر إلحاحاً وإقناعاً.

- يأتيك القوم بالإمارة خالصةً لك من دون الناس، وتأباها؟ما الذي ألمّ بعقلك أيها الرجل؟

هكذا ابتدرته زوجه بالقول حين خرج القوم من عنده، وتواطأ معها ابنهما عبد الرحمن وابنتهما فاطمة.

قال بضيق بالغ:

- ألا يعينني أهل بيتي على الحق؟

قالت:

- وأي حق في أن تترك الناس يقتل بعضهم بعضاً.

- لا والله ما هذا الذي دعاكِ إلى القول، إنما هو إغراء الإمارة، وما يكون معها من القصور والخدم والحشم، وأن يقال: زوج أمير الأندلس.. إذن اعلمي أيتها المرأة أن الإمارة هي أيضاً نفاق وكذب وحروب وخصومات ومظالم وأطماع ومكائد ودسائس وفتن لا تنقطع.

- فمن أولى منك أن يطهّرها من تلك المصائب والذنوب، ويعيدها سيرة الراشدين؟

- أين هم الصحابة ليكون أميرهم من الراشدين؟ الصميل ابن حاتم أم يحيى بن حريث؟ قد فسد الزمان، وغلبت العصبيات على الدين.. فهذا قيس، وهذا يمن.. وكلهم يطلب السلطان.. والمُلْك مَفْسَدة وإفساد.. وذلك قول الله تعالى: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة).

هنا تدخّل ولده عبد الرحمن فقال:

- ذاك كلام ملكة سبأ يحكيه الله عنها، ثم تبيّن لها أن الملك الذي خشيت إفساده، هو نبي الله سليمان، فأسْلَمت له.

نفخ يوسف متأففاً وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. أريدهم على الجنة، ويريدونني على النار.. أي داهية رماني بها الصميل بن حاتم.

قالت:

- بل فضل ساقه الله إليك، وتكليف يختبرك به، وإلّا فاذهب إلى النساء اللواتي سيفقدن أبناءهن وأزواجهن، وللأيتام الذين خلّفهم آباؤهم القتلى بلا معيل، يتخطفهم الناس، فَسُق لهؤلاء حجتك في الزهد بالإمارة، فلعلهم يجدون فيها عزاءً.. ثم قابل بدمائهم وجه ربك.

خرجت من عنده، ولحق بها ولدها وابنتها، ونزل يوسف جالساً ينفخ ضيقاً، وألقى رأسه بين كفيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الصميل قد خرج في ركبه من البيرة، حين أدركه عبد الرحمن بن يوسف الفهري على جواده، وصاح:

- قف يا أبا جوشن.

التفت الصميل وهو مقبل عليه، وظهر على وجهه طيف ابتسامة وقد أدرك الموقف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

حلّ يوسف الفهري في دار الإمارة في قرطبة. وكان الأمر كما دبّر الصميل، فقد اصطلح عليه القوم وكفّوا عن القتال.

أخذت زوجة الفهري تجيل بصرها في القصر ومتاعه الفخم، بعد التحاقها بزوجها حين تمّ له الأمر. وقالت:

- وهذا الذي كاد أبوكم يحرمنا منه؟ ما أقلّ عقول الرجال.

هنا سمع صوت الفهري داخلاً عليها وهي في صحبة أبنائهما:

- سبحان الله. أينا ناقص عقل ودين؟ لا يغرّنكم هذا، فإنما هو فتنة. (وما عند ربك خير وأبقى).

كان ردُّ الزوجةِ حاضراً:

- (ولا تنس نصيبك من الدنيا).

أشار الفهري إلى المكان وقال متهكماً:

- وهذا مجرّد نصيب من الدنيا؟ بلى والله.. ناقصات عقل ودين.

وخرج.

التقت عيناها بعيني ولدها عبد الرحمن، فسألت:

- ألا يسرّك مثلي أن يكون هذا لنا؟

- بلى والله.

- فإن كان هذا نقصاً في العقل والدين، فنحن سواء فيه. ومن ذا الذي ما زال يتقاتل ويتفانى ويسفك الدماء من أجله؟ أليسوا رجالاً؟ إلّا أن أباك غير الرجال.. أو.. أنه لم يذق مثله من قبل، ولا يفتقد الإنسان ما لم يختبر.

دخلت إحدى وصيفات القصر وقالت:

- قد أُعِدت المائدة يا سيدتي.

اتسعت ابتسامة زوجة الفهري، ومشت مختالةً نحو صالة الطعام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن للفهري من الإمارة إلا الاسم وتَمَتُّع أسرته بمغانم العيش في قصر الإمارة، ولم يخطر له أن يعترض على استبداد الصميل بالحكم على الحقيقة، حسبه من الإمارة التي لم يسعَ إليها وكان صادق الزهد بها، أن يتراضى عليه الناس وتسكن خواطرهم، ويثوبوا إلى أعمالهم ومصالحهم دون خوف.

ولكن حين عزم الصميل، بعد حين، على عزل الولاة اليمنيّة، ومنهم يحيى بن حريث والي كورة ريّة وزعيم جذام، ليولّي مكانهم رجالاً من قومه القيسيّة، كان لا بد أن يعترض عليه، فقال محذراً:

- قد تعلم أن اليمنيّة لن يسكتوا عن هذا.

قال الصميل:

- من تطاول برأسه، قرعناه بالسيف.

- أبهذا أنا رضيت بالإمارة؟

- يا أبا محمد.. العزم أن نقطع أسباب الشرّ قبل وقوعه، وهؤلاء قوم اقتتلوا فيما بينهم على الإمارة، حتى عملنا على حقن دمائهم، جذام ضد جذام. وقبل ذلك انحازت جذام إلينا ضد «كلب» وصاحبهم أبي الخطار، حتى ظفرنا به معاً وألقيناه في السجن، وقدمنا والياً منهم.. من جذام.. حتى إذا مات قاتل بعضهم بعضاً. فإذا كان هذا حالهم فيما بينهم، فكيف يكون حالهم معنا بعد حين؟ فإنهم والله ما رضوا بك إلّا بعد أن ضجّ الناس بهم، ويئسوا أن يفوز منهم فريق على فريق. وإن بقي منهم ولاة على كور الأندلس اعتصموا بها واستقووا بأموالها، ولا نعدم أن يستقلّ بعضهم بها، لا سيما يحيى بن حريث، صاحب «ريّة». ثم إني لا أراهم يجتمعون على أمر من جديد، بعد الذي كان بينهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن الصميل كان مخطئاً في رأيه أنهم لن يجتمعوا من جديد. أو الأصح أنه كان يرجح ذلك في نفسه وإن قال بغيره. فذلك كان غرضه الذي كان يتحيّن الفرصة لتحقيقه: أن يكسر شوكة اليمنيّة على الجملة، مرة واحدة وإلى الأبد، لكي تخلص الأندلس له ولقومه.

وقد حصل حقاً ما كان متوقعاً. فقد اجتمع شيوخ اليمنية من جذام وكلب في بيت يحيى بن حريث في كورة ريّة، وكان منهم عمرو بن ثوابة، وعبد الرحمن بن نعيم الكلبي. واعتذر كل منهم عما كان منه، وتواطأوا على قتال الصميل وقومه، وأن يكونوا على قلب رجل واحد، وقدّموا عليهم يحيى بن حريث، الذي قال:

- عفا الله عما سلف في حق أنفسنا وقومنا.. ولكنا لن نعفو عن الصميل حتى نطأه وقومه بخيولنا، والله لو جُمِع لي دمه ودم قومه في قدح لشربته.

ثم ذكّرهم عبد الرحمن بن نعيم الكلبي بأبي الخطار حسام بن ضرار الذي ما يزال يقبع في سجن قرطبة، بعد أن غرّهم الصميل عن أنفسهم، فانقسموا بينه وبين الصميل، حتى هُزم الرجل وعُزل عن ولاية الأندلس، فكانوا كجادع أنفه بيده، كما قال.

عاد يحيى بن حريث يعتذر من جديد عمّا كان من فرع جذام في نصرة الصميل على أبي الخطار ورهطه من كلب، وكلهم يمنيّة وإن اختلف الفرع.

وتواعد القوم على أمر.

ففي إحدى الليالي، قاد عبد الرحمن بن نعيم الكلبي أربعين فارساً ومائتي راجل، وأغاروا على سجن قرطبة قبل أن يتفطن إليهم أحد. وأخرجوا أبا الخطار من حبسه، وما هي حتى صاروا خارج أحواز قرطبة، دون أن يتمكن أحد من اللحاق بهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت زوجة الفهري تجلس أمام المرآة، وتُجرِّب على نفسها أنواع الحلي والقلائد الثمينة لتختار منها ما تضعه على عنقها، وعندها ابنتها وبعض الوصيفات. استعرضت واحدة منها على عنقها وسألت:

- ما رأيكن بهذا؟

قالت ابنتها فاطمة تجاملها:

- إنما يجمل بصاحبته.

- هذا إطراء أم تعريض أيتها الفتاة؟

أجابت فاطمة مبتسمةً:

- أحسني الظنّ يا أمّاه.

وضعت القلادة جانباً وقالت:

- على كل حال، أريد ما أجْمُل به، لا ما يجمُلُ بي. فلو كان الذي تقولينه حقاً فلا حاجة لي بالجوهر الثمين، يستوي عظيمه وحقيره.

وجرّبت قلادة أخرى، وسألت من جديد:

- كيف يبدو هذا؟

قالت ابنتها مداعبةً:

- جميل.. ولكنه أليق بالصبايا.. التمسي لنفسك غيره واتركي هذا لي.

- لَأنا أصبا منكِ.

- الصبا غير التصابي.

- تأدبي أيتها الفتاة مع أمّك، فوالله ما عرفت البيرة أجمل مني، وما بقي رجل من أعيانها إلّا خطبني.. ولكني اخترت أباك.

- والآن تعلمين حُسْن اختيارك، بعد أن صارَ..

لم تتم عبارتها إذ دخل يوسف مندفعاً وهو يقول متعجِّلا:

- هيا، تجهزن للرحيل.

أخذتهما الدهشة، وأردف قائلاً بنبرة قاطعة:

- لا ننام الليلة في هذا القصر.. بل هو القبر.

صاحت زوجته:

- ويحك ماذا تقول؟

- انتهى عهدنا مع الإمارة.. وكان ينبغي ألّا يبدأ.. سنعود إلى دارنا في البيرة.

همّت زوجته أن تقول شيئاً، فسبقها بلهجة آمرة:

- لا جدال.. قد أمرت بالركائب وهي في الانتظار.

وخرج من فوره، مخلِّفاً زوجه وابنته في حال من الذهول والحيرة. وما هي حتى بدأت الزوجة في جمع الحلي والجواهر لتحملها معها، وقالت لابنتها:

- احملي معك ما استطعت.. ما خفّ حمله وزاد ثمنه.. هيا.. قد علمتُ أن أباك ليس بالوجه الذي يُقْبِل على النعمة.

أخفقت محاولات الصميل في أن يردّه عن عزمه، فلما أمعن في الإلحاح قال له يوسف:

- أنصت يا أبا جوشن، أنا لم أكذبك الخبر، وتعلم أني ما رضيت بالإمارة إلّا لحقن الدماء حين رضي القوم بأن يتصالحوا عليّ.. أما الآن فاليمنية يحشدون مجتمعين كما توقعت، وأنت والقيسية تحشدون، ووالله لتكونن مقتلة عظيمة ما شهدت الأندلس مثلها.. وإني لأبرأ إلى الله من هذه الدعوة الجاهلية، ولا أريد أن يكون لي فيها يد، ولا عليّ منها إثم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منزل البيرة البسيط، كان عليه أن يرى أهل بيته يلاحقونه بنظرات اللوم والعتاب، حتى ضاق بهم ذرعاً وقال وهم على مائدة الطعام:

- ما بكم؟ ما زلتم تنظرون إليّ كأني قارفت إثماً عظيماً؟

قالت زوجه:

- وأي إثم أعظم من ردّ نعمة الله؟ فإنها والله تستوي مع الاحتجاج على أمر الله في حال المصيبة.

صاح متأففاً:

- نعمة! نعمة! إنما هي شرٌّ وفتنة يا امرأة.

ردّت عليه:

- ولا أراك قد صممت لاختبارها. والله تعالى يقول: (ونبلوكم بالخير والشر فتنة). فإن كانت خيراً فإنك لم تحفظها، وإن كانت شرًّا فإنك لم تصبر عليها.

قال وهو يشير في المكان:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله. وهذا الذي أنتم فيه هنا؟ أليس نعمة تستحق شكر الله؟

قالت:

- بلى. وقد شكرنا الله عليها، فزادنا من فضله كما قال: (ولئن شكرتم لأزيدنكم)، ولكنك رددت الزيادة، والله تعالى لا تُرَدّ هديته.

ترك طعامه ومشى خارجاً وهو يقول:

- أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.. لا يملأ عين ابن آدم إلّا التراب. اللهم غفرانك.

بعد أيام من عودته إلى عزلته في البيرة، سيجد أن شخصاً آخر سيكون أشدّ عليه من لوم زوجه وعتابها في شأن اعتزاله الإمارة: ذلك هو نفسه!

فبينما كان يقرأ في المصحف الشريف وِرْدَه اليوميّ، وجد خياله ينصرف إلى صور الحياة في قصر الإمارة: الخدم والحشم والحرس والموكب الفخم وصالة الحكم مع الأعيان، ومائدة الطعام الضخمة مع الصميل والآخرين!

وإذ تنبّه إلى نفسه، نفض رأسه مستغفراً الله ومستعيذاً به من فتنة الدنيا وشهواتها، ومن نزغات الشياطين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

في بيت أبي مسلم الخراساني في قرية سفيذنج من أعمال مرو في خراسان، كان الرجل قد استعد للسفر لملاقاة الإمام في موسم الحج، بعد أن بلغت الدعوة ما بلغت على يديه.

بدت جلنار حزينة لفراقه، وامتزج حزنها بالقلق عليه من أخطار السفر مع كل تلك الأموال التي يحملها للإمام. ولما عبرت له عن قلقها قال:

- الشيء الوحيد الذي ينبغي أن نخاف منه، هو الخوف نفسه.

- ولكنك منذ تزوجنا لم تقعد يوماً ولم تهدأ ساعة.. وإنّ لزوجك عليك حقاً.

لم يبدِ لها الكثير من عواطف الرجل الذي سيفارق زوجه في سفر طويل، واكتفى بالقول:

- سبحان الله. إذا تزوجتِ المرأة الرجل الخامل، شكت من خموله وقصر همّته، وإذا تزوجت رجلاً يبذل نفسه في غايته، شَكَتْ انشغاله عنها. فماذا تريد النساء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن قافلته قد خرجت من أرض خراسان، حين وصل رسول الإمام إلى مخيمه، وكان معه في الرحلة قحطبة بن شبيب وخمسون آخرون من المرافقين من أهل الدعوة.

قال الرسول:

- الإمام رضي الله عنه يقرئكم السلام، ويقول: ارجع يا أبا مسلم من حيث يلقاك كتابي، وليشخص إليه قحطبة وحده بما معه ليوافيه في الموسم. والبيان في هذه الرسالة.

فضّ أبو مسلم رسالة الإمام على مشهد من قحطبة، وإذ نظر فيها تغيّر وجهه واتسعت عيناه وتقوّس حاجباه، وقرأ:

«أظْهِر دعوتك ولا تَربَّصْ.. فقد آن ذلك. وقد بعثت إليك بلوائنا ورايتنا لتعقدها يوم الخروج».

ضرب بقدمه على الأرض بحماس غامر. أخيراً، اقترب الوعد، وحانت لحظة الحقيقة. ثم استخرج اللواء والراية من الكيس الذي جاء به الرسول، ونشرهما بين يديه. كلاهما كان أسود اللون، إلّا أن اللواء كالعادة هو الأكبر، وقد طُرِّز على اللواء ما سيكون شعار الثورة ونداءها: «يا محمد، يا منصور». نزل برأسه عليهما وقبّلهما بكل إجلال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كذلك فعل كبار النقباء الذين جمعهم في بيته في سفيذنج، إذ نشر أمامهم اللواء والراية، ثم قال بنبرة اليقين:

- الوعد الحق.

وتلا قوله تعالى: (وقل جاء الحق وزهق الباطل. إن الباطل كان زهوقا).

وقوله: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا. وإن الله على نصرهم لقدير).

ثم توقف أمام سليمان بن كثير وقال:

- أبشر يا أبا محمد، وأنت كبيرنا الذي نتبرّك به، ونسترشد برأيه.

سأل سليمان:

- متى.

أجاب أبو مسلم:

- إذا كانت ليلة الخميس لخمسٍ بقين من رمضان، لبسنا السواد، وعَقَدنا اللواء والراية، وأشعلنا النار علامة لأهل دعوتنا كي يجتمعوا إلينا من كل حدب وصوب، وخَنْدَقْنا على معسكرنا، حتى يفتح الله بيننا وبين الظالمين. ولكن، حتى نبلغ ذلك اليوم القريب، فأمامنا عمل كثير.

ثم انتدب من أصحابه من يخرج إلى مختلف الكور والنواحي من خراسان لينذروا أهل الدعوة بالموعد، وفرّقهم بين طخارستان، ومرو الروذ، والطالقان، وخوارزم. وأوصى ألّا يُشهروا السيوف ولا يرفعوها على أحد إلى ذلك الوقت، فإن أعجلهم عدوّ دون ذلك الموعد، فعَرَض لهم بالأذى والمكروه، فقد حلّ لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجاهدوا أعداء الله. ومن شغله منهم عدوهم عن الوقت المضروب، فلا حَرَج عليهم أن يظهروا بعد الوقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكامل اجتماع أهل الدعوة من كل صقع وناحية في الموعد المضروب، وفي بسيط مفتوح، وكانوا جموعاً هائلة لم تشهد خراسان لها مثيلاً. ثم أقبل عليهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وآخرون من كبار النقباء على الخيل، وقد لبسوا السواد. وإذ رأتهم تلك الجموع بدأت بالتكبير، حتى رفع أبو مسلم يده يسكتهم، فرانَ الصمت والترقب. ثم أشار أبو مسلم إلى فارسين من أتباعه، فتقدما إليه وبيد كل منهما رمح: أحدهما أربعة عشر ذراعاً، والآخر ثلاثة عشر ذراعاً.

بأسلوب مهيب أقرب إلى جوّ الشعائر الدينية وطقوس القداسة، عمل أبو مسلم على عقد اللواء على الرمح الأطول، والراية على الثاني. حتى إذا فرغ من ذلك بدأ بالراية فرفعها أمام الجموع وصاح:

- راية دعوتنا.. سميناها السحاب، لأنه يطبق الأرض، وكذلك دعوة إمامنا.

ثم تحوّل إلى اللواء ورفعه عالياً وصاح من جديد:

- اللواء.. سميناه الظلّ، لأن الأرض لا تخلو من الظل أبداً، وكذلك لا تخلو من خليفة من أئمتنا المهديّين.

ثم رفع اللواء إلى سليمان بن كثير:

- دونك يا أبا محمد.

رفع أبو مسلم الراية عالياً، بينما رفع سليمان بن كثير اللواء أمام الجموع التي بدت مثل سحابة سوداء هائلة حطت على الأرض توشك أن تتحوّل إلى سيل جارف فيه عذاب شديد. وهنا ارتفعت الأصوات الهادرة بالتكبير، حتى ملأت السهل والوادي. وأخذ أبو مسلم وابن كثير يجولان بجواديهما وهما يستعرضان اللواء والراية اللتين ترفرفان الآن في وجه الريح، وستكونان منذ اليوم شاهدين على واحدة من أعظم ملاحم التاريخ.

في دار الإمارة في مرو الشاهجان كان والي خراسان نصر بن سيّار الذي بلغ الثمانين من عمره، يدور على نفسه بين أصحابه ويضرب كفاً بكف، وقد أدرك أنه لا قِبَلَ له الآن بذلك الجيش العظيم الذي اجتمع إلى أبي مسلم. وكان منذ جدّ أبو مسلم في الدعوة والتمكين لها قد رأى نُذُر الثورة الوشيكة، فلم يدّخر جهداً في الكتابة إلى والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، ثم إلى الخليفة مروان بن محمد، ينذر ويحذّر ويصف الخطر العظيم الذي يوشك أن يذهب بخراسان، لينحدر منها إلى العراق، ثم الشام، ويطلب أن يمدّاه بالعسكر لدفن الفتنة في مهدها. فكتب إلى يزيد بن هبيرة شعراً قال فيه:

أبلغ يزيداً وخير القول أصدقُه

وقد تبيَّنْتُ ألّا خير في الكَذِبِ

أن خراسان أرض قد رأيت بها

بيضاً لو افْرَخَ قد حُدِّثت بالعجبِ

فراخ عامين إلّا أنها كبرت

لمّا يَطِرنَ وقد سُرْبِلنَ بالزِّغب

فإن يطرن ولم يُحْتلْ لهنّ بها

يُلْهِبن نيرانَ حربٍ أيّما لَهَبِ

ولكن يزيداً الذي كان في معسكره بكرمان يحارب فريقاً من الخوارج، لم يسعفه بشيء.. وقال لرسول نصر:

- لا غلبة إلّا بكثرة، وليس عندي رجل أستغني عنه، فكيف أقسم نفسي بين هؤلاء الخوارج هنا، وأولئك العصاة في خراسان؟ فإن قسمت جيشي غلبني الخوارج ومن انحاز إليهم على العراق، فإذا ذهب العراق لم نبلغ شيئاً من خراسان ولكن إذا خلصت لنا العراق، تفرّغنا لخراسان.

ثم أنحى باللائمة على نصر بن سيّار نفسه، وكان مبغضاً له:

- ولماذا لا يتصدّى نصر لهم بنفسه وهو والي خراسان منذ دهر، وأكل منها حتى انتفخت بطنه، وعرف مداخلها ومخارجها معرفة الرجل لبيته، فلما صار عليه الغُرم طلب منا نجدته، وقعد ينتظر. ماذا كان يفعل هذه السنين في خراسان؟ إن لم يكن أهلاً لضبط أحوالها، أفما كان يستعفي ليتولاها رجل أكثر منه حزماً؟

أما الخليفة مروان، فكتب له نصر أبياتاً أخرى:

أرى بين الرمادِ وميضَ جمرٍ

ويوشك أن يكون لها ضرامُ

فإن النار بالعودَيْن تُذكى

وإن الحربَ مبدؤها الكلامُ

فإن لم تطفئوها تَجْنِ حرباً

مُشَمِّرةً يشيبُ لها الغلامُ

فقلتُ من التعجّب ليت شعري

أأيقاظ أميُّة أم نيامُ

فإن يَقِظَتْ فذاك بقاء ملكِ

وإن رَقَدَتْ فإني لا ألامُ

فإن يكُ أصبحوا وثَوَوْا نياماً

فقل قوموا فقد حان القيامُ

ولكن ذلك كله ذهب سدىً، فما كان بوسع مروان أن يفرغ الشام من الجيوش وقد انقسمت عليه، وخراسان بعيدة. فكان جوابه لنصر: «الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فاقطع الثؤلول من قِبَلِك».

والآن، وقد أظهر أبو مسلم الدعوة، وجمع أتباعها وعسكر بهم وخندق عليهم، فقد ظهر أنه ليس مجرد ثؤلول، إنما هي ريح عاصف توشك أن تدمر كل شيء في طريقها، حتى تبلغ المصائر محلّها في انتقال الدول، وقيامها، وأصحابها، ورعاياها، في حاضر الزمان وآخره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وربّ طائر يطير بجناحيه في فضاء الله في مكان ما من أرض الفرات، غير بعيد عن رصافة هشام، يوشك أن يلقى مصيره الآن، فيسهم بانقضاء أجله في التقاء مصيرين واجتماع سيرتين طويلتين لرجلين ليس بينهما جامع من العِرْق والمنزلة والسنّ والأصل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

سدّد الرجل الذي يبلغ من العمر زهاء الثلاثين أو دون ذلك قوسه، وأطلق سهمه، ورأى الطائر يهوي إلى الأرض، فمضى إلى موقع سقوطه على جواده غير متعجّل. وحين وصل إليه، كان قد سبقه إلى الطائر رجل آخر قد رفعه بيده وطفق ينظر إليه مستغرباً. فقد اخترقه سهمان معاً، وهو يعرف من أين جاء أحدهما، ولا يعرف الآخر، حتى سمع صوت الرجل يقول وهو يقترب بجواده:

- طائري أيها الرجل!

قلّب الرجل الذي حمل الطائر بيده بَصَره بين الصيد وذلك الرجل الذي بدا أنه انبثق من الخفاء. وهنا تنبّه الأخير إلى ما أثار عجب الأول: سهمان، وطائر واحد!

في تلك اللحظة وصل عبد الرحمن بن معاوية مع جماعة من أصحابه، وكان الذي التقط الطائر أحد خدمه، فإذا أصاب صيداً سبقه إليه ليأخذه له. رفع الخادم الطائر أمام عبد الرحمن، فاشتدّ عجبه حين رأى السهمين المتجاورين، ثم انتقل ببصره إلى الرجل الغريب وقد أدرك الموقف، وسأل:

- أهذا سهمك إلى جانب سهمي؟

هزّ الرجل رأسه وهو يتمعّن في عبد الرحمن الذي لم يره من قبل.

قال عبد الرحمن:

- إنك لتُحسِن الرمي.

ردّ الرجل، وقد شعر بأن الذي أمامه رجل ذو منزلة رفيعة:

- وأنت كذلك أيها السيّد.

هنا تدخل أحد المرافقين:

- إنه مولانا الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك!

إذ سمع الرجل ذلك، ترَجّل فوراً عن مطيته، وانحنى للأمير بأدب جمّ، وقال:

- المعذرة يا سيدي الأمير.. لم أكن أعرف.

لم يبدِ الأمير الشاب الذي بلغ السابعة عشرة من عمره، وإن بدا أكبر من ذلك، أي اهتمام. وخاطب خادمه الذي يحمل الطائر:

- أعطه إيّاه.

ثم انفتل بجواده وانطلق مبتعداً، ولحق به الآخرون.. ولبث الرجل الذي يُعرَف باسم بدر واقفاً في مكانه يلاحق الأمير وأصحابه بأنظاره، ثم ينقل بصره بين الطائر الذي صار بيده مشكوكاً بالسهمين، وبين ركب الأمير الذي أخذ في الابتعاد، مثيراً وراءه غمامة من الغبار.

كان أبناء معاوية بن هشام قد تفرّق معظمهم في مدن الشام، وآثر بعضهم الإقامة في دمشق، واختار عبد الرحمن أن يبقى في داره برصافة هشام. وهو الآن أب لطفل لا يزيد عمره على بضعة شهور، ذلك أن أمّه راح حين اشتدت علتّها أحبت أن ترى لها حفيداً قبل أن تقضي أجلها، فحملته على الزواج، ولكن الموت عاجلها قبل أن ترى حفيدها الذي سمّاه أبوه سليمان. وشاء الله ألّا تراه أمّه أيضاً إلا بضعة أيام، فقد داهمتها الحمّى فور ولادته، ثم وافاها الأجل. فأوكل عبد الرحمن به إحدى المربيّات، وكانت أخته أم الأصبغ تسكن قريباً منه، فكانت تكثر الزيارة لتعتني بالطفل وتشارك في رعايته. ولمّا كانت تحاول إقناعه بالزواج من جديد، كان يجيب:

- ليس هذا بالوقت المناسب للزواج ثانيةً.

ولما ضاقت بذلك الجواب المكرور، سألت:

- فما هو الوقت المناسب؟

أجاب وقد شرد بالتفكير:

- لا أدري. ولكني أعلم أننا نُقبِل على أيام حالكة السواد، كسواد الرايات التي رُفعت في خراسان. فمن ذا الذي يريد أن يضيف إلى حمله حملاً يا أختاه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يتأهب للخروج حين جاءه الخادم ليخبره بأن رجلاً يلح بالدخول عليه. وحين رأى الزائر بدت عليه الدهشة، وقال:

- أنت؟ قد أعطيناك صيدك، فماذا تريد بعد؟

قال بدر:

- بل صيدنا معاً يا سيدي؟

قال عبد الرحمن بشيء من الاستنكار، وقد ساءه أن يجمع الرجل بينهما على ذلك النحو:

- صيدنا؟.. معاً؟

أدرك بدر المغزى، فاستدرك على نفسه:

- العفو يا سيدي.. أعني صيد الأمير وخادمه بدر!

- بدر! أهذا هو اسمك؟.. إلّا أنك تصيد للطعام، ونحن نصيد تمتعاً وتريُّضا.

- صدقت يا سيدي.

- فما تريد الآن؟

استخرج بدر سهم عبد الرحمن الذي وقع في الطائر ومدّ يده به وقال:

- سهم مولاي. بقي في الطائر.

رمقه عبد الرحمن وقد ازداد تعجباً، وقال:

- قد علمنا ذلك.. ولو شئنا لأخذناه في وقته.. هو لك.

بقي بدر واقفاً في مكانه متردداً، حتى سأل عبد الرحمن:

- ما يوقفك الآن؟

- الحق يا سيدي أني جئت بغير هذا.

هز عبد الرحمن رأسه وقد ظنّ الآن أن الرجل طالب حاجة، فنادى خادمه وقال:

- أعطه مائة درهم.

أسرع بدر بالقول مستنكراً:

- معاذ الله يا سيدي، لا أطلب صدقة ولا عطيّة، بارك الله لك في مالك.

قال عبد الرحمن متضجراً:

- فماذا إذن؟

- أريد أن أدخل في خدمة الأمير، فأكون في مواليه.

قال عبد الرحمن بلهجة قاطعة:

- لا حاجة لنا بك.. عندنا من يكفينا حاجتنا من الخدمة.

قال بدر بإصرار وثقة:

- ولكني لست كأي خادم يا سيدي.

- وكيف ذاك؟

- أعني.. إنني أُحسِن أشياء كثيرة لا يُحسِنها عامة الخدم.. اختبرني يا سيدي، ثم احكم عليّ.

صمت عبد الرحمن لحظةً وهو يتفحّصه، ثم سأل:

- هل عملت في خدمة أمراء نعرفهم فنسأل عنك؟

أطرق بدر إطراقة خفيفة بما يوحي بالنفي.

عاد عبد الرحمن يسأل:

- عند بعض السادة والأعيان؟

من جديد، أوحت ملامح بدر بالنفي. فسأل عبد الرحمن وقد بدأ صبره ينفد:

- فمن خدمت قبلنا إذن؟

أجاب بدر بصوت خفيض:

- الحق يا سيدي أني لم أعمل في خدمة أحد من قبل.

- سبحان الله، فكيف تقول إنك تُحسِن ما لا يحسنه عامة الخدم؟ وما حاجتنا إليك إذن؟

- أُحْسِن الصيد وركوب الخيل والرمي بالقوس، وأُحْسِن معرفة الشعاب والمسالك والطرق، ثم إنني أحسن التعلم يا سيدي.. أعني هذا..

وأشار إلى رأسه، وتابع:

- وهذا هو الذي حملني إليك.. إلى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الذي آثره جدّه الخليفة هشام بن عبد الملك، طيّب الله ثراه، دون إخوته، وأعدّه ليوم النوازل، وادّخره ليحفظ إرث آبائه وأجداده.

ارتفع حاجبا عبد الرحمن وقد بلغ به العجب مبلغاً كبيراً، وقال:

- قد سألتَ عنا أيها الرجل.

ابتسم بدر بثقة وتأدّب، وقال:

- الرجل الحكيم يختار سيّده يا سيدي، كما يختار السيّد الحكيم خادمه ومولاه، إذ مناقب الخادم معدودة في مناقب سيّده، وكذلك مثالبه. فهو، وإن كان خادماً أو مولىً، فهو أقرب من خاصة الناس إلى سيّده، وما يكون فيه من همٍّ أو شأن، وهو المؤتمن على خاصة بيته. ولقد يريد السيد شيئاً ولا يليق به أن يفصح عنه، فيكون على الخادم الفَطِن أن يدرك ذلك بالعقل دون اللفظ، فيعمل بمقتضاه.

ثم رفع السهمين: سهمه وسهم عبد الرحمن اللذين وقعا في ذلك الطائر، وقال:

- وهذان السهمان.. سهم الأمير وسهم خادمه. كم مرّة يصيب سهمان الطائر نفسه في وقت واحد؟ إنها علامة من السماء.. الله فعل!

أطال عبد الرحمن النظر في بدر كأنه يسبر أغوار نفسه، وقد بلغ كلامه من نفسه مبلغاً عميقاً!

سوف يتذكر بدر ذلك اللقاء الأول على مرّ الأيام. وسوف يقصّه على الناس من حوله. ثم يستشهد بقول رسول الله (الأرواح جنود مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف).

ثم يُذكر سامعيه بأنه لا فرق في تعارف الأرواح أو تناكرها بين أمير سيد، ومولى خادم، وأن اختلاف المنازل لا يمنع من التقاء الطرق.. نعم. الطرق التي ستفضي بهما إلى غاية واحدة: الأندلس البعيدة، التي كانت في تلك الآونة تستعد لحدث عظيم يقلب موازينها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تواجه الجمعان في بسيط شقندة بالقرب من قرطبة. وكان على رأس القيسية الصميل وأبو العطاء المرّي سيد غطفان القيسية الذي نصره قبل حين على أبي الخطّار، حسام بن ضرار، حتى خلعوه عن الإمارة وأودعوه السجن. وعلى رأس اليمنية أبو الخطّار نفسه، وقد فرّ من السجن بمساعدة قومه، فاجتمع عليه اليمنية كلبها وجذامها ولخمها.

جالَ الصميل بجواده أمام جنده وصاح بهم:

- أيها الناس. قد علمتم أنا رضينا بأبي الخطار حين نزل الجزيرة وتصالحنا عليه، ومَحضْناه النصح، ولم ننازعه الأمر. ولم نقل هو من أهل اليمن، ونحن قيس. فالله أسألكم: هل قلت حقاً؟

هتف القوم:

- اللهم، نعم.

- ثم ظهر منه الميل إلى قومه، قرّبهم وأبعدنا، وضامَنا حقوقنا، فغضبنا عليه غضبة قيسية مضرية، وأخرجناه من دار الإمارة، وقدّمنا مكانه رجلا من قومه - اليمنية، هو ثوابة بن سلمة الجذامي، وكان بوسعنا أن نحوز الإمارة لأنفسنا. فالله أسألكم، هل قلت حقاً؟

صاحوا:

- اللهم نعم.

- ثم إذا مات ثوابة، اختصم القوم على الإمارة فيما بينهم، فاعتزلنا الفتنة حتى كثُر القتل وضجّ الناس، فخرجنا لحقن الدماء، وقدّمنا رجلاً من قريش يرضاه الجميع: يوسف الفهري، واصطلح عليه الناس. فالله أسألكم، هل ظلمنا؟

صاحوا من جديد:

- اللهم لا.

- ثم ما لبث القوم أن تناجَوْا بالشر، واجتمعوا بعد قطيعة، وغايتهم قطع دابرنا واستئصال شأفتنا، فوالله إن ظهروا عليكم فلن يتركوا منكم صغيراً أو كبيراً. فهل ترضون بهذا؟

صاحوا:

- اللهم لا.

- إذن فاحملوا عليهم حملة من يطلب حياته بموت خصْمِه، فما هي الآن إلّا أن تكونوا ولا يكونوا، أو يكونوا ولا تكونوا.. فيا لقيس.

رددوا من ورائه بضع مرات بصوت هادر:

- يا لقيس.. يا لقيس.. يا لقيس.

في الجانب الآخر، خطب أبو الخطّار في جند اليمن:

- أيها الناس. يا أبناء الفاتحين، لقد أفنى آباؤكم أنفسهم في فتح هذه الجزيرة، ثم عمرتموها، ووطّأتم وعرها، وزرعتم سهلها، وبنيتم دولتها، ومكّنتم فيها للإسلام. حتى جاءكم هذا الطارئ الدخيل، والأعرابي الأميّ الجافي الذي لم يمسّ الإسلام ما تحت جلده. فما زال يحرِّض قومه حتى وغرت صدورهم عليكم، ففرّق بين الناس قيساً ويمناً، حتى إذا تمّ له الأمر، دخل بيننا فنزغ بيننا نزغ الشيطان ليتم له الأمر، لولا أن تداركنا الله أخيراً برحمته، فاجتمعنا بعد فرقة. ولا تثريب علينا اليوم أن ندعو بعصبتنا، فقد حُمِلنا على ذلك حملاً، فهذا الدواء لذلك الداء، والبادئ أظلم. وهذا يومكم فلا تفوتوه، حتى نقتلع أصل الشر، وتخلو الجزيرة لمن هم أحق بها وأهلها.. فيا لليمن.

صاح القوم من بعده:

- يا لليمن.. يا لليمن.. يا لليمن.

التقى الجمعان أول الضحى، وتجالدوا جلاداً لم تشهد مثله الأندلس من قبل، حتى حميت الشمس، وأعياهم طول الجلاد، وتكسرت السيوف والنصال. وما إن دخل العصر حتى كان الإعياء قد أخذ منهم كل مأخذ، دون أن تميل الكفة لفريق على الآخر، حتى تثاقلت حركتهم، واستمات كل فريق لحسم المعركة.

عندئذٍ انحرف الصميل بجواده مع نفر من فرسانه مستتراً بمن أمامه، وقال لأصحابه:

- قد ترون أن الإعياء قد أدركنا وأدركهم، وقد مالت الشمس إلى المغيب، وما هي لنا ولا لهم. ولكن، تابعوا القتال حتى أعود لكم، وأخْفوا غيابي.

قال أحدهم:

- إلى أين؟

قال الصميل:

- اسمع وأطِع..

ثم دعا باثنين منهم أن يصطحباه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل الصميل إلى سوق قرطبة، وصاح في الناس أن يجتمعوا إليه:

- يا أهل قرطبة، نشدتكم الله أن تصْدُقوني.. هل كنت لكم يوماً أم عليكم.

علت بعض الأصوات:

- بل لنا.. خير أخ وأكرم سيّد.

- نشدتكم الله يا أهل قرطبة إلّا أجبتم، ألم أكن أحمل ضعيفكم وأواسي مريضكم وأرعى يتيمكم، وأطعم جائعكم وأكسو عاريكم؟

هتفوا:

- اللهم نعم.

- فالآن وقت الوفاء. وقد علمتم ما يدور الآن في شقندة، وقد بلغ من المُحاربة الإعياء، وتقصفت السيوف والرماح، وأنتم في عافية وقوّة. فإن خرجتم معي بكل ما تقدرون عليه من سلاح أو مزرقة أوسكين جزار، أو حتى عصا وخشبة، رَجحت كفتنا عليهم، وأدركناهم في حال لا يستطيعون معها ردًّا، فأخذناهم بكم طعمة سهلة. فما تقولون؟

تعالت الأصوات:

- لبيك يا أبا جوشن.. هذا يوم الوفاء.

نجحت خطة الصميل. فما إن تدفقت جموع أهل قرطبة إلى أرض المعركة وانخرطوا فيها، حتى رجحت كفّة القيسية، وانجلى غبار المعركة عن انتصار ساحق، وفرّ أبو الخطار بجلده.

أخذ الصميل يستعرض الأسرى وقد أوثقوا بالحبال، حتى وقف بجواده عند يحيى بن حريث. أرسل إليه نظرة تشفٍّ وقال:

- يحيى بن حريث - سيد جذام؟ ما ظنك الآن؟ أينا يجمع دم الآخر في قدح فيشربه؟ ألست القائل؟

رد عليه يحيى دون تردد ولا خوف، وهو يحدّق فيه بنظرة مفعمة بالحقد:

- والله لو استطعت لفعلت. وما آسف إلّا أنني لا أستطيع.

- ولسوف تمضي بحسرتك. وكنت أرجو أن يكون معك أبو الخطار ليؤنس وحشتك حيث أورِدُك، ولكنه آثر الفرار.

ترجّل الصميل عن جواده، وسلّ سيفه متأهباً لقتله، حين سمع صوتاً يصيح:

- أبا جوشن.

التفت إلى جهة الصوت، فرأى جماعة من قومه يدفعون أبا الخطار أمامهم، فتهلّل وجه الصميل، وقال أحدهم:

- وجدناه مختبئاً تحت سرير الرحى في موضع قريب.

نظر الصميل إليه وقال متهكماً:

- أبا الخطار.. أبا الخطار خيّبت ظني بك! كيف ترضى بذل الفرار وقد كنتَ الأميرَ المقدّم. أفلا قتلتَ عزيزاً؟

ثم نقل بصره بين يحيى بن حريث وأبي الخطار، وقال:

- والآن بأيكما أبدأ؟

سكنت الأصوات ترقُّبا.. ورفع الصميل سيفه وهو ما يزال ينقل بصره بين الرجلين، وبدا متردداً فيمن يبدأ، ثم بدا أنه اختار ابن حريث الذي أغمض عينيه، ولكن الصميل تحوّل بحركة خاطفة بسيفه إلى أبي الخطّار، وأهوى عليه بالسيف واخترطه.

أطلق الصميل ضحكة إذ تمكن من خداع الحضور، بينما فتح يحيى بن حُرَيث عينيه ينظر، وقال له الصميل:

- ألا تشكرني؟ فقد أطلت عمرك لحظة.. تودّع الآن من الدنيا.. فهذا آخر عهدك بها.

ثم هوى بالسيف على رأسه فشقّه، وانكفأ ابن حريث على الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان فِعْله بأبي الخطار وابن حريث فظيعاً، فإن ما تبع ذلك كان أعظم فظاعة وأشدّ قسوة.

ففي الساحة أمام الكنيسة في وسط قرطبة، جمع الأسرى بالمئات ووضعت مقاعد للصميل وأبي العطاء المرّي ونفر من أصحاب الصميل. واحتشد أهل قرطبة ليشاهدوا مصارع الأسرى المريعة، ووقفت أعداد من الجند في انتظار أوامر الصميل، الذي صاح بهم:

- عشرةً عشرة.

يعني أن يقدموا عشرة أسرى في كل نوبة من القتل إلى الساحة، ليتولى ضرب أعناقهم عشرة من الجند، فإذا فرغوا منهم سحبوهم، وأتوا بعشرة آخرين ليلقوا المصير نفسه.

وبدأ العمل بإشارة من الصميل. كان المنظر مفزعاً اهتز له حتى حليفه ونصيره أبو العطاء المرّي على ما كان فيه من تعصّب للقيسية. وبدا الأسرى في حالة مزرية مثيرة للأسى وهم ينتظرون دورهم ليساقوا إلى الموت وهم ينظرون بعيون زائغة تدور في محاجرهم. وحتى أهل السوق الذين استجابوا لدعوة الصميل ورجحت بهم كفته، راعتهم مشاهد القتل والدم الذي بدأ يمتد في الساحة ويغطيها، إذ تتلو العشرة العشرة، حتى إذا بلغ عدد القتلى سبعين رجلاً، وقف أبو العطاء وقد نفد صبره وغلب عليه نداء الرحمة والضمير، وصاح بالصميل:

- أبا جوشن. اغمد السيف، وراجع.

قال الصميل:

- اقعد أبا عطاء، فهذا عزّك وعزّ قومك.

وأشار إلى الجند لتقديم العشرة الثامنة، وهنا صاح أبو العطاء من جديد وقد أخذته فورة عارمة من الغضب نسي معها مكان الصميل:

- يا أعرابي! والله لئن لم تنتهِ لأدعونّ بدعوة تجمع عليك قيساً واليمن، فلا تجد لك نصيراً.

توقف الصميل إذ أدرك صدق لهجة الرجل وما تنطوي عليه من تهديد. أطرق لحظةً متفكراً، ثم رفع رأسه وأشار إلى الجند أن يكفّوا، ثم خاطب الأسرى الذين فُرِّج عنهم بعض ما كانوا فيه، وقال:

- قد افتدى أبو العطاء دماءكم، وهو مقدّم فينا فلا نردّ له طلباً، فقد وهبناه دماءكم.. فاحفظوها.

ومشى مبتعداً، بينما تلبّث أبو العطاء من خلفه، وألقى نظرة على الأسرى الذين بادلوه إياها بنظرات الامتنان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منزل يوسف الفهري بالبيرة، لحظت زوجه أنه كان يطيل السهوم والتفكير، وأدركت ما يعتمل في صدره بحسّ الزوجة التي تقرأ زوجها كأنه كتاب مفتوح، وتعلم من سرّه ونجواه وخفايا صدره ما لا يبوح به. فسألت سؤالاً ماكراً يشي بإدراكها ما يدور في خلده:

- تشعر بالضجر يا أبا عبد الرحمن؟

لم يجبها وتحاشى نظراتها السابرة. أعقبت بالقول:

- ومن لا يضجر مع الخمول في هذه البلدة الصغيرة؟

بعد لحظات من الصمت، خرجت من التلميح إلى التصريح:

- بلى والله لقد افتقدت قرطبة ودار الإمارة بعد أن أَلِفت الحياة هناك، ولكنك تكابر.

قال متأففاً:

- ألا تَكُفِّين يا امرأة؟

ولكنها لم تكف على الرغم من ضيقه بكلامها، وأردفت:

- من اختبر المكان العالي، لم يسعه بعد ذلك الموطئ الخفيض. وإن في نفسك كالذي في نفسي، وقد انتهت الحرب وانقضت آثامها، ولم يبقَ من الإمارة إلا خيرها.

هنا تحدث بلهجة تنمّ عن ضيقه وتشي برغبته المكبوتة في الوقت نفسه:

- هل تريدينني أن أذهب الآن إلى الصميل، فأسأله العودة إلى دار الإمارة التي استعْفيتُ منها تأثماً، فأقول له: اتقيت آثامها، وحمّلتك مغارمها، فالآن وقد صَفَت المغانم، فإني أريدها. أهذا ما تريدينني أن

أفعله؟

هنا سمع صوت ولده عبد الرحمن وقد أقبل متلهفاً:

- بل أحسب أن هذا ما أقبل به الصميل الآن.

التفت يوسف وسأل:

- كيف قلت؟

- نعم، الصميل في طريقه إليك.

لم يستطع يوسف أن يداري شعوره باللهفة والحماس، وهو يقول:

- حقاً؟

أما الزوجة، فأضاء وجهها بتعبير الفرح، وأسرعت لتشرف بنفسها على تدابير الضيافة.

في مجلس الفهريّ تصنّع الجدّ والجمود ليخفي لهفته.. قال الصميل:

- ألا تهنئنا بالنصر في «شقندة» يا أبا عبد الرحمن؟

قال الفهري، ولم يكن مُدَّعياً هذه المرّة:

- بلى، قد انتصرت يا أبا جوشن. ولكن، هُزم العرب والمسلمون على الجملة في هذه الجزيرة.. كلهم. ما لهذا جاؤوا هنا، وقد ضلّوا عن غايتهم.

قال الصميل:

- أفهم قولك. ولكنها حرب فُرِضت علينا ولم نطلبها. والدنيا دول، وقد دالت إلينا.

تطوّع أحد الحضور أن يستشهد بقول الله تعالى في سياق الكلام: (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

قال الصميل معترضاً:

- بل بين العرب.

قال الرجل:

- هكذا في كتاب الله.

ردّ الصميل الذي كان جاهلاً بالقرآن:

- إذن يوشك أن ينازعنا عليها أوباش الناس.

تحرّكت حمية يوسف الدينية فقال معاتباً:

- اتق الله يا أبا جوشن. ألم تُسلم؟

- بلى، ولكني رجل أُمّي. فكيف أعرف القرآن إذا سمعته؟

- والأميّ لا يستمع إلى من يتلو آيات الله فيحفظ عنه، فإن لم يحفظ عرف كلام الله إذا سمعه، فما هو قول البشر.

- إذن، غفر الله لنا.. وعلى كل حال، ما لهذا جئنا.

ارتسمت ملامح الاهتمام والترقّب على وجه الفهري، وتابع الصميل:

- إنما جئناك بالذي جئنا به أول مرّة.

حاول الفهري أن يداري سعادته. وسأل:

- تعني الإمارة.

هزّ الصميل رأسه بالموافقة. وتكلّف يوسف التردّد والتعفف، وقال:

- لماذا لا تدخّرها لنفسك يا أبا جوشن، وأنت صاحب السيف.

- لو أردتها لأخذتها لنفسي أول مرّة. ولكن حسبي أن أعينك فيها، فأتحمل عنك أعباءها، وما تتأثّم منه.

تابع الفهري تظاهره بالتردد:

- نعم، ولكن..

- أما حربنا مع اليمنيّة فقد عذرناك في اعتزالها، وحملنا عنك غرمها. وقد انقضت الآن، واستقام أمر الأندلس، وسكن الناس، فما الذي يمنعك؟

- آه.. ما الذي يمنعني؟ أعني.. أخشى أن يتكرر..

قاطعه الصميل، وقد أدرك بدهائه وفراسته الفطرية أن الفهري إنما يتصنّع غير الذي في باطنه، فأحبّ أن يناكفه بأسلوب مبطن:

- من تولّى الإمارة، صانها بما يقدر عليه، ولا نبادر أحداً بالشر حتى يبادرنا. وعلى كل حال، نحن قصدناك بهذا، وأبرأنا إليك ذمتنا، فإن كنت عازماً على ردّنا، فلا حول ولا قوة إلّا بالله.. نلتمس لها غيرك.

وهمّ أن يقوم من مكانه، بينما اضطربت ملامح يوسف وتعجّل بالقول:

- اجلس يا أبا جوشن.. أنا لم أردّكم.. إنما.. أعني.. أريد أن أطمئن أني إن قبلتها فسوف تعينونني هذه المرّة على الحق، وأن نضع العداوات، ونصرف جهدنا في إعمار البلد.

ثم صاح بالخادم:

- الطعام لضيوفنا الكرام.

ارتسمت ابتسامة ماكرة على وجه الصميل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما انشغلت زوجة الفهري بتوزيع الأوامر على الوصيفات فور دخولها قصر الإمارة بقرطبة الذي لم يعد يسعها من الفرح، وإن كان عظيم السعة، دخل الفهري وحده إلى مجلس الإمارة وأخذ يجيل بصره فيه وقد غلبته نشوة آثمة!

تحسس سرير الإمارة، ثم جلس ورجع بجسمه إلى الوراء ومد ساقيه وبسط ذراعيه، حتى سمع حركة ولده عبد الرحمن يدخل عليه، فاعتدل في جلسته فوراً، بينما تلا ولده قول الله تعالى: (وإن يردك الله بضر فلا كاشف له إلا هو. وإن يردك بخير فلا راد لفضله. يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم).

علّق يوسف قائلاً:

- صدق الله. ولكني ما زلت أجهل: هل هي من الضُرِّ الذي لا كاشف له إلّا الله، أم هي خير أرادنا الله به، فلا رادَ لفضله؟

صمت لحظات متأمِّلاً، ثم أعقب:

- إلّا أنها لا تسلم من الضرّ والإثم مع سطوة الصميل بن حاتم.. رجل لا يميّز كلام الله من غيره.. أعرابي غليظ القلب، كأنه خرج من توّه من الصحراء، ولم يعرف من الإسلام إلّا أنه فتوح وأمصار جديدة وغنيمة عظيمة وتوسّع في حمى القبيلة.

قال عبد الرحمن مواسياً:

- هكذا الناس، يتفاوتون في الخلق والغاية والمطلب، تعرف منهم وتنكر. وقد تجتمع عندهم الغايات بين مطلب الدنيا ومطلب الآخرة، فيغلب هذا على ذاك أحياناً، وذاك على هذا أحياناً أخرى. ولكن، لا معدى عن مخالطتهم والصبر على أذاهم، وإلّا فليلتمس أحدنا لنفسه رأس جبل فينقطع به عن الخلق.. وأن يكون رجل مثلك هنا يا أبتِ، يطلب خيرها ويخشى ضُرّها، خير من أن يجلس مكانك من لا يعلم كلام الله كالصميل.

هزّ يوسف رأسه متأمًّلا، ثم قال:

- نعم.. صدقت.. ولكن إن كنت قد قبلت العودة إلى الإمارة، فعليّ منذ الآن أن أنهض بحقها، غَنْماً أو غُرْماً، رَغَباً أو رَهَباً، فأكون الأمير على الحقيقة، لا بالاسم والرسم فقط.

رمقه ولده متمعناً مستطلعاً، ثم قال:

- وكيف تفعل بالصميل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منزل الصميل، قال ولده جوشن:

- لا والله ما ولّاك سرقسطة في الثغر الأقصى، إلّا ليقصيك عن دار الحكم في قرطبة، فينفرد دونك بالحكم وقد ذاق حلاوة الإمارة.

قال الصميل:

- نعم، وأكثر.

تعجب جوشن وأخوه هذيل الذي كان حاضراً، حين رأوا أباهما يبتسم دون أن يبدو عليه شيء من الغضب على الرغم من تأييده لرأي جوشن. وتابع الصميل:

- سرقسطة معقل اليمنيّة، وقومنا هناك في قِلّة. فقد أراد أن يضربني بهم، فلعلهم يصيبون مني غرّة فيهلكونني بثارات شقندة.

ازداد جوشن تعجباً وسأل:

- وتدعه يفعل ذلك بك وأنت عليه قادر، دون أن تضرب هامته؟

قال الصميل بهدوء غير معهود في مثل هذه الظروف:

- بل نطيع أميرنا.

واتسعت ابتسامته الماكرة الواثقة، وأردف:

- هو أراد أمراً، وأنا أردت غيره. اختلف الغرض واتفق الرأي.

ثم تحوّل إلى لهجة أكثر حزماً:

- هو أراد أن يضربني باليمنيّة، وأنا أريد أن أضرب اليمنيّة بي حتى أطفئ ما بقي لهم من جمر خبيء تحت الرماد، إلّا أن يُذعنوا إذعان اليائس.. هل ظننت أني أفوّت على نفسي هذه الفرصة؟ وأي شيء أشدّ نكاية بهم من أن أصير والياً عليهم في عقر دارهم؟

ثم اقترب من ولديه وغمز قائلاً:

- ثم إن سرقسطة أغنى بلاد الأندلس. وحين يصيب القحط سائر الأندلس، تبقى سماؤها ماطرة، وأرضها ممرعة، وريع خراجها أضعاف ريع المدن الأخرى. لقد أهداني يوسف جنةً من حيث أراد أن يوردني الجحيم.. وأنا رجل لا أحب الخمول.. ثم إذا انقضت حاجتي من سرقسطة، عدت إلى قرطبة أقوى وأغنى، وألزمته حدّه، وشَرَكْتُه بالأمر على رغم أنفه.

تلك هي الأندلس التي سيقدم عليها ذلك الأمويّ الشارد من أهوال في المشرق تشيب لها الولدان، فينزلها وحيداً إلّا من خادمه، ليلتقي مرة أخرى بالصميل الذي رآه قبل سنين في قصر جدّه بالرصافة مأموراً وتابعاً. ولكن الزمان سيكون غير ذلك الزمان، بل هو الآن قد بدأ في خراسان. وإذا كانت الأندلس قد شهدت من الحرائق التي أشعلها الصميل ما سيبقى مشتعلاً في النفوس بعد انطفائه في خارجها، فإن ذلك كله سيبدو ضئيلاً مقارنةً بالمشرق، ويبدو الصميل من ملائكة الرحمة قياساً بأبي مسلم الخراساني الذي كان قبل سنين فقط: إبراهيم بن ختكان، غلام السرّاجين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كان أبو مسلم قد نقل معسكره إلى قرية «ماخوان» القريبة من مرو الشاهجان، عاصمة خراسان، بعد أن ضاق معسكره الأول عند قرية سفيذنج بمن انضم إليه، وخندق عليه كما فعل مع الأول. ثم وصلته الأنباء، من طائفة العيون التي اصطنعها لنفسه سرًّا دون علم نقباء الدعوة ونظرائها الآخرين، وبثّها بين الناس، دون أن يستثني من عملها أهل الدعوة أنفسهم، بأن والي خراسان في مرو الشاهجان، نصر بن سيّار، وقد يئس من وصول الأمداد من العراق والشام، قد دعا إلى لقائه نفراً من شيوخ ربيعة واليمنيّة الذين كانوا من أشد خصومه والناقمين عليه لأنه أخرهم ونكل بهم، وقدّم قومه المضرية، وذلك ليصالحهم على أبي مسلم والمسوّدة، ومنهم ثلاثة سبق أن توصّل إليهم أبو مسلم وحالفوه على النصرة والخروج معه، وهم عليّ بن جديع الكرماني، الذي قتل نصر بن سيار أباه من قبل، ويحيى بن نعيم، وشيبان بن سلمة الذي كان زعيم الخوارج الحرورية في العراق، وحين استباحت جيوش بني أميّة عسكره، لجأ إلى خراسان وانضم إلى أبي مسلم.

وكان مما خاطبهم به نصر بن سيار:

- انظروا هذا الرجل، أبا مسلم، وعامة من تألّب معه.. أخلاط من أوباش الناس وشرار العجم. وجلّهم من قوم يكرهون العرب ويرجون بوارهم ويحنّون إلى مُلك الأكاسرة.. غرباء مجهولون ودخلاء مغمورون لا ينتمون إلى العرب المذكورين ولا إلى الموالي المعروفين.. لا هم بالمسلمين ولا الكتابيين، يعتنقون نِحْلةً مخالِفة لكل الأديان. ولا والله ما لهم غاية غير إبادة العرب.. ولقد كان بيننا الذي كان، غفر الله لنا. ولكن أبا مسلم وطغمته إذا تمكنوا فلا والله لا يفرقون بين مضريّ وربَعي ويمنيّ. وما بأعاجمهم، وهم الكثرة، إلا أحقاد كسرويّة وثأر مقيم منذ القادسية. فإن لم تجمعنا الآن المودّة، فليكن جامعنا الخوف على دمائنا، ثم إذا استأصلنا هذا الشرّ، فلكم عندي أن أنزل عن ولاية خراسان، لتختاروا لها من ترضونه.

وما زال بهم حتى أقنعهم بالانصراف عن أبي مسلم والانحياز إليه. وسرى له شعر بتلك المعاني، كما تسري النار في الهشيم.

أبْلِغ ربيعةَ في مَرْوٍ وإخوتهم

فليغضبوا قبل ألّا ينفع الغضَبُ

ولينصبوا الحربَ إنّ القوم قد نَصَبوا

حرباً يُحَرَّق في حافاتِها الحَطبُ

ما بالكم تلقحون الحربَ بينكمو

كأن أهل الحجا عن فِعلكمْ غُيُبُ

وتتركون عدوًّا قد أحاط بكم

فيمن تأشّب لا دينٌ ولا حَسَب

لا عَربٌ مثلكم في الناس نعرفهم

ولا صريح موالٍ إنْ هُمو نُسِبوا

من كان يسألني عن أصلِ دينهمو

فإنّ دينَهمو أن يُقْتَل العربُ

ذروا التفرّق والأحقاد واجتمعوا

ليوصَلَ الحب والأصهار والنَّسَبُ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم دعا إليه جماعة من شيوخ الفقهاء والنسّاك والعُبّاد الذين اعتزلوا الفتن.. فاتهم أمامهم عقائد المسوّدة، وأن بينهم أخلاطاً من أهل العقائد الفارسية القديمة: مجوسية ومانويّة ومزدكيّة. ودعاهم إلى البراءة منهم وبث ذلك في الناس الذين يُجلّونهم ويصدقونهم، حتى ينفض عنهم كل ذي دين وتتقمع ضلالتهم قبل أن تذهب بيضة الإسلام.

وحين فرغ، نظر في وجوههم يترقب الجواب، حتى قال كبيرهم:

- إن صحّ ما تقوله، فنحن أول من يرفع معك السيف، وندعو الناس إلينا بما عهدوا عنا من صحة العقيدة والانقطاع للعبادة والدرس. ولكن، لا نفعل حتى نتيقّن بالبيِّنة الواضحة.. وإلّا عدنا إلى اعتزالنا.

كل ذلك بلغ أبا مسلم عن طريق عيونه، وكان أشدّها عليه الكلام مع الفقهاء والعُبّاد. وكان ذلك قد سرى بين جنده حتى تهامس به الكثيرون من أهل الغيرة على الدين. وكان أبو مسلم قد ضمّ حقاً إلى جماعته قوماً من المزدكيّة، ولكنه كما أظهر لم يفعل حتى قبلوا منه الإسلام أولاً، وصاروا في جملة المسلمين. ولذلك وجد التعريض بالعقائد صدى في صفوف العامة في معسكر أبي مسلم. وتساءل البعض عن مدى صدق أولئك المزدكية في دخول الإسلام مع دخولهم مع أبي مسلم، وقد صبروا على عقائدهم كل تلك السنين منذ الفتح. وقال بعضهم لبعض: «قد خرجنا في هذه الدعوة انتصاراً للعدل الذي يدعو إليه الإسلام، فلا نريد أن يكون حالنا كالمستجير من الرمضاء بالنار».

أما انصراف أولئك النفر من شيوخ الربعية واليمنية عنه إلى عدوّهم السابق نصر بن سيّار بعد أن حالفوه على النصرة، فأسرّها أبو مسلم في نفسه على دَخَن. وأما الكلام في عقائد القوم، فهي داهية الدواهي التي لا يمكن التريّث في علاجها، وإلّا اضطرب القوم من حوله وتغيّرت نفوس الكثيرين.

وعلى ذلك أمر عيونه أن يقيّدوا أسماء من تحدث في الأمر في معسكره، أو أظهر شكًّا. فهؤلاء، كما قال، هم العدو الأول، فإن لم يخونوا حتى الآن، فقد يخونون بعد حين، لِما ظهر من ضعف نفوسهم واستعدادهم لسماع الأراجيف. ولكنه آثر ألا يظهر لهم الآن شرًّا حتى يدخل مرو، ويحوز خراسان،

ويقضي على نصر بن سيّار وأشياع بني أميّة، فإذا تمّ له ذلك تحوّل إلى داخل الدار لينخل قمحها وشعيرها، فلا يبقى مع الحبّ رمل ولا حجر!

هكذا تحدث أبو مسلم الخراساني مع عيونه.

وبعد أيام نادى في معسكره أن يجتمع الناس إليه، فبرز لهم مع عدد من نقباء الدعوة في مقدمتهم سليمان بن كثير، وخطب فيهم:

- يا معشر المسلمين، بَلَغَنا أن نصر بن سيّار جمع قوماً فأخبرهم بأنكم على غير دين المسلمين، وأنكم تستحلّون المحارم، ولا تعملون بكتاب الله ولا سنّة نبيّه -صلّى الله عليه وسلم-، يريد بذلك ليطفئ نوركم، ويؤلِّب الناس عليكم. وقد كان الإمام أقرّنا وتوالت كتبه علينا أن ندعو الناس إلى كتاب الله وسنّة نبيه والعمل بذلك، وإظهار العدل، وإنكار الجور، ودفع الظلم عن الضعفاء، وأخذ الحق من الأقوياء. أيها الناس، هل يشك أحدكم في دين أبي محمد، سليمان بن كثير، وهو المعروف لديكم، والمقدَّم فيكم؟

وأشار إلى سليمان بن كثير، وارتفعت الأصوات:

- اللهم لا.

ثم تحوّل إلى سليمان ومدّ له يده وقال:

- خذ بيعتي يا أبا محمد عن الإمام على الذي ذكرنا من عهده.

أخذ سليمان بيده، وقال بصوت مسموع:

- عليك عهد الله وميثاقه لتَفينَّ بما أعطيتَ من نفسك.

قال أبو مسلم:

- اللهم نعم.

ثم تتابع سائر النقباء وكبار أهل الدعوة على سليمان يأخذ منهم البيعة للإمام باللفظ نفسه. وعلت أصوات الشهود مُكبِّرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سُقِط في يد نصر بن سيّار، وأخفق تدبيره ذاك، إذ انصرف عنه أولئك الفقهاء والنسّاك، ورجعوا إلى عزلتهم. وكان الخليفة مروان بن محمد قد كتب له أن مدد ابن هبيرة، والي العراق، في الطريق، وأن عليه أن يصبر حتى يصل، ولكنه قدّر أنه إذا صبر فلن يصبر عنه أبو مسلم. وخشي إذا تطاول الأمر أن ينفضّ عنه ذلك النفر من الرّبعية واليمنية الذين صالحهم بعد عداوة طويلة لا سيما: عليّ بن جديع الكرماني، وشيبان بن سلمة اليشكري الحروري، ومن معهم من المقاتلة. فحزم أمره على التعجل في لقاء أبي مسلم، والله غالب على أمره.

تصافَ الجيشان لأول مرة. وكان نصر بن سيّار على رأس القلب من جيشه، وعليّ بن جديع على رأس قطعة من قومه ربيعة، وشيبان الحروري على رأس قطعة من جماعته الخوارج.

وفي المقابل رُفع لواء الإمام ورايته لأول مرّة في نزال. وكان أبو مسلم على القلب، وسليمان بن كثير على قطعة أخرى تقابل قطعة عليّ بن جديع.

وقبل أن يبدأ التزاحف فالصدام، رأى الفريقان سليمان بن كثير يتقدم وحده بجواده حتى صار على بُعد مسافة مسموعة من عليّ بن جديع، وناداه:

- يا عليّ بن جديع، أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل بالأمس أباك غدراً وصلبه حتى تساقط لحمه على مرأى من الناس؟ ما كنت أحسبك تجتمع به في مسجد تصلّيان فيه. منذ متى يُسقِط العربي دم أبيه ويخون ذمّته ميتاً؟ والله لو كان يراك الآن لتبرّأ منك، ويحك كيف تحكم؟ ونحن الذين تعهّدنا لك بالنصرة على عدوّك والثأر لأبيك، ولم ننقض لك عهداً، فأين عهد الله وميثاقه؟ كيف تنظر بعدها في وجوه قومك، وكيف يسوّدونك عليهم وقد خُنْتَ أباك؟

وقعت كلمات ابن كثير في نفس علي بن جُدَيع، وانقبض وجهه انقباضاً شديداً، ونظر الجميع مترقبين، ثم سُمع اضطراب في قومه الربعيّة. التفت ابن جديع إلى جماعته فرآهم ينظرون إليه شزراً ولوماً وهم يتململون على خيولهم، ثم بدأوا بالانسحاب تباعاً دون إذنه، فلم يملك إلا أن يلحق بهم. ثم أدركه شيبان الحروري وقال:

- ما بك! فعل كلامه في نفسك؟ لقد أعطينا نصراً عهدنا.

قال علي بن جديع:

- لا عهد لقاتل أبي. قَتَلَنا وهو في عافية، وصالحنا على خوف وضرورة. وقد أخطأنا حين أعطيناه ونزعنا أيدينا من يد أبي مسلم، وهو أولى بالعهد الذي سبق منا إليه. وإن شئت النصيحة، فافعل مثلي، واذكر مقاتل رهطك على أيدي بني أميّة..

تدافع الناس على الانسحاب من جيش نصر، ووقع فيه اضطراب شديد، وانخذلت نفوس أصحابه. ولما يئس من الموقف، وأدرك أنه لم يعد في حال يستطيع معه القتال، أمر جيشه كله بالانسحاب.

كان أبو مسلم يرقب ذلك كلّه ويبتسم ابتسامة الظفر، وتعجّب كبار أصحابه أنه لم يغتنم الفرصة فيأمر باللحاق بهم، ولما سأله لاهز عن ذلك قال بهدوء وثقة:

- اصبروا. لا تتعجّلوا الثمرة وقد دنا قطافها.

في دار الإمارة في مرو الشاهجان، بدا نصر شديد اليأس، وقال في أصحابه:

- قُضي الأمر. الآن نتودّع من ملك بني أميّة، وقد بلغت جهدي وأبرأت ذمّتي.

قال أحدهم:

- تعني أن تَسلم له؟

أجاب:

- إذا قَبِل منّي بالأمان.

هنا دخل صاحب بابه وقال:

- لاهز بن قريظ يا سيدي، رسولاً من أبي مسلم.

هَبَّ نصر من مقعده وقد أخذته الدهشة، وابتدره لاهز بالسلام فقال:

- قدَّمتَ بالسلام ونحن في حرب!

قال لاهز:

- تجنّبها إن شئت، فتأمن على نفسك ومالك وولدك.

- أبهذا جئت؟

هز لاهز رأسه واستأنف:

- يقول لك أبو مسلم: إني رجل أدعو إلى الرضا من آل محمد. ولست أعرض لكم إن وادعتم وتنحيتم، وتركتمونا ندخل مرو الشاهجان دون مقاومة، وانزويتم مع أصحابكم عنا.

كان يوماً عظيماً لم تشهد مرو الشاهجان ولا خراسان كلها له مثيلاً من قبل، حين دخل أبو مسلم المدينة على رأس المسوّدة، وبين يديه اللواء والراية. بينما كان الهتاف المدوّي يبلغ عنان السماء: «يا محمد. يا منصور». ورُفِعت الرايات السود على الأسوار، وعلى دار الإمارة التي ما لبث أبو مسلم أن وصل إليها يحيط به كبار أهل الدعوة وعلى رأسهم سليمان بن كثير. وحين دخل مجلس الحكم أجالَ بصره في المكان، قبل أن يتوجه إلى سرير الإمارة ويجلس عليه مزهوًّا، بينما كان الهتاف يتتابع عالياً من الخارج. وما هي حتى برز أبو مسلم في منظرة القصر المطلّة على الحشود، ومعه أصحابه الكبار. وهنا اشتدت الهتافات بشعار الثورة «يا محمد، يا منصور»، ورفع أبو مسلم ذراعيه عالياً يحيّي الجموع الهادرة، وبدا أنه قد خرج لهم من كتب الملاحم الكبرى القديمة. وما لبثت الهتافات أن تحوّلت إلى كنيته التي ستدخل في ذاكرة الأيام محوطة بالحقائق والأساطير والإعجاب والبغض والحيرة فيه:

- أبو مسلم.. أبو مسلم.. أبو مسلم..

وعلى الرغم من نشوة النصر الأول العظيم، انقبض وجه سليمان بن كثير انقباضاً شديداً وهو يسمع تحوّل الهتاف إلى أبي مسلم بعينه، وتبادل مع لاهز بن قريظ نظرة غامضة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين دخل على زوجته جلنار وقد لحقته إلى دار الإمارة، أقبلت عليه وقالت بلهجة تجمع بين الإعجاب والفخر والتودد:

- سيدي صاحب خراسان! أخيراً يا أبا مسلم، دار الإمارة.. وزوجي وحبيبي صاحبها.. وأنا جلنار صاحبة الرجل الكبير. من كان يصدّق هذا؟

قال وهو يحدّق بها محافظاً على جمود ملامحه:

- حقًّا! من كان يصدّق هذا؟

انكسف وجهها قليلاً وقد أدركت أنه يعرّض بموقفها منه أيام كان غلاماً للسرّاجين، واستأنف:

- ولكن، أنا صدّقته! ولو أني لم أصدّقه قبل وقوعه، لما كنت هنا الآن. أصحاب الأحلام الصغيرة هم الذين لا يصدّقون أنهم أهل للأمر العظيم.. والأنكى أن ينكروا على غيرهم طلبهم للغاية البعيدة، فلا يَرَوْا منهم إلّا حاضر الحال، لا القدرة الكامنة على المآل، وكأنّ أول أمر الإنسان كآخره. فإن نشأ في دكاكين السرّاجين عاش ومات سرًّاجا، ولم يكن حظّه من بنات الأعيان والتجار إلّا الصدّ والردّ والهزء والسخرية.

أطرقت لحظة، ثم نظرت إليه بوجه كسيف، وقالت:

- تالله ما غفرتها لي أبداً، وما تزوجتني إلّا لتذلّني.

ثم تقدمت نحوه حتى صارت قريباً منه وقالت فيما يشبه التوسّل:

- كيف يمكن أن أنسيك إياها يا سيدي؟ كيف السبيل إلى قلبك وعقلك؟ هاأنذا زوجك ومملوكتك، وأنا طوع أمرك.. وكيف كان بوسع فتاة غريرة لم تبلغ السادسة عشرة أن تنظر في وجه فتى من السرّاجين لم تعرفه ولم تطّلع على سريرته، ولم تختبر عقله وموهبته، كيف كان لها أن تدرك مآله وآخر أمره. وهل كل غلام من السرّاجين يصير أبا مسلم؟ وهل تتّسع الدنيا لغير أبي مسلم واحد؟ وكيف ينفرد أبو مسلم بصفته دون الناس؟

بقي جامد الوجه مشيحاً عنها، حتى إذا يئست من أن يلين لها قلبه، مشت لتخرج، وحين بلغت الباب الداخلي سمعته ينادي باسمها. التفتت إليه لترى أن أساريره قد انفرجت قليلاً، وقال بنبرة أكثر ودًّا:

- ألا تقدّم الزوجة المحبة لزوجها شراباً؟

انبسط وجهها بالسعادة، وأسرعت تصُبُّ له الشراب:

- خير الشراب لأمير خراسان، وصاحب دولة بني العباس.

قال وهو يتناول منها الكأس:

- لم تقم الدولة بعد، ولم تستقم لنا خراسان كلها.. مرو الشاهجان ليست كل خراسان.. وحتى مرو، لا تصفو لنا حتى لا يبقى فيها رجل من أنصار بني أميّة.. المضريّة أولاً، ثم غيرهم.

وتجرّع الكأس مرّة واحدة، حتى سالَ الشراب الأحمر على لحيته.

وصل رئيس الدعوة أبو سلمة الخلّال من الكوفة للقاء أبي مسلم في مرو الشاهجان، ليدبّرا معاً المرحلة التالية من الثورة، وانحدار المسوّدة إلى العراق والكوفة. واستقبله أبو مسلم استقبالاً حافلاً خارج المدينة. ولماخلا به في دار الإمارة، قال أبو سلمة:

- تمنيت لو كنت معكم حين دخلتم مرو.

قال أبو مسلم:

- كنت معنا.. كنت معنا.

- لم تخيّب ظني بك ولا وصايتي بك عند الإمام.

- كيف أخيّب ظنك يا أبا سلمة، وأنا بعض صنائعك؟

- لا تقل هذا يا أبا مسلم، إنما كنت أنصح لنفسي حين نصحت بك، فقد رأيت فيك سمة النبوغ.

جاءه أبو مسلم بكأس من الشراب بنفسه، فقال أبو سلمة:

- لا تخدمني وأنت الآن صاحب خراسان.

- وأنت ما تزال كبير الدعاة الذي أعمل بإرشاده ووصاياه.

- النبوغ.. القوة.. رأيتهما فيك منذ وقعت عيناي عليك عند الإمام، وسمعت كلامك.

قال أبو مسلم بلهجة موحية:

- لم يكن هذا رأي غيرك بي.

- ذلك لأنهم لم يؤتَوْا البصيرة والفراسة.. النبوغ والقوة هنا..

دقّ على صدره، وتابع:

- لا يُدْرَكان بالنظر إلى ظاهر الرجل.

- لا يدركهما إلا من كان له مثلهما، أو أكثر.

- ما ظنّ سليمان بن كثير بك الآن؟

- لا يزداد تقديراً لي، إلّا بقدر ما يزداد حسداً. أرى ذلك في عينيه وإيماءاته.

- وهكذا حال الرجال يا أبا مسلم.

- ولعلي أضيف: وبقدر ما يزداد مني خوفاً.

- وبالخوف ينتصر الرجال على الرجال.

- ومهما يكن في نفسه مني، وفي نفسي منه، فإنه يستحق مني الشكر على كل حال.

سأل أبو سلمة متعجِّباً:

- الشكر؟

أجاب أبو مسلم:

- ما حقّرني رجل.. أو امرأة، إلّا زادني عزيمة، وأعطاني سبباً إلى سبب، لأكون ما أريد، وأريد ما يجب أن أكون، حتى إذا ظهرتُ عليه وصرت فوقه، كان أعظم متعتي أن أنظر في وجهه وعينيه، لأرى خليطاً من الإجلال والحسد والخوف.

ثم سأل:

- كم تمكث عندنا يا أبا سلمة؟

أجاب:

- بضعة أيام فقط، نرتب فيها خططنا التالية معاً.

قال أبو مسلم مؤكداً:

- دائماً معاً.

احتسى كل منهما من كأسه، ثم سأل أبو مسلم:

- الآن وقد حزْنا مرو، ما الرأي فيمن خالف الدعوة ولم يدخل فيها؟

قال أبو سلمة بنبرة قاطعة:

- ضع السيف وانتصر بالرعب.

ابتسم أبو مسلم راضياً وقال:

- الحمد لله الذي جعل رأيك موافقاً لرأيي.

قال أبو سلمة:

- ألم نقل: معاً؟

- نعم، معاً.

ثم دقق أبو سلمة النظر في صاحبه وقال مبتسماً:

- ترى لو كان رأيي مخالفاً لرأيك.. ماذا..؟

سبق أبو مسلم بقية كلامه بالجواب:

- لو شككت لحظة أن رأيك لن يوافق رأيي، لسكتّ عن السؤال، وعملت برأيي قبل أن أعرف رأيك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن ارتحل أبو سلمة عائداً إلى الكوفة، حتى مضى أبو مسلم في خطته، فجمع كبار رجال الدعوة، وفيهم سليمان بن كثير، ولاهز، ومالك بن الهيثم، وقحطبة بن شبيب الذي عاد إلى مرو من لقاء الإمام في موسم الحج، وخطب فيهم قائلاً:

- ما زال أمامنا طريق طويل، أوله هنا، وآخره البيعة للإمام في الكوفة، ثم استئصال بني أميّة وأنصارهم في سائر أمصار الخلافة. ولكن، لا قِبَل لنا بأوسط الطريق وآخره، حتى نوطّئ أوله.. أعني هنا خراسان. ودخول مرو هو أهون الأشواط، وأخطر منه الحفاظ عليها والتمكين لدعوتنا ودولتنا. وهذا لا يتم إلّا بالقضاء على أنصار بني أميّة في هذه الديار قضاءً مبرماً لا هوادة فيه ولا رحمة.

ثم استدرك قائلاً:

- بلى إنه في باطنه رحمة، وإن كان في ظاهره العذاب. نقتل الظلمة لندفع عن المظلومين، ونقطع أسباب الفتن قبل وقوعها فنحمي بذلك من يمكن أن تأكلهم بنارها، ونضع السيف في رقاب أهل الشك والريبة، لنحفظ يقين أهل اليقين. وبذلك جرت سنن الأولين الذين قوّضوا دولة وأسسوا دولة. فليس من طبائع الناس أن يبيتوا على حال، ثم يصبحوا على ضدّها، لأن دولة الأمس قد ذهبت، وقامت دولة اليوم. بل يبقى من الماضي ما يقيم في بطن الحاضر، فإن لم يسرع أصحاب الدولة الجديدة إلى الحجامة والفَصْد لإقصاء الدم الفاسد، واستبقاء الدم النقي، فما يلبث أن يعود الجسم إلى فساده، وتذهب الجهود سدى. وقد علمتم وصية الإمام لي بأن أقتل كل العرب والخراسانية المخالفين للدعوة. وقد سكنوا الآن في مرو بعد أن تنحّى عنها نصر، ولكنه السكون على دَخَن، والدَّخَن يبطن ناراً، وأنا مطفئها بأمر الإمام إن شاء الله. وفي حال الدعة والتمكين، لا يؤخذ الناس بالظنّة. أما في أول أمر الدولة، وهي ما تزال غضة هشّة، يتربص بها العدو الكامن، فلا بد من ذلك، قبل أن تتحوّل الظنون إلى يقين، فيقع الدمار والبوار.. إذن هو السيف لقيام الدول، وفصد الدم لدواء العلل، وليَعْلَمنّ الذين ظلموا أيّ منقَلب ينقلبون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شهدت مرو وخراسان في الشهور التالية مقاتل عشرات الألوف من الناس، أخِذوا من بيوتهم أو طوردوا، ثم وُضِع فيهم السيف بلا رحمة. فالمقلّل من عدّد مائة ألف، والمكثّر عدّد ست مائة ألف. وما كان لأحد أن يحصي. فمنهم من جُمِع في الساحات، وقُدِّم للقتل على أعين الناس، ومنهم من سُحِل حياً وقد رُبِط بالخيل تجوس به خلال الطرقات، ومنهم من صُلِب على جذوع النخل والأعمدة في الساحات وأمام الأسوار وفوق الأسوار. كانت رائحة الدم تزكم الأنوف، وغمامة الموت السوداء تتمدّد في المدن والقرى والشعاب وتملأ القلوب رعباً. نعم، بدأت فترة الرعب الذي لن يتوقف عند بني أمية وأنصارهم، حتى يأكل الكثيرين من رجال الدعوة أنفسهم.

فما إن فرغ أبو مسلم من قتل أنصار بني أميّة، حتى تفرّغ لأبناء الدعوة الذين تهامسوا من قبل فيما وقع في نفوسهم من التّهم التي أشاعها نصر بن سيّار عن عقائد القوم وبُغضهم للعرب، ودوّن عيون أبي مسلم أسماءهم. وقد آن أوان الحساب، فأمر أبو مسلم جنده بالتقبض عليهم وجمعهم في ساحة خارج مرو، وهم يصيحون احتجاجاً وخوفاً. ثم برز لهم أبو مسلم بنفسه، فصاح صائحهم:

- ألم نبايعك يا أبا مسلم على السمع والطاعة، ولم نغيّر. فلِمَ نُعامَل معاملة العدو؟ ما الجُرم الذي ارتكبناه؟

علا الصخب والضجيج بينهم، حتى رفع أبو مسلم يده فسكت القوم ونظروا مترقّبين. صاح بهم أبو مسلم:

- لا مكان في دعوتنا للمترددين والمتشككين والذين ينصتون إلى الأراجيف. هؤلاء أخطر عندي من العدو الصريح.

ثم أشار إلى أحدهم:

- أنت؟ ألم تجتمع ببعض أصحابك حين شنّع علينا نصر بن سيّار، وأشاع أراجيفه في عقيدتنا، فتذاكرتم في الأمر، وكدتم تنكصون حتى ظهر الحق؟

قال الرجل بصوت مرتجف:

- كما قلتَ يا سيدي. قد ظهر لنا الحق فلم ننكص.

قال أبو مسلم:

- ما يدرينا أنك لا تنكص غداً، فإن النفوس الضعيفة تتقلب بين الليل والنهار.

ثم اتجه إلى رجل آخر وقال:

- وأنت؟ ألم تبِح لأحد أصحابك أن في نفسك حاجة من أبي مسلم، وأنك تخشى أنني أبطن المزدكيّة أو المجوسيّة، وأظِهر الإسلام؟

اضطربت ملامح الرجل وزاغت عيناه، فصاح به أبو مسلم بصوت مُدَوٍّ:

- قل، ألم يحدث هذا؟

قال الرجل:

- والله ما كان معنا ثالث. فكيف علمتَ يا سيدي؟

قال أبو مسلم:

- ألم تعلموا أني أعلم ما يتناجى به بعضكم، وما يبيّت في ليله أو نهاره وما ينطق من قول، وما يُظهِر من مَيْل؟

ثم اتجه إلى ثالث:

- وأنت، ألم تبح مرة لبعض أصحابك أنك تخشى أن أكون مُبغِضاً للعرب على الجملة، وأن أعمل لغرضي لا لغرض الدعوة والإمام.

ثم توجه إلى الجميع:

- هل أذكر لكل منكم ما وقع منه، حتى صار الآن إلى هذا المكان.

قال أحدهم:

- إنما هو كلام عابر يا سيدي، وقد يعرض للإنسان في صلاته ما يصرفه عن الخشوع والتدبر ثم يتوب. وقد ينزغ الشيطان في الإنسان نزغة ليوقع في قلبه الريبة، ثم يستغفر ويتوب. ولذلك لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله.

قال أبو مسلم:

- أما حكم الله تعالى فلله تعالى. هو أدرى بالقلوب، ويُبْعث كل إنسان على نيّته. أما نحن فلنا من الناس ظاهرهم وما ينبئ عن طويتهم. وقد أُمرت أن أقتل كل مرتاب. وقد وقع منكم الارتياب فينا، فوقع منا الارتياب فيكم. قُضِيَ الأمر.

أشار للحرس، فشهروا السيوف استعداداً للمذبحة، وهتف رجل:

- الرحمة يا أبا مسلم.

قال:

- رحمك الله.

ومضى مبتعداً بعد أن أعطى الإشارة، ولم يلتفت إذ كان يسمع صراخ الضحايا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فاقت قسوة أبي مسلم ودمويته الحدّ الذي يرضاه سائر النقباء في خراسان، على ما كان فيهم من قسوة. وتناجوا في الأمر، ثم راجعوا أبا مسلم فيمن أمَر بقتلهم من أهل الدعوة، ولم تقم عليهم بيّنة الخيانة، ولم يراجعهم فيهم ولا عرضهم على مجلس قضاء، فينظر ويقضي فيهم. وكان ردّ أبي مسلم غليظاً وقاطعاً، فقال:

- هذا يكون ونحن في دعة وعافية وسلامة، أما في زمن الثورة وانتقال الدول فلا سعة. وأنا أنفذ وصايا الإمام، وأنا صاحب الدعوى والبيّنة، وأنا الخصم والحكم في الوقت نفسه.

وحين خرج القوم من عنده، همس سليمان بن كثير للاهز بن قريظ:

- ألا تشعر أن أحداً ما يراقبك، ثم تتلفت فلا ترى أحداً؟

قال لاهز:

- دعك من هذا يا أبا محمد.. لا يبلغ أن يبث العيون علينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج أبو مسلم في ثلة من حرسه، يشيّع عليّ بن جديع الكرماني الذي انتدبه لمهمة في نيسابور. وفي موضع ما خارج مرو الشاهجان توقف أبو مسلم ليودّع الرجل، فقال:

- سنذكر لك دائماً بلاءك معنا في مناهضة نصر بن سيّار يا عليّ. فلولا خروجك من جيشه حين تصافّ الجيشان، بعد أن دعاك سليمان بن كثير إلى ذلك وذكّرك بمقتل أبيك وصلبه على يد نصر، لما اضطر نصر إلى الانسحاب وكفانا حربه. ولولا حاجتنا لك في نيسابور الآن لاستبقيناك عندنا في مرو لتكون صاحب الرأي والمشورة. ولكن إذا انقضت حاجة نيسابور ورجعت إلينا لتجدنّ عندنا ما يليق بمنزلتك فينا وفي قومك. أما خاصتك الذين سمّيتهم لنا، فقد دوّنا أسماءهم حتى نستعملهم ونأمر لهم بجوائز وكِسىً جزاء ما قدّموا معك لدعوتنا.

قال عليّ:

- بارك الله بك يا أبا مسلم. والحمد لله الذي ردّني إلى الحق بعد أن كدت أزيغ عنه. فقد غرّنا ذلك الفاسق نصر بن سيّار بكلامه وشِعْره، وخوّفنا أنك لا تروم إلّا قتل العرب جميعاً، مُضريَّهم وربَعَيّهم ويمنيّهم. فلما سمعت كلام سليمان بن كثير، فكأنها كانت غمامة وانقشعت من رأسي. فالحمد لله على المآل.

قال أبو مسلم:

- نعم.. وكان من أثر ذلك أن دخلنا مرو بلا حرب، فكل هذا منسوب إليك، تستحق معه أحسن الجزاء، وخير البرّ عاجله.

وأشار أبو مسلم إلى الحرس آمراً، وهو يتنحى بفرسه:

- أعطوا عليًّا بن جديع جائزته.

وعلى حين غرّة تحرك الحرس فجذبوا عليًّا عن جواده وأوقعوه أرضاً، ثم انهالوا عليه بالسيوف حتى خمدت حركته.

نظر أبو مسلم إلى جثته بازدراء، وركله بقدمه وقال:

- من خان مرَّة خان غيرها. ولا والله ما رجع إلى عهدنا معه إلا أنه رأى جمعنا ورجح هزيمة نصر، فطمع أن يكون قسيمنا في خراسان مع قومه الرَّبَعيّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على مائدة الطعام أخذ يحدِّث زوجه جلنار بما فعل بعلي بن جديع، فقال:

- لو رأيت وجه المسكين حين أحاط به الحرس. ما أعجب ما يقع للإنسان حين يرى موته بعينيه.. تدور عيناه في محجريه، وينقبض وجهه، ويربَضّ لونه، وتجف شفتاه.. كل ذلك في لحظة واحدة فقط. أتمنّى أحياناً أن أدخل في نفسه لأعرف ما الذي يدور فيها تلك اللحظة. كيف يرى الناسَ والأشياء.. كيف يسمع الأصوات.. لحظة واحدة كلمح البصر.. هو الآن حيّ.. ما زال في الدنيا.. ثمّ..

فَرْقَع بإصبعيه وتابع:

- ينقطع حِسّه، وتشخص عيناه.. أحياناً يخيّل إليّ أنه ما يزال يعقل مثلما كان يعقل قبل لحظة.. وأحياناً يخيّل إليّ أنه، على العكس من ذلك، قد مات قبل أن يموت.. لا أدري.. ولكني لا أملّ من تأمل المنظر.. أحسب أن أحدنا لن يدرك هذه الأمور حقّ الإدراك، إلّا أن يختبر الحال بنفسه.

ثم ابتسم وأردف:

- وهذا ما نتجنّبه على الرغم من إغرائه!

في أثناء كلامه، كانت جلنار تسمع وتحدِّق فيه وقد بدا عليها الامتعاض والخوف، وتوقفت عن تناول الطعام، بينما تابع أبو مسلم تناول طعامه، حتى تنبّه لتوقفها ووجومها، فسأل:

- ما بالك لا تأكلين؟

قالت:

- أخذت كفايتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- نعم، لقد أعطينا نصر بن سيّار الأمان، ولكنه لم يعطِ بيعته للإمام، وهي اختبار صدقه وموادعته. وما كان الرجل ليتنحى لنا عن مرو إلا بعد أن يئس من وصول المدد من مروان بن محمد وعامله على العراق، ويئس أن يغلبنا بعد أن انفضّ عنه عليّ بن جديع ومن كان معه من الرّبعية. فما يدرينا أنه كَمَنَ الآن، راجياً وصول النجدة والمدد، فيقوم علينا من جديد؟

ثم توجه أبو مسلم إلى لاهز بن قريظ:

- أنت يا لاهز. لا يثق نصر بأحد من أصحابنا غيرك، وذاك لأنك مضريّ مثله، وإن كنت من كبار أصحاب الإمام. فاذهب إليه في جماعة، فآنسه وتبسّط معه، وانقل له ضماننا بأن نكف عنه، ونقوم بأمره. وأعلمه أنه كتاب أتانا من عند الإمام يَعِده فيه ويُمنّيه ويضمنُ له الكرامة. ثم مُرْهُ أن يوافيني ليبايع على كتاب الله وسنّة رسوله، والطاعة للرضا من آل محمد.

قال لاهز:

- ولكن الإمام لم يكتب في أمره كما تقول!

- يا لاهز. نحن في حرب، والحرب خدعة! ونصر كان والي بني أمية على خراسان دهراً، فهل تصدّق حقاً أنه قد تخلّى عن ولائه لهم؟

أدرك لاهز، كما أدرك سائر الحضور، أن خطة أبي مسلم هي استدراج نصر لقتله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان نصر بن سيّار قد تنحّى عن مرو إلى إحدى قراها. وما كان في وسع لاهز بن قريظ الذي ذهب رسولاً إليه أن يدرك أن الحرس الذين أرسلهم أبو مسلم معه كانوا من عيونه وجماعته الخاصة السريّة.

قال نصر:

- ألم أعطكم ما طلبتم؟ ألم أفِ بعهدي حين أخليت لكم مرو الشاهجان؟

أجاب لاهز:

- بلى فعلت. ونحن كذلك نفي بعهد أمانك، فلا يضرّك أحد بشيء تكرهه. ولكن الناس قد بايَعَتْ، وأنت لم تبايع بعد.. وقد..

تردد قليلاً واسترق نظرات إلى الحرس المرافق له، وتابع:

- أمر الإمام ببرّك وحفظ كرامتك و..

قاطعه نصر:

- يا لاهز.. تقولون الإمام.. وأنا لا أعرف عن أي إمام تتحدثون. وكيف يبايع الرجل بيعة صادقة لغائب لا اسم له. أليس من شروط البيعة الشرعيّة معرفة من نبايعه بشخصه؟.. ومع ذلك، أنْظِروني وقتاً أتفكّر فيه..

اضطربت ملامح لاهز، وبدا عليه التردد والحيرة، وأرسل إلى نصر نظرة خاصة عميقة راجياً أن يتفهم معنى التحذير فيها. ثم قال لاهز بلهجة خاملة:

- قد أنْظَرَك أبو مسلم قبل الآن.. ولا أحسبه يرضى أن نعود إليه بدونك. و.. أخشى أن يفسّره نكوصاً منك، أو أمراً تضمره.

تريث لحظة، ثم أكمل بلهجة موحية وهو يطيل النظر في نصر ويحدِّق في عينيه، لعلّه يدرك ما يشي به كلامه، وقال:

- ومن منّا يطّلع على ما تخفي الصدور، وتضمر النفوس؟

ولم يكن يقصد بهذا صدر نصر ولا نفسه. وما كان ليستطيع أن يبوح بأكثر من ذلك التلميح في حضور مرافقيه، فلما تأخر نصر في الكلام وأطال إطراقته وتفكّره. لمح لاهز مصحفاً على مسند خشبي، فعمد إليه بأسلوب اجتهد أن يبدو عفو الخاطر، وتظاهر بأنه يقلّب صفحاته، ثم قرأ بصوت مسموع ما بدا أن بصره وقع عليه بالصدفة الخالصة: (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين).

تنبهت ملامح نصر لأول مرّة، واكتسى وجهه بتعبير التدبّر ولكنه اجتهد أن يداري، وقال:

- لعلك محق يا لاهز. رحم الله امرءاً ذبّ الغيبة عن نفسه.. فقطع الريبة باليقين، وإني صائر معكم إلى الأمير أبي مسلم.. فانتظرني حتى أرتدي ثيابي وأتجهّز.

وقام من مكانه وغاب عنهم داخل بيته. فلما طال غيابه، قال أحد مرافقي لاهز:

- ألا ترى يا سيدي أنه قد طال الوقت ولم يرجع إلينا؟

قال لاهز متعمَّدا أن يطيل وقت الانتظار:

- لا ندري حاجة الرجل من بيته، فلنصبر وننتظر.. لا أحسبه يتأخر بعد الآن.

ولكنه تأخر كما كان يرجو لاهز في سرّه، وعندئذٍ قال أحد مرافقيه بنبرة قوية وقد نفد صبره:

- أي حاجة يمكن أن تؤخر الرجل كل هذا الوقت؟ وكم يجب أن ننتظر حتى ينجلي لنا هذا الأمر؟ أرى يا سيدي أن نقتحم عليه منزله فنرى ما فعل.

لم يملك لاهز الآن إلّا أن يهز رأسه بالموافقة. ولكنهم لم يجدوه في أي مكان من منزله، ولم يتركوا موضعاً فيه إلّا فتّشوه، بلا جدوى. وأدركوا أخيراً أن الرجل غافلهم وفرّ من باب خلفيّ، بعد أن فَهِم إشارات لاهز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نفخ أبو مسلم وهو يدور على نفسه، وحكّ لحيته متفكراً، ثم وقف أمام لاهز وجهاً لوجه، وهز رأسه يميناً وشمالاً تعبيراً عن أسفه وخيبة أمله، وقال يتلو قول الله تعالى:

- (إن القوم يأتمرون بك ليقتلوك. فاخرج إني لك من الناصحين).

اهتزت ملامح لاهز وانقبض وجهه وضاقت عيناه، بينما تابع أبو مسلم وهو يخترق عيني لاهز بنظراته:

- ألم تجد في كتاب الله ما تتلوه على مسمعه غير هذه الآية؟ وأسفي عليك يا أخي لاهز.. لقد والله كسرت قلبي، وإنه لينزف الساعة.. هنا في الصميم.

ودقّ على صدره.. واستأنف:

- أعصبيةً في الدين يا لاهز. نسيتَ الدعوة والإمام، وتحرك فيك عصب المضريّة حتى أشفقت على نصر وأنذرته ليفرّ بجلده؟

تحدّث لاهز لأول مرّة، وقد أدرك أنه لا مجال للتهرب من التهمة.

- أنا الذي ضمن له الأمان قبل دخول مرو، وأعطيته عليه العهود والمواثيق. وقد علمت أنك تنوي قتله، فأين أذهب أمام الله بعهدي له؟

صاح أبو مسلم:

- لا عهد إلّا للإمام، ولا ميثاق إلّا للدعوة!

ثم عاد إلى لهجة التأسف والخيبة:

- وأسفي.. وأسفي.. وأسفي.. كيف يؤتى الرجل من مأمنه؟ أنت آخر من كنت أظن به سوءاً، فكنتَ أول النقباء الذين يخذلونني ويطعنون الدعوة في ظهرها.

قال لاهز بصوت ثابت:

- لم أفعل. وأنا أقْدَمُ منك في الدعوة.

قال أبو مسلم:

- نعم، وهذا الذي يحزّ في نفسي ويعصر روحي.. أنت من دون الجميع كنت أدّخرك للنازلات.. أنت.. كنت وبعض أصحابك أول من أدخلني في الدعوة، ثم صحبتموني إلى الإمام في الموسم، فكان ذلك سبب ما صرت إليه اليوم. ولو قلتَ لصَدَقت وصُدِّقت: أنت الذي دفع عني حين جئتُ بكتاب الإمام لأقوم بأمر الدعوة في خراسان، فنهرني سليمان بن كثير وسبّني وأهانني وشجّني، فكنت أنت الذي

نهاه وذكره حتى رجع. فلماذا أبيتَ إلا أن تختم بخاتمة السوء، وتعذبني هذا العذاب؟ فإني قاتلك يا أخي.

اقترب لاهز برأسه من أبي مسلم، وهمس له حتى لا يسمع الحاضرون من حرسه:

- ألا سبيل إلى العفو؟

قال أبو مسلم وهو يهز رأسه يميناً وشمالاً:

- ليتني أستطيع.

واستلّ خنجره وطعنه في بطنه، وجرّ الخنجر عبر اللحم إلى الأعلى نحو صدره.

تدفق الدم من فم لاهز وهو ما يزال واقفاً يتابع النظر في وجه أبي مسلم، حتى زاغت عيناه ثم انطفأتا وهو يهوي إلى الأرض.

مسح أبو مسلم خنجره بكمّه، وألقى نظرة أخيرة على جثة لاهز، ومضى خارجاً بهدوء.

نظرت إليه جلنار مطرقاً وقد وضع رأسه بين كفيه وراح في تفكير عميق.

قالت:

- نادم على قتله؟

مرت هنيهة صمت قبل أن يجيب أبو مسلم:

- لا أندم على أمر فعلتُه.. أبداً. ولو عاد بي الزمن لقتلته من جديد، ولو أن أباك فعل فعلته لقتلته، ولو فعلتِ أنتِ مثله لقتلتك، ولو خالفتني شمالي لما وصلت بها يميني، ولقطعتها، ولقلتُ بيني.

ثم استدرك قائلاً:

- ولكن، نعم، إنني حزين لأنه ألجأني إلى ما ليس منه مفرّ، وكنت قد رأيت فيه الخير. فلماذا يصر بعض الرجال على أن يخلطوا عملاً صالحاً بآخر طالح، فيجعلوا الحياة أشد صعوبة علينا؟ لماذا لا ينمازون بين أسود حالك السواد وأبيض ناصع البياض، ليريحوا ويستريحوا.

ألْقَتْ عليه نظرة أخيرة ساهمة، ثم انسلّت خارجةً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إنّه يخيفني يا أبتِ.

قال والدها أبو النجم:

- ويخيفني أيضاً. وقد أخاف النقباء جميعاً بعد قتله لاهزاً، حتى سليمان بن كثير.. إنه يتوقاه الآن بقدر ما يزداد له بغضاً. من كان يظن أن الفتى الحَدَث، غلام أبي موسى السرّاج، سيغدو السيّد المطاع الذي يخشاه الجميع.. ولكنه زوجك يا جلنار.. ولن يضرِّك شيئاً.

قالت:

- زوجي! حقاً هو زوجي؟ أعني.. أحياناً أشعر بأنني مع رجل غريب لا أستطيع الاقتراب منه، وأكاد أقول: ليته بقي سرَّاجا فقيراً وكان وديعاً فتزوجته على تلك الحال. أهو السلطان يفعل هذا بالرجال يا أبت؟ أم أنه لا يصل إلى السلطان إلّا رجال قُدِروا للبطش والقوة القاهرة؟

قال أبو النجم حائراً:

- من يدري يا ابنتي! لعل السلطان يحتاج إلى رجال مثل زوجك؟ لا سيما وقت انتقال الدول. ثم إذ استقرت قواعدها واطمأنّ أصحابها، قُدِرَ لها رجال آخرون يأمنون في سلطانهم، فيؤمّنون رعيتهم. فإن الخائف يا ابنتي يخيف، والآمن مأمون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

في الشام والعراق كانت أنباء خراسان حديث الناس بين متشفٍ وقلق وخائف وحائر على حسب موقفه من بني أميّة. وقد شاع الآن أن الدعوة هناك لبعض بني العباس، وإن بقي الكثيرون على شك من ذلك. فالكلام عن آل محمد يحيل في العادة إلى الطالبيين، أبناء عليّ. وما خبر ثورة الحسين بن عليّ، ثم ثورة زيد بن عليّ بن الحسين عن الناس ببعيد. وإذا ذكر شيعة آل البيت انصرف الذهن إلى هؤلاء. وكل ذلك جعل الناس في حيرة من أمرهم. ولكنهم كانوا أكثر حيرة في تلكؤ يزيد بن هبيرة والي العراق، والخليفة مروان ابن محمد في الخروج إلى خراسان لقمع الثورة في مهدها، حتى بعد أن حازت خراسان، وتوشك أن تنحدر منها إلى العراق.

وإذا كان هذا حال عامة الناس، فمن الطبيعي أن يكون هذا موضوع الحديث والجدال في بيوت بني أميّة في الشام. ومنها بيت عبد الرحمن بن معاوية بالرصافة حين يجتمع مع بعض إخوته. وكان أخوه أبان يأتي زائراً من دمشق بين الفينة والأخرى، وقد اكتسب في هذه السنين لقب فارس بني أميّة، لما أظهر من ألوان الشجاعة والعزم والفروسية.

وها هم الآن في بيت عبد الرحمن: أبان ويحيى والوليد، وأصغرهم هشام الذي وُلِد بُعَيْد وفاة أبيه معاوية، وقد بلغ الآن الثانية عشرة من عمره.

وكان عبد الرحمن يعطف عليه أشدّ العطف لأنه لم يرَ أباه، فأراد أن يكون له بمثابة الأب وإن لم يكن بينهما غير ست سنين، فألحقه ببيته، وأحبه كولده.

كان أبو شجاع وبدر يعملان في إعداد أطباق الفاكهة والشراب لحملها إلى المجلس حيث يوجد الإخوة. وكان أبو شجاع الذي كان في أواسط الأربعين من عمره يُحسِن عمله في الخدمة التي لا يُحسِن غيرها، وليس له من الطموح أكثر من أن يثني مخدومه على عمله. وكان قليل الكلام، إلّا أن يُسأل فيجيب باقتضاب. وكان يرى أن زيادة الخادم في الكلام تطفّل وفضول، فإذا سمع أسياده يتحدثون، حتى في أمر جلل، فكأنه لا يسمع. وكان أشدّ ما يغيظه أن يسأله أحد من الناس عن سادته وما يدور في بيوتهم، فلا يبوح بكلمة. وكان يبدو أنه لا يعرف الابتسام، ولا تتغير ملامح وجهه مهما تتقلّب به المواقف. فلا يخرج عن طوره في فرح أو ترح، إذا أُعطي اكتفى بعبارة شكر قصيرة، ومضى في حال سبيله. ولم يكن ما يدعو سيده عبد الرحمن لمحاورته إلا حديث الأندلس التي مكث فيها وقتاً قبل أن يعود إلى الشام، ليلتحق في خدمة «أم الأصبغ» أخت عبد الرحمن، ومن هنا اتصل أمره بعبد الرحمن. ولمّا توفيت أمه راح، ثم زوجه أم سليمان بعد ولادته، صارت تكثر من إرساله إلى خدمة عبد الرحمن وأخيه هشام الصغير الذي ألحقه به، فكان أبو شجاع يتردد بين أم الأصبغ ومنزل عبد الرحمن.

وكان بدر على النقيض منه في كل شيء، فلا يحسن أحدهما ما يحسن الآخر، فكان من الطبيعي أن تقع بينهما مناكفات بين الفينة والأخرى. ولم يكن يهمّ أبو شجاع إلا مهارة الخدمة البيتية، وهذا ما لم يكن بدر ليحسنه. ولما كان أقدم منه في الخدمة، فقد كان يرى نفسه فوقه، فيلقي عليه الأوامر، ويصحح على عمله، ويؤنبه على خَرَقِهِ في أعمال الخدمة. وحين رأى بدراً يضع الفواكه في الطبق الكبير دون تنسيق، قال بنبرة التأنيب:

- ليس هكذا، كم مرة أريتُك كيف تصنع؟

ثم تدخّل بنفسه ليصحح عليه، وتابع:

- ألم تتعلم شيئاً مفيداً حتى الآن؟

أجاب بدر بأسلوب ينم عن ازدرائه لهذا النوع من العمل:

- بل تعلمت أشياء كثيرة مفيدة!

فهم أبو شجاع مغزى الكلام، فقال:

- ولكن ليس بينها مثل هذه الأعمال! أهذا ما تريد قوله؟ فلماذا التحقت إذن بخدمة الأمير إن كنت تترفع عن هذا؟

- لم أقل إني أترفع عن خدمة الأمير.

قال أبو شجاع وهو يشير إلى الأطباق:

- وهذا من خدمة الأمير. وعليك أن تحسنه سريعاً إن شئت أن تبقى في خدمته. وأنا بعد خادم أخته أم الأصبغ في المقام الأول، فأنت الآن ألزم به منّي. ولا يغُرَنَّك منه لطف المعشر ورقّة الحاشية. فتلك آداب الإمارة. ولكن من طبائعهم أيضاً أنهم أضيق الناس صدراً بجفاء السوقة وخَرَق الجهلاء. فما الذي يدعوهم إلى الصبر عليهم وهم قادرون على أن يستبدلوا بهم غيرهم في رفّة عين؟

قال بدر مبطناً التهكم:

- سأذكر وصاياك الجليلة هذه، وأوطّنها عقلي وقلبي، وأجعلها همّي وغايتي، لعلي أبلغ بها مثل الذي بلغت يا أبا شجاع، خادماً يليق بخدمة الأمراء.. والأميرات!

أرسل إليه أبو شجاع نظرة تأنيب وقد فهم معنى التهكم في كلامه. ثم قال بدر:

- ولكن، قل لي. أنت خادم السيدة أم الأصبغ.. هل وجدت فرقاً بين معاملة السيد والسيدة؟

- ليس هذا من شأنك، تابع عملك.

ولكن بدرا تابع الكلام دون أن يأبه لنَهْيه.

- وقد علمت أنك بلغت المغرب الأقصى والأندلس، وعرفت أحوالهما، وكنت في الجند، فما الذي أعادك منها للعمل.. أعني..

قاطعه أبو شجاع وقد ضاق صدره:

- إنك لكثير الكلام.

قال بدر يستدرجه للكلام:

- أعني.. سمعت أنها بلاد تفيض بالخيرات.

- وبالفتن والخصومات.

- وهل أحوال الشام والعراق وخراسان الآن أفضل حالاً؟ ألم تسمع بالذي يجري في خراسان؟

- لم تكن هكذا حين رجعت من الأندلس. وعلى كل حال، هذه أمور ليست من شأني ولا من شأنك.

- كيف تقول هذا؟ ألسنا من عامة المسلمين، وفوق ذلك نحن خدم أمراء مقدّمين من بني أميّة.. أولاد الخفاء، فإذا عمّت هذه الثورة ووصلت إلى ديار الشام، فسوف يلحق بنا ما يلحق بسادتنا.

قال هذا وهو يلتقط حبة تفاح من الطبق المعدّ ويقضمها. ضربه أبو شجاع على يده ضربة خفيفة وقال:

- بدلاً من الانشغال فيما لا يعنيك ولم تُخْلق له، ابدأ بتعلم هذا. لا تُصب شيئاً من طبق سيدك، فكأنك تشاركه منزلته كبعض ضيوفه وأقرانه، وحتى لو تفضل ودعاك، فإن من كمال أدب الخادم أن يشكر

ويمتنع.

قال بدر مناكفاً:

- ولكنه لا يرانا الآن.

- أنا أراك. والخادم الذي يليق بخدمة الأمراء يتصرف، وهو منفرد بنفسه، وكأن سيده معه. هيا الآن احمل معي.

سبقه أبو شجاع حاملاً طبقاً كبيراً، وتابعه بدر بنظرات ساخرة، قبل أن يلحق به.

في المجلس الكبير، كان عبد الرحمن يلعب الشطرنج مع أبان كعادتهما، بينما كان الحديث يدور عن أخبار المسوّدة وخراسان.. كان الوليد أكثرهم قلقاً. وقال:

- ليس بعد خراسان، إلا العراق، وليس بعد العراق إلّا الشام.. هنا.. فما الذي ينتظره مروان بن محمد وواليه على العراق؟

لم يرفع أبان وعبد الرحمن رأسيهما عن رقعة الشطرنج وقال أبان يخاطب عبد الرحمن:

- لقد عزمت أن أغلبك هذه المرّة، وأثأر لهزائمي السابقة.

قال عبد الرحمن:

- لا بأس على رجل غلبه أخوه، وهو أكبر منه.

صاح الوليد محتجاً:

- سبحان الله، ألا تسمعان ما نقول؟

قال عبد الرحمن:

- إنك دائم القلق يا أخي..

قال الوليد:

- إن لم يقلقني هذا، فما يقلقني؟

تدخل يحيى قائلاً:

- لا أهوّن منه. ولكن ألم يقع ما هو أشد من هذا قبل الآن في مُلك بني أميّة؟ ألم يسيطر ابن الزبير على الحجاز وشطر من العراق أيام جدّنا عبد الملك بن مروان؟ ثم انتهى مصلوباً في مكة.

قال الوليد:

- ذاك زمان، وهذا زمان. لا مروان بن محمد مثل عبد الملك، ولا ابن هبيرة مثل الحجاج بن يوسف.

قال عبد الرحمن وهو ينقل حجراً:

- صدق الوليد.

قال الوليد:

- وإذن؟

ردَّ عبد الرحمن دون أن يرفع رأسه عن رقعة الشطرنج:

- أشِر علينا أنت.

قال الوليد:

- بم أشير؟ ولمن أشير؟ ولم يعد لنا، نحن أبناء هشام وحفدته، من الأمر شيء، بعد الوقائع التي انقضت منذ وفاة جدّنا.

قال عبد الرحمن:

- قد قلتها إذن، وأنتَ من الصادقين.

قال أبان:

- ومع ذلك، إذا وقع ما نخشى ونحاذر، فسوف ننسى خلافنا مع مروان بن محمد، ونقاتل عن..

قاطعه عبد الرحمن:

- إذا وقع ما نخشى ونحاذر، ووصل المسوّدة الشام، فقد فات الوقت، ولم ينفع معه قتال.

قال أبان:

- سبحان الله، فماذا تريد إذن يا أبا سليمان؟ أراك أكثر تشاؤماً من الوليد دون أن يكون عندك قلقه.

قال عبد الرحمن:

- أريد ما يريد الله سبحانه وتعالى. وأعلم أن الدنيا إقبال وإدبار. ولها في إقبالها رجال تتّصل أسبابهم بأسبابها، وكذلك كان جدّنا الأكبر مروان بن الحكم، وعبد الملك، والوليد.. حتى جدّنا هشام.. ولها في إدبارها رجال.. قد يحيي الله ببعضهم ما يميته ببعضهم.

رمقه أبان بنظرة غامضة، وسأل:

- مثل من؟

قال عبد الرحمن:

- لا ندري حتى تنجلي الأمور عن مشيئة الله النافذة.

- أنتَ مثلاً!

قال عبد الرحمن مبتسماً ليغيّر وجهة الحديث، وهو ينقل حجراً:

- أنا الآن، لا أريد إلّا أن أفوز عليك.

قال أبان:

- هكذا تظنّ.

وحرك حجراً في نقلة خطيرة، ظن أنه لا مخرج لأخيه منها. ثم رجع بجسمه إلى الخلف منتشياً وقال:

- ماذا عساك تفعل الآن يا أبا سليمان؟ لا أرى لك مخرجاً.

انقبض وجه عبد الرحمن وهو يدقق النظر في الرقعة. وعاد أبان إلى الكلام واثقاً من فوزه:

- قُضِي الأمر..

قال عبد الرحمن:

- لم تنته اللعبة بعد.

- خذ من الوقت ما تشاء. ولكن اليأس إحدى الراحتين، كما قالت العرب.

في تلك الأثناء، كان بدر يراقب اللعب خطوة خطوة، وهو واقف مع أبي شجاع جانباً لمتابعة الخدمة وتنفيذ الأوامر.

حين وصل إلى ذلك الحدّ، أسرع فصبّ كأساً وذهب به إلى سيّده عبد الرحمن، وقدّمه إليه مستديراً عن الآخرين بظهره، وقرّب رأسه إلى عبد الرحمن وهو يقدّم له الشراب، وهمس له:

- حصانك وفيله.

تنبهت ملامح عبد الرحمن، ونظر في بدر مندهشاً، وتراجع بدر متشاغلاً بعمله.

أعاد عبد الرحمن النظر إلى الرقعة، واتسعت عيناه دهشةً واهتماماً.

قال أبان يستعجله:

- هاه! تستسلم؟

فجأة وقف عبد الرحمن بوجه عابس، واتجه إلى باب داخلي وهو يقول:

- أنظرني لحظة.. إنني عائد.

ثم أومأ إلى بدر أن يلحق به.

في الغرفة المجاورة فوجئ بدر بسيده يقرّعه:

- كيف سوّلت لك نفسك؟ هاه! هل رأيتني أطلب منك العون؟ وهل يطلب مثلي العون من مثلك؟ ماذا أنت، أحمق! هل نسيت منزلتك مني ومن إخوتي حتى تُقحِم نفسك في عملنا وتسليتنا؟ ثم هل رأيتني أعلن بعجزي عن إيجاد مخرج لي حتى تخفّ أنت إلى نجدتي؟

وأشار بإصبعه إلى بدر إشارة ازدراء، وتابع:

- ومن قال إن طول نظري في الرقعة كان لانعدام الحيلة؟ ألا تعلم أني وجدت فضلاً عن حلّك خمسة حلول أخرى أفضل منه؟ ولكني أحب إطالة اللعب في موقف كهذا حتى أوهم خصمي، حتى إذا أحسن الظنّ بنفسه واستيقن من فوزه، خيّبت ظنه، فكان لفوزي عليه متعة أعظم.

قال بدر معتذراً:

- العفو يا سيدي. قد أسأت من حيث ظننت أني أحسنت.

- وأي إساءة! وإني أعيذك أن تعود لمثلها أبداً، فإني لا أغفر الإساءة مرتين. والآن، اخرج إلى الإسطبل، فاعلف الجياد، وجهّزها للطرد، وانظر في عدة الصيد.

- السمع والطاعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين اختلى بدر أخيراً بأبي شجاع من جديد، سأل:

- فاتتني آخر اللعبة.. كيف انتهت؟

- فاز مولاك الأمير عبد الرحمن.

- حقاً؟

- أخيراً تنبّه إلى موقع حصانه من فيل أخيه، فأخذه، فانكشف مَلك أخيه، ولم يعد له خلاص.

انبسط وجه بدر مع ابتسامة عريضة غامضة، وقال:

- فطنة بالغة.

وكانت تلك آخر لعبة شطرنج يلعبها الإخوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

اندفعت جيوش المسوّدة بقيادة قحطبة بن شبيب عبر خراسان ونحو العراق كالسيول الجارفة والعواصف الماحقة تدمّر كل من يعترض طريقها من جنود عُمّال بني أميّة: أبيورد، سَرَخس، طوس، نيسابور، جرجان، قومس، طبرستان، الخُوار، الريّ، أبْهر، همذان، نهاوند، قم، أصبهان، شَهْزور، حُلْوان، خانقين، حتى بلغت الفرات. وهناك عسكر قحطبة على ضفته الشرقية، وعسكر يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، والي العراق، على ضفته الغربية. وكان ذلك في الشهر المحرم من عام 132 للهجرة.

كان لا بد أن يخوض أحد الفريقين النهر إلى الضفة الأخرى ليلقى عدوه، وكان كلاهما يدرك أن هذا العمل محفوف بالمخاطر، إذ إن خوض الماء يثقل الحركة ولا بد أن يستقبلهم الفريق الآخر بالسهام، فتضطرب الصفوف ويكثر القتل. وما كان يزيد بن عمر ليبادر إلى ذلك، وقد أوهنَتْ جيشه كثرة الحروب السابقة ضد الخوارج، ودب الرعب في جنده من انتصارات المسوّدة المتلاحقة، فآثر الانتظار.

أما قحطبة فقرّر العبور على الرغم من المخاطر. وحجته أن جنده في عافية وعزيمة، وازدادوا حماساً بانتصاراتهم السابقة، وقد باتت الكوفة قريبة منهم، فإذا دخلوها، فقد تم الأمر في العراق، ومعه نزول الإمام وبيعته وبدء الدولة.

وقف قحطبة بجواده أمام جيشه، وقد رُفع لواء الدعوة ورايتها، ومعهما مئات الرايات السود. وخطب فيهم:

- يا معشر الإسلام، هل كَذَبناكم حين بشرناكم بالرايات السود تنحدر من خراسان إلى العراق، فلا يصمد لها شيء؟

دوّت الأصوات:

- اللهم لا.

- فها نحن في العراق، وليس بيننا وبين الكوفة إلّا أن نخوض الفرات ونقتل جيوش العتاة الظالمين، وعندها يتحقق وعد الله، وتقوم دولة أئمتنا المهديين، فتكون فيهم إلى يوم الدين، وتصل ما بين المشرق والمغرب حتى لا تمطر سحابة إلّا في ملكهم، ولا يمتد ظلّ إلّا في ديارهم. ألا قد بلغ الكتاب أجله، وليعلمنّ الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

يا معشر المسلمين، أيكم يتعجّل إلى جنة عرضها السموات والأرض أُعِدّت للمتقين، فيكون في صحبة الأنبياء والصدّيقين والشهداء، وحَسُن أولئك رفيقاً، فيتطوّع بأن يسبق إخوانه إلى خوض النهر، ليكون لهم طليعة ورِدْءاً؟

تنافس الجند على التطوّع، وما هي حتى اندفعت الطلائع إلى النهر وهي تهتف بشعار الثورة: «يا محمد، يا منصور».

استقبلهم رماة ابن هبيرة بوابل من السهام إثر وابل، حتى غصّ النهر بالصرعى من الطلائع وخيولهم. ولكن الطلائع استمروا في التدافع فوجاً إثر فوج، وإذ بدأ بعضهم يصل ضفة النهر الأخرى، قابلهم جند الأموية بالرماح والدبابيس والسيوف، حتى تمكنت أعداد منهم من الخروج إلى اليابسة والانخراط في القتال. عندئذٍ رفع قحطبة سيفه الذي بقي خلف الطلائع على اليابسة، وأعطى إشارة الهجوم، فاندفع الجميع وراءه بسرعة هائلة وعزيمة جبارة وهم يرددون شعار الثورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انجلت تلك المعركة الحاسمة عن انتصار المسوّدة انتصاراً حاسماً، وعن فرار يزيد بن هبيرة. وامتلأ النهر وضفته بألوف القتلى. وكان من بينهم قحطبة بن شبيب نفسه فقد وُجد مطعوناً برمح وجثته في الماء. وحين سُحِب إلى الضفة تحلّق حوله قادته وقد عمّهم الأسى على الرغم من نشوة النصر العظيم، وانحنى ولده الحسن على جثته وخاطبه:

- لا بأس عليك يا أبتِ، قد انتصرت ميتاً وحققت غايتك.. مع الصدّيقين والشهداء والصالحين إن شاء الله.

وكان الحسن بن قحطبة قويّ العزيمة كأبيه. فصاح في الناس وقد صارت قيادة الجيش إليه الآن:

- مُروا الجند أن يستعدّوا.. لا نتوقف إلّا في الكوفة إن شاء الله.. تلك وصية أبي رحمه الله.

الآن يستطيع رئيس الدعوة أبو سلمة الخلّال، أن يخرج في كبار القوم لاستقبال جيش الحسن بن قحطبة عند الكوفة، دون أن يخشى رقيباً من الأموية. ثم خرج أهل الكوفة ليشهدوا شطراً من جيش الحسن يدخل الكوفة برفقة أبي سلمة الخلّال. ودوت الهتافات بشعار الثورة. حتى وصل القوم إلى دار الإمارة، ووقف أبو سلمة الخلّال بين كبار أهل الدعوة وإلى جانبه الحسن بن قحطبة. وخطب في الجند والحشود:

- يا جند الدعوة، يا صناديد الإسلام، إن الله قد أكرمكم بهذه الدعوة المباركة التي ما زالت القلوب تتشوّق إليها، فخصكم الله بها وجعلكم أهلها. ألا وإنه ليس لأحد فيها شرف بعدكم، ولا منزلة في حِباء أو مجلس، ولا مدخل ولا مخرج عند أئمتكم إلّا دونكم. ألا إنها دولتكم فأقيلوها واحموها بصدوركم، وأيقنوا بنصر الله إياكم فيما أبلاكم حتى بلغتم ما أنتم فيه. فاعتبروا ما بقي بما مضى. وتحفظوا من خدع السفهاء وتزيين شياطينهم لكم اتباع أهوائهم، فإنهم سيقرعون لكم بالحسد على هذه النعمة، فاتهموهم ولا تقاربوهم، ولا تطيعوهم في أنفسكم فيردُوكم على أعقابكم، فأبشروا بالخير الكثير في عاجلكم إلى ما ذَخَره الله لكم في آجلكم.

دوّت الأصوات من جديد تهتف بشعار الثورة: «يا محمد، يا منصور».

في الحميمة، سجد الإمام إبراهيم شكراً لله، سجداً طويلاً. وكان عنده أخواه وأعمامه. ثم رفع رأسه وقال:

- صدق الوعد الحق. هذا الذي حلم به آباؤنا منذ عشرات السنين ووطأوا له، وبذلوا فيه الطاقة وعمل النهار وتدبير الليل. وقد شاء الله أن يتحقق في زماننا.

قال أخوه أبو العباس مبتسماً:

- هل ندعوك من الآن أمير المؤمنين؟

أجاب:

- أنا الإمام، حتى نصل الكوفة ويبايع الناس.

سأل أخوه أبو جعفر:

- ومتى هو؟ ما الذي يبقينا بعد الآن في هذا المكان، وقد قامت دولتنا في العراق وخراسان، ولم يزل أبو سلمة الخلال يأخذ البيعة للإمام القائم دون أن يسمّيه.. وقد آن أوان ظهورك يا أخي.

قال الإمام:

- بل نصبر حتى يصلنا رسول أصحابنا، وهذا اتفاقنا معهم، حتى تُضبطَ لنا الأمور هناك ونكون في أمان. ولا أحسب الرسول يتأخر بعد الآن، ولكن نتجهّز كأننا نسافر غداً أو بعد غد.. وإياكم أن تغتروا فتظهروا للناس هنا شيئاً من أمركم. فما زلنا خارج دولتنا وفي أرض مروان بن محمد.

قال عمه عبد الله بن عليّ، وكان أكثر الجميع اندفاعاً وشدّة:

- وقريباً نلحقها بالعراق، وتصير أرضنا دونه، ثم لا نترك عليها أموياً.

هز الإمام رأسه وقال:

- إن شاء الله.. ولكل نبأ مستقرّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مروان بن محمد قد دفع بجلّ عسكره مع يزيد بن عمرو ابن هبيرة وبقي في قلّة بعد الهزيمة الكبرى عند الفرات، وفرار يزيد. وكان يدرك أن حظوظه في استعادة الكوفة والعراق ومن ورائهما خراسان صارت قليلة، وأنه كلما طال الوقت ازداد المسوّدة قوة وتمكناً. ولكنه لم يكن من النوع الذي يعطي بيده حتى يستفرغ جهده أو يهلك دونه. فجدّ في جمع الأنصار والموالين للمعركة الأخيرة الفاصلة.

وفي حران، التي اتخذها مقرّ إقامته، وَفَد عليه أبان بن معاوية مع أخويه عبد الله وعبيد الله، لأول مرّة وقد تناسوا الآن عداءهم السابق له. وسلّموا عليه بلقب أمير المؤمنين.

فقال معاتباً:

- أخيراً يدعوني ولد من أسرة هشام أمير المؤمنين!

قال أبان:

- ليس هذا وقت التلاوم. فالخطر القادم من خراسان والعراق لن يفرّق بين هذا الفرع وذاك من بني أميّة. بل إن نقمتهم على أسرة عبد الملك أشدّ وأعظم. وقد جئناك الآن لنخرج فنقاتل معك عدوّنا وعدوّك.

قال مروان:

- إن شئتم أن تفعلوا شيئاً، فامكثوا في دمشق مع والينا عليها، واجمعوا من استطعتم جمعه من أنصاركم ومواليكم هناك، لتحموا ظهورنا إذا حَزَبَ الأمر.

أطرق أبان لحظة، ثم قال:

- إمام المسوّدة الذين يقاتلون بشعاره. لو كان في خراسان أو العراق لأخرجوه وبايعوه بشخصه. ولكنهم لم يفعلوا. فيرجح أنه في الشام. فلو توصّلت إليه وأخذته، خارت عزائمهم وتفرّقت أهواؤهم دون إمام يبايعونه. فكيف نضلّ عن مكانه وهو لا بد قريب منا؟ ولا يلبث أن يرتحل إلى العراق وقد خلت لأنصاره ليبايَعَ له في الكوفة ويظهر للناس. والرأي أن تنصب الحرس على الطرق من الشام إلى العراق، فإما أن تكشف أمره وهو مرتحل، وإمّا أن تكشف رسولاً بينه وبين أصحابه في الكوفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد كان كما أشار أبان. وتقبّض جند مروان على رسول أبي سلمة إلى الإمام إبراهيم قبل وصوله الحميمة.

كان الإمام يصلّي في مسجد القرية، ولم يكن معه أحد من أهل بيته، حين أحاط جند مروان بالمسجد، ثم أخذوه وأوثقوه وغطوا رأسه بكيس مثقوب من الخيش، ليتمكن من التنفّس. وما هي حتى انطلقوا به على الخيول إلى خارج الحميمة.

نزل النبأ كالصاعقة على أخويه وأعمامه. وضرب أبو العباس كفاً بكف، وقال:

- الآن! حين ظننا أننا بلغنا الغاية! لا حول ولا قوة إلّا بالله. ماذا عسانا أن نفعل الآن؟

قال أبو جعفر بنبرة حازمة:

- نفعل الشيء الوحيد الذي يجب فعله، نخرج إلى الكوفة من الليلة سرًّا.

قال أبو العباس مُتَفَجِّعا:

- وأخونا الإمام!

ردّ أبو جعفر:

- أنت منذ الآن إمامنا كما أوصى أخونا إبراهيم. وهذا وقت اختبار الصبر والعزم والحكمة. وما أخذه جند مروان إلّا وقد انكشف لهم خبره، وبعد الذي كان في خراسان والعراق، فإن مروان لم يأخذه ليعاتبه ويؤنبه ويستتيبه.. ولا حتى ليحبسه! يجب أن نقرّ بالحقيقة مهما تكن فجيعتنا بأخينا. وإن مكثنا أياماً أخرى ربما راجع مروان نفسه فرأى أن يأخذنا جميعاً. وعندئذٍ يمكن القول: ذهب جهد آبائنا الطويل سدى، فنكون بذلك قد خذلناه وخذلناهم أشدّ الخذلان، بل نكون بذلك قد أضعنا دم أخينا.

قال أبو العباس:

- ولكن أبا سلمة، لم تبلغه وصية الإمام بأن أخْلُفه على الإمامة إذا وقع له مكروه.

قال أبو جعفر:

- كلنا سيشهد بذلك عنده. ولا يسعه إلّا أن يصدع ويطيع. وإلّا ما عساه يفعل بدعوتنا ودولتنا؟

وبالطبع كان أبو جعفر محقاً في كل ما قاله. فلم يلبث الإمام إبراهيم غير بضعة أيام في حبسه في حرّان، إذ دخل عليه ثلاثة رجال بأمر مروان، فخنقوه في مكانه. ورجا مروان أن ينخذل أهل دعوته حين يجدون أنفسهم بلا إمام يبايعونه، فتختلف قلوبهم ويتنازعون الأمر بينهم، بينما يتابع هو استعداده للمعركة الأخيرة الفاصلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

لطالما حلم أبو سلمة الخلّال باللحظة التي سيدخل فيها إمام الدعوة الكوفة ليقطف ثمرة الجهود الطويلة المضنية التي بذلها أهل دعوته ورئيسهم من أجل تلك الغاية. وكان يصوّر في رأسه طريقة الاستقبال اللائقة بالإمام وبتلك اللحظة التاريخية التي ستبقى مقيمة في ذاكرة الناس، بل كذلك في ذاكرة التاريخ.

فلماذا غُمّ عليه الآن عندما بلغه أن الإمام الجديد عبد الله أبو العباس بن محمد بن عليّ يوشك أن يصل الكوفة مع أهل بيته وكان عليه أن يرتب لدخوله وجلوسه للبيعة، لتبدأ دولة بني العباس؟

لقد قضى حياته في الدعوة مع الإمام محمد بن علي، ثم مع ولده الإمام إبراهيم. أما أبو العباس هذا، فلم يره إلا بضع مرات قليلة، وكان قليل الكلام، ويبدو عليه الاعتلال. وكان الذي يتولّى الكلام بعد الإمام إبراهيم أخوه الآخر عبد الله أبو جعفر، فيبدو أحدّ ذهناً وأبعد نظراً وأكثر نشاطاً. فإذا كان الإمام إبراهيم قد أوصى بالإمامة من بعده لأبي العباس كما بلغه الآن فقط، فلماذا لم يكتب له بذلك على أهميته وخطورته، وهو رئيس الدعوة والقائم بها؟ وكيف يختار الإمام إبراهيم أخاه أبا العباس وهو أصغر سناً من أخيه أبي جعفر؟ وما أدراه الآن أنه أهل للإمامة ولم يتمّ لهم الأمر بعد. فما زال مروان ابن محمد وموالي بني أمية قائمين بالحرب، والشام في أيديهم. وقد أهدف أهل الدعوة صدورهم للأسنة حتى ملكوا خراسان والعراق باسم الإمام، فإذا بايعوا الآن لإمام غرّ لم يختبروا عزمه وعقله، فقد يوردهم المهالك وينتقض كل ما غزلوه في عمل الليل والنهار!

هل هذا وحده هو سبب حيرته واغتمامه؟ ألهذا عاوده هواه القديم للطالبيين من آل عليّ قبل أن يلتحق بدعوة بني العباس؟ الحقيقة أنه لم ينصرف يوماً عن هواه فيهم، وهم أولى بصفة آل البيت من غيرهم، وما زالت مصارعهم، لا سيما مصرع الحسين ثم مصرع زيد بن علي بن الحسين، تلهب العواطف وتثير الحزن والنقمة معاً.

وكان قبل أن يلتحق بدعوة بني العباس من جماعة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، وقد عُرف أبوه محمد بن عليّ هذا بابن الحنفية، تمييزاً له عن ولدي فاطمة بنت النبي. فلما أدركه الموت بالقرب من الحميمة، عهد بأهل دعوته إلى الإمام العباسيّ محمد بن عليّ فالتحقوا به، وفيهم أبو سلمة الخلّال. ثم ازداد حماساً لهم حين عرف صبرهم الطويل على التدبير والتنظيم المحكمين في الخفاء، ورأى اعتمادهم على الأعاجم في خراسان، وهو أعجمي. وفي المقابل، رأى عزوف الأئمة المقدمين من آل عليّ عن طلب الحكم، مؤثرين الانقطاع للعبادة والعلم، راضين بمحبة الناس والتفاف شيعتهم عليهم. كذلك كان زين العابدين علي بن الحسين، ثم ولده محمد بن علي بن الحسين، ثم ولده جعفر بن محمد، الإمام القائم الآن من أبناء الحسين، والمقيم في مدينة رسول الله.

بلى، عاوده هواه القديم الآن في آل بيت عليّ. ووجد نفسه يقلّب الأمر في نفسه منذ جاءه الخبر بقرب وصول الإمام العباسي الجديد وأهل بيته. فخطر له أولاً أن يجمع شيوخ الطالبيين والعباسيين، حتى يختاروا واحداً منهم يتوافقون عليه ولكنه خشي أن يختلفوا وينتقض الأمر. ثم استقر رأيه على أن يكتب لثلاثة من أعلام الطالبيين في الحجاز؛ وكلهم عابد زاهد، وله منزلة في قلوب الناس: جعفر بن

محمد، وعبد الله بن الحسن، وعمر بن عليّ، على أن يبدأ الرسول بأول هؤلاء، فإن رضي حصل المطلوب، وإلّا فالثاني، وهكذا. فأول من يرضى منهم أتى الكوفة فبويع بالخلافة.

ولكن ماذا عساه يفعل بأبي العباس وأهل بيته إذ يصلون الكوفة؟ أخيراً عزم أمره على أن يكتم نيّته عن بني العباس، ويماطل في ظهورهم للناس محتجًّا بالمعاذير، حتى يصله جواب من أحد أولئك الأئمة الثلاثة.

خرج لاستقبالهم على بُعد فرسخين من الكوفة، وعلى الرغم من أنه أبدى الاحترام الكافي، فإنه لم يستطع أن يحمل نفسه على إبداء الإجلال والخضوع اللذين كان يُقبل بهما على الإمامين السابقين، ولا الحفاوة والاحتفال اللذين يليقان بتلك المناسبة التاريخية العظيمة، ويتوقعونهما منه ومن أهل دعوتهم. فقد خرج إليهم في عدد قليل من الحرس، وكانوا يتوقعون أن يخرج إليهم بالعسكر وأهل الكوفة.

وبعد أن عزّاهما بالإمام الراحل، جاءتهم المفاجأة الأخرى إذ قال الرجل:

- قد هيأتُ لكم النزول بقصر «مقاتل» على بُعد مرحلتين من الكوفة.

نظر القوم بعضهم في وجوه بعض وقد أخذتهم الدهشة والحيرة. وكان أوّل من تدخّل بالكلام أبو جعفر:

- تعني لن ندخل الكوفة الآن؟

قال أبو سلمة:

- ما زال في الكوفة يا سيدي بقيّة من موالي بني أميّة وأنصارهم. وإن النفوس لا تتغير، بين ليلة وضحاها عند انتقال الدول، وأخشى عليكم الغائلة، فإذا اطمأنت نفوسنا إلى أنها صفت للعهد الجديد، بعثنا إليكم فدخلتموها إن شاء الله آمنين.

حدّق فيه أبو جعفر بنظرة سابرة مشوبة بالشك، وقال من جديد:

- إن كنا نخشى الغائلة في الكوفة، وفيها جيش الدعوة وكبار أهلها، فالأولى نخاف الغائلة خارجها، فإن قصر «مقاتل» في بريّة، ولا نأمن أن يُسعى بنا إلى الأمويّة فيستأصلونا.

مرت لحظات صمت وترقب، ثم تحدث أبو سلمة:

- يا سيدي، إن كان لا بدّ، فتدخلون الكوفة سرًّا ولا نُعْلِنُ بقدومكم لأحد، وتنزلون في دار الوليد بن سعد، وأقيم عليكم حرساً يحفظونكم حتى يحين الوقت المناسب، فنُظهر أمركم، وندعو لكم الناس.

في دار الوليد بن سعد بالكوفة التي أُنزل فيها بنو العباس، ظلّ القوم في حيرة من أمرهم وأمر أبي سلمة. قال أبو العباس:

- أليس عجيباً أن تقوم دولتنا، وندخل حاضرتها، ثم نحتجب عن أهل دعوتنا وعامة الناس، فلا نأخذ منهم البيعة ولا نباشر الحكم بأنفسنا؟

قال أبو جعفر بنبرة غامضة مُبطّنة:

- نحتجب عن الناس، أم نُحجَبُ عنهم؟

ثم استدار وواجه الجميع، وتابع موجهاً كلامه إلى أبي العباس:

- ألم تَرَ أنه لم يسلّم عليك بالإمامة ولا بلقب الخلافة؟

قال أبو العباس محاولاً رَفْعَ الارتياب من نفسه:

- ولكنه ما زال القائم بأمر دعوتنا منذ حين يا أبا جعفر، وما علمنا عليه من سوء، ولم نجد منه إلا الإخلاص والتفاني، ولولا جهده مع أبي مسلم لما..

قال أبو جعفر مقاطعاً:

- كان ولاؤه منصرفاً إلى أبينا ثم أخينا إبراهيم.

قال أبو العباس:

- ولكنها دعوة بني العباس، إذا ذهب إمام خلفه غيره.

هز أبو جعفر رأسه متشككاً، وعندئذٍ تدخّل عمه عبد الله بن علي وسأل أبا جعفر:

- ما الذي يدور في ذهنك؟

قال أبو جعفر:

- نعلم أنه قبل أن يتصل بدعوتنا كان من أتباع دعوة أبي هاشم، عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب. فلما علم أن أبا هاشم قد أوصى لنا قبل وفاته التحق بنا. وأخشى الآن وقد توفي أخونا إبراهيم، أن يكون قد راجعه هواه القديم في أبناء عمومتنا الطالبيين.

قال أبو العباس:

- أليس هذا من قبيل الظنّ والتخمين؟

ردّ أبو جعفر:

- بعض الظن إثم. بلى.. ولكن، بعضه فقط! أما بعضه الآخر فمن حُسْن الفِطَن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن أحد من أهل الدعوة في خراسان والعراق يعلم باختفاء الإمام إبراهيم. وقد كتمه عنهم أبو سلمة بعد أن علمه من أهل الإمام. وكان أبو مسلم الخراساني هو الذي ضرب الموعد لخروج الإمام إبراهيم في يوم معلوم، ووجّه إليه بالسواد والسيف والمراكب وما يحتاج إليه من المال والفراش والأثاث، مع نخبة من أصحابه أوفدهم إلى الكوفة ليكونوا في استقبال الإمام، وعلى رأسهم أبو الجهم بن عطيّة، وموسى بن كعب التميمي، وأبو حميد الحميريّ. وها قد فات الموعد المضروب، ولم يظهر الإمام حتى طال الانتظار. فأكثروا من مراجعة أبي سلمة في الأمر، دون أن يجدوا منه جواباً شافياً، حتى حاكت الظنون في نفوسهم، وشعروا بأن أبا سلمة يخفي عنهم أمراً. فلما صارحه أبو الجهم بذلك، قال أبو سلمة:

- ولماذا أخفي عنكم؟

قال أبو الجهم:

- لا أدري. ولكن، ما كان الإمام ليبطئ عن الموعد المضروب وقد بدأت دولته. وصار بقاؤه في الشام خطراً عليه. ووالله ما لَكَ خرجنا من قعر خراسان، ولا إليك دعونا، وما أنت لنا بإمام. والعسكر يتململون من ورائنا ويطلبون إمامهم الذي أهدفوا صدورهم للرماح من أجله.

قال أبو سلمة:

- يا قوم. قد صبرتم طويلاً، وما هي حتى يقوم الإمام، فاصبروا قليلاً ولا تفسدوا عملكم بالشك والريبة.

كان قد مر شهر كامل منذ وصل أبو العباس وأهله وحجبوا عن الناس، دون أن يصل جواب لأبي سلمة من أحد الأئمة الطالبيين الثلاثة الذين أرسل إليهم في مدينة رسول الله. وبدأ اليأس يتسلل إلى قلبه ولكنه آثر أن يصبر بضعة أيام أخرى فقط، لعل جواباً يصله من أحدهم. ثم جاءه أحد الحرس الذين أقامهم على المنزل الذي أنزل فيه أبا العباس وأهله، يخبره أن أبا العباس يعزم عليه أن يأتيه الليلة، وإلّا خرج بنفسه.

ابتدره أبو العباس بلهجة غاضبة:

- ها قد مرت ثلاثون يوماً أو يزيد، وما زلت تماطل يا أبا سلمة، حتى حاكت في نفسي الشكوك.

قال أبو سلمة بنبرة قوية لا تخوّف فيها:

- ألأني أخشى عليكم الهلاك والموت؟ أنا أدرى منكم بواقع الحال. إن الأمر لم يتمّ. وأعلم أن رجال مروان قد اندسّوا بين الناس، ويبيّتون بليل، وما زلنا نلاحق بعضاً ونترصد بعضاً، فتريّثوا حتى يحين الوقت.

- إن كانت غايتك حفظنا من الهلاك كما تقول، فلماذا تغيبتَ عنا بنفسك كل هذا الوقت، فإذا أرسلنا إليك تذرّعت بالمعاذير؟

- ما هي بمعاذير. ولكني أنفق ليلي ونهاري في التوطئة لظهوركم وفي تدبير أمور الحكم والعسكر حتى..

قاطعه أبو العباس وقد ازدادت لهجته حِدَّة:

- سبحان الله! إذا كان الناس لا يعرفون وصولنا ومكاننا، فأنت تعلمه. فكيف تدبّر أمور الحكم والعسكر دون الرجوع إلى إمامك وخليفتك، وإن كان محتجباً أو محجوباً عن غيرك؟

أجاب أبو سلمة هذه المرّة بنبرة احتجاج وغضب لم يراعِ فيها منزلة الإمام:

- أَشَكٌّ بي يا سيدي بعد الذي بذلته في الدعوة؟

- ماذا لو حزمت أمري وقررت الخروج غداً بغير رأيك؟

هنا صار الحوار أقرب إلى المواجهة إذ قال أبو سلمة:

- لن تفعل يا سيدي.

قال أبو العباس:

- وما يمنعني وأنا الإمام والخليفة وصاحب الدعوة؟

- واجبي يا سيدي أن أحفظك وأهلك من الهلاك مهما يكن الثمن، فإن غضبت مني الآن، شكرتني غداً. خير من أن أطيعك الآن فيما يعود عليك وعلى الدعوة بالهلاك والبوار، فتنقم عليّ غداً. فإن لم تنقم عليّ، نقمت أنا على نفسي،ولم أغفر لها أبداً.

قال أبو العباس وقد تحوّل الموقف إلى مواجهة صريحة:

- إذن، فإن هذا حبس لا منزل. وهؤلاء الحرس الذين يحيطون بالدار ليسوا لحمايتي، بل لاعتقالي.

لم يجب أبو سلمة، وتولّى خارجاً وهو يقول بلهجة حازمة:

- أستأذنك الآن يا سيدي.

وإذ غاب، ارتد أبو العباس إلى أعمامه وأخويه وقال:

- لم يعد عندي الآن شك في أنه يضمر صرف الأمر عنّا. فأشيروا عليّ.

أجاب عمّه داود بن علي:

- الرأي أن نخرج إلى المدينة المنورة.

وقال عمّه الآخر عبد الله بن عليّ:

- بل اخرج فأعلم الناس بك وبنا، وليكن ما يكون.

هنا تدخل أبو جعفر وقال:

- هذا أو ذاك. كيف نخرج وهؤلاء الحرس يحيطون بالمنزل؟ وهم خاصة أبي سلمة لا يأتمرون بغير أمره، ولا يعلمون أن أبا العباس قد صار إمامهم حتى يصدّق له أبو سلمة. وإن كان الرجل يضمر شرًّا، وهو والله كذلك، فلا تأمن أن يقتلنا جميعاً إن خالفناه.

قال عبد الله بن عليّ متبرماً:

- فما الرأي إذن؟

تعجب الحضور إذ قال أبو العباس:

- أين خادمنا سابق الخوارزمي؟

ثم اتجه إلى الباب وناداه. فلما دخل أمره قائلاً:

- إذا كان من الصباح، فاخرج إلى السوق، وتلقّط لنا الأخبار، وانظر لعلك تجد واحداً من النقباء الذين كانوا يزوروننا في الحميمة. فلا بد أن يغشى بعضهم السوق.

لم يكن سابق الخوارزمي هو من التقط ببصره أحد النقباء في السوق، ولكن أحد النقباء الذين وجههم أبو مسلم إلى الكوفة بالمال والمتاع لاستقبال الإمام في الموعد المضروب، ثم حين طال على ذلك الأمد، راجعوا أبا سلمة وأغلظوا له بعد أن داخلهم الشك في أمره، كان هو الذي التقط سابقاً الخوارزمي ببصره. وكان قد رآه من قبل عند الإمام إبراهيم. كان ذاك أبا حميد الحميريّ.

لم يصدق بصره حين رآه على بُعد منه يتجول في السوق ويتلفت في كل وجهة. إن كان هو «سابقاً» فما الذي جاء به من الحميمة إلى الكوفة؟ خشي أن يكون الأمر مجرد شَبَه، حتى أسرع نحوه وناداه من خلفه:

- سابق الخوارزمي؟

في اليوم التالي، توجّه وفد أبي مسلم وعلى رأسهم أبو الجهم مع أبي حميد وموسى بن كعب إلى منزل أبي العباس وأهله وكان معهم ثلة من عسكر الخراسانية. وحين اعترضه الحرس صاح فيهم:

- تنحّوا عنّي لا أبا لكم؟ أنا أبو الجهم بن عطية، وهؤلاء أصحابي من نقباء خراسان وأصحاب أبي مسلم، وقد أذِن لنا أبو سلمة.

وبالطبع لم يكن أبو سلمة على علمٍ بهذا. وحين دخل أبو جهم وأصحابه اتجه من فوره إلى أبي العباس، فأخذ بيده وقبّلها بإجلال قائلاً:

- سيدي الإمام.. مولاي الخليفة.. وأحسن الله عزاءكم وعزاءنا في الإمام إبراهيم، رحمه الله. فلله ما أخذ، ولله ما أعطى.

ثم تعاقب أصحابه على مثل فعله.

حين بلغ الخبر أبا سلمة، سُقِط في يده وخاف على نفسه، وهرع إلى منزل الإمام مع نفر من أعوانه.. لعله يستدرك على نفسه ويُعْذِر لها. فوجد الحرس الخراساني الآن يحيط بالمنزل ومعهم أبو حميد الحميري، الذي اعترض أبا سلمة بغلظة وقال:

- تدخل وحدك.

لم يكن ليسع أبا سلمة الآن إلّا الامتثال. وإذ دخل على أبي العباس وجده جالساً وقد أحاط به أخواه وأعمامه، ووجد عنده أبا الجهم وأصحابه القادمين من خراسان الذين نظروا إليه شزراً. غير أن أبا سلمة لم يلتفت إلى أحد وهو يسرع إلى مكان أبي العباس، فيأخذ بيده ويقبّلها بإجلال هذه المرة قائلاً:

- مولاي وسيدي وإمامي أمير المؤمنين.. أبايعكم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن أكون خادماً مطيعاً لدولتكم.

قال أبو الجهم بغلظة:

- على رغم أنفك يا ابن الخلّالة.

أومأ أبو العباس لأبي الجهم أن يكف لسانه. وقال أبو سلمة معتذراً:

- إنما أردت إظهار أمير المؤمنين بعد أن أُحْكِمَ له الأمور.

عاد أبو الجهم للكلام مغضباً:

- وقد أُحْكِمت اليومَ دون الأمس؟

من جديد أشار الإمام له بيده أن يصمت وقال:

- مه! يا أبا الجهم.

ثم توجّه بالكلام إلى أبي سلمة:

- عذرناك يا أبا سلمة غيرَ مُفَنَّد، وحقُّك لنا مُعَظّم، وسابقتك في دولتنا مشكورة، وزلّتك مغفورة، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل.

انحنى له أبو سلمة بضع انحناءات قصيرة متتالية، وتراجع إلى الباب بظهره مبدياً الإجلال والخضوع، بينما كان الحضور يتابعونه بأنظارهم بشيء من الازدراء. وتبادل أبو جعفر وعمّه عبد الله بن علي نظرة خاصّة كأنهما يتساءلان عن موقف أبي العباس المتسامح بعد الذي ظهر من الرجل. هل سامحه حقاً، أم أخّره إلى يوم موعود! أما أبو جعفر، فكان يعلم من نفسه أنه لن يغفرها له أبداً.

كان يوم الجمعة، الثالث عشر من ربيع الآخر عام اثنين وثلاثين ومائة للهجرة، حين خرج أبو العباس عبد الله بن محمد بن عليّ، أول خلفاء بني العباس، من المنزل في كامل أبهته التي أرسل له أبو مسلم متاعها، يحف به أهل بيته. وكان الناس قد جُمِعوا له، وامتدّ صفان من العسكر على مدّ البصر، والكل في لباس السواد، ورفعت الراية واللواء عالياً وألوف الرايات السوداء الأخرى الصغيرة. وإذ برز للناس دوت الأصوات بالهتافات الهادرة، وركب الخليفة وأهله وجلّة أصحابه. وكان مشهداً عظيماً لم يرَ أهل الكوفة مثله من قبل. ومضى الركب يقطع الطريق إلى جامع المدينة، وخرج أهل الكوفة عن بكرة أبيهم يرقبون الحدث العظيم، حتى وصل الركب الجامع.

وفي داخل المسجد اشرأبت أعناق الناس ينظرون إلى الخليفة وهو يصعد المنبر ليلقي خطبته الأولى. وعلى الرغم من أنه اجتهد في أن يبدو صحيح الجسم، فقد بدا عليه الإجهاد الشديد وهو ينقل قدميه على درجات المنبر، وكان وجهه يتصبب عرقاً، حتى إن عمّه داود بن علي أخذ يصعد وراءه، درجة درجة ليقيه التعثر، حتى إذا أتم الصعود، نزل داود وجلس أدنى المنبر. واستجمع أبو العباس كل قواه لينتصب بجسمه ثم ليخرج صوته قوياً ثابتاً ليس فيه أثارة من علّة ولا ضعف، فقال:

«الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، وكرّمه وشرّفه وعظّمه، واختاره لنا، فأيّده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به، والذابّين عنه، والناصرين له. فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها. وخصّنا برحم رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- وقرابته... ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يُتلَى عليهم، تبارك وتعالى، فيما أنزل في محكم كتابه، فقال سبحانه: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجز أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، وقال تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى)، وقال: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، وقال: (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذوي القربى)، وقال: (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين). فأعلَمهم، جلّ ثناؤه، فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تكرمةً لنا، وفضلاً علينا، والله ذو فضل عظيم.

وزعم أقوام من أهل الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم. ولِمَ، أيها الناس، وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم؟ وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هَلَكتِهم، وأظهر بنا الحق، ودحض الباطل.. فتح الله ذلك مِنَّة ومنحة لمحمد -صلّى الله عليه وسلم-، فلما قبضه الله إليه، قام بالأمر بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم، فحَوَوْا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها وخرجوا خِماصاً منها. ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها، بما أملى الله لهم حيناً حتى آسَفوه، فلّما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، ليمنّ بنا على الذين استُضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا.

وإني لأرجو ألّا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقُنا، أهلَ البيتِ، إلّا بالله.

يا أهل الكوفة. أنتم محلّ محبتنا ومنزل مودّتنا. أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا. فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا. وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم. فاستعدوا، فأنا السفّاح المبيح، الثائر المبير».

ما إن فرغ، حتى كان قد استنفد جهده وطاقته، وجلس وهو ينضح عرقاً، وصدره يعلو ويهبط بأنفاسه، ولم يعد خافياً أنه شديد التوعّك. ثم وقف داود بن عليّ ونادى في الناس:

- أيها الناس. البيعةَ لأمير المؤمنين، يأخذها له أخوه الأمير أبو جعفر عبد الله بن محمد بن عليّ.

نعم، كان كلا الأخوين قد سُمِّي عبد الله، لا يفرق بينهما إلا الكنية: أبو جعفر، وأبو العباس الذي سيلحق به منذ الآن لقب «السفاح» بعد أن وصف نفسه في آخر خطبته بالسفاح المبيح.

ولكن الأَوْلى بلقب السفاح على الحقيقة، هو عم الخليفة العباسي الأول: عبد الله بن علي، كما ستثبت الأيام القادمة. وقد أبى إلّا أن يقود جيوش المسوّدة بنفسه ليلقى جيش مروان بن محمد الذي بدأ زحفه للمعركة الأخيرة الفاصلة. وقال عبد الله بن عليّ وهو يستعد للخروج:

- أما والله لقد انتظرت هذا اليوم طويلاً.. وهذه النار التي في صدري ما زالت تشتعل وتربو مع السنين، حتى نغّصت عليّ عيشي، فهذا أوان إطفائها، ولا يطفئها إلّا أن أقتل كل بالغ من بني أمية، وأنا لها.

تصافّ الجيشان عند الزاب الأعلى في العام نفسه، اثنين وثلاثين ومائة للهجرة. ولبث كل فريق يعاين الآخر، فهذا يرى غابة من السواد، وذاك يرى غابة من البياض. ورأى مروان أن يبادر بالهجوم بفرقة من جيشه، ولما رآها عبد الله بن عليّ تندفع نحو جيشه، صاح بطلائعه:

- الأرض.

فنزلت الطلائع على الرُّكَب وركزت الرماح مائلة إلى الأمام لتشكل حائطاً أمام صدور الخيل. ووراءهم وقف الرماة مستعدين. حتى إذا صارت فرقة مروان على مسافة الرمي، أمطرهم الرماة بوابل من السهام، فجعلت جُلّهم حصيداً، وانقلبت بهم الخيول، ومن نجا من السهام اصطدم بحائط الرماح المنصوبة، وما هي حتى اندفع الصف الأول من جيش المسوّدة ليجهز على من تبقى من تلك الفرقة الأمويّة، حتى أبيدت عن آخرها تقريباً، إلّا من تمكن من الفرار، وهم قليل.

فت في عضد مروان وهو يراقب المذبحة. ولكنه تعلّق بحبل الأمل أن تكون الجولة الثانية له.

لم يتلبّث عبد الله بن عليّ بعد ذلك، ونادى في جيشه:

- يا أهل خراسان.. يا أبطال العراق.. يا لثارات إبراهيم.. يا محمد يا منصور.

ردّدوا من ورائه شعار الثورة. وأشار لهم بالهجوم، فاندفعوا بحماس فائق، وقد قويت نفوسهم بنتائج الجولة الأولى.

وفي المقابل، صاح مروان بالفِرَق المتقدمة من جيشه أن يحملوا. فبدأوا بالتقدّم على بطء ووَجَل، وقد ضعفت عزائمهم. وإذ لحظ مروان ذلك صاح بهم مُذَمِّرا:

- تقدموا.. ما بالكم؟ تقدّموا..

ولكن كتائب المسوّدة كانت أسرع وأشدّ حماساً وعزيمة، فما هي حتى صدمتهم صدمة عظيمة فرّقتهم أشتاتاً، واستحر فيهم القتل، وبدا واضحاً أن مصيرهم سيكون كمصير الطلائع في الجولة الأولى.

وإذ رأى مروان ذلك، أرسل بالأمر إلى الفِرَق المتبقية في الخلف أن تبادر بالهجوم لدعم الفرقة المنخرطة في القتال اليائس، قبل أن يجهز عليها المسوّدة. وهنا كانت قاصمة الظهر. إذ لم تتحرك أي من تلك الفِرَق المتأخرة من مكانها. وكانت قطعاً من القبائل، كل قطعة متحيّزة عن الأخرى، وقد اجتمعت تحت رايتها. ولما رأى مروان تخاذلهم عن الهجوم، أسرع بنفسه إليهم بجواده يحرضهم على القتال. وبدأ بقضاعة، فلم يستجيبوا له، وقالوا: ابدأ بسُلَيْم. فسبّهم ولعنهم، وقالت «سُلَيْم»: قل لبني عامر، فليحملوا أولاً. وقال بنو عامر: قل لغطفان فليحملوا.

فتولّى عنهم يسب ويشتم، ولم يبقَ أمامه إلّا قائد شرطته في قطعة من العسكر، فأمره أن يحمل بفرسانه. فلما رآه يشيح بوجهه ولا يُقْدم، صاح به مؤنّباً. فقال صاحب الشرطة:

- لا جدوى. انظر الذي يجري هناك، لا قِبَل لنا بهم، وما كنت لأجعل نفسي غرضاً بلا جدوى.

صاح مروان متوعِّداً:

- أما والله لأسوأنَّك.

قال صاحب الشرطة بصوت يائس:

- وددت والله أنك قدرت على ذلك.

رجع مروان إلى ما وراء الصفوف، وأمر بعض الأعوان أن يُنزلوا أحمالاً من الصناديق جاء بها معه على الركائب. وكانت ممتلئة بالمال والذهب.. أخذ منها حفنات وصاح بالصفوف المتأخرة من القبائل:

- اصبروا وقاتلوا، وهذا المال لكم.

أما أن يطيعوه في الصبر والقتال، فلا. وأما أن يأخذوا المال فنعم. وهكذا تدافعوا نحو صناديق المال وتزاحموا على نهبها، ومروان يصيح بهم:

- ليس الآن.. ليس الآن.. قاتلوا أولاً.. قاتلوا، لعنكم الله.

ولما يئس منهم انطلق بجواده إلى حيث يقف ولده عبد الله، صاحب الراية البيضاء. فابتدره عبد الله بالسؤال وقد رأى عن بُعد اضطراب المؤخرة وتدافع القبائل. وبعد أن بيّن له حقيقة الأمر على عجل، أمره أن يسير في أصحابه إلى مؤخر العسكر، فيقتل من أخذ المال، ويمنع سائرهم منه. وكانت تلك هي الغلطة العظمى. فلما رأى الجند المنشغلون بالقتال ارتداد عبد الله بن مروان بالراية، ظنوها الهزيمة والإدبار. فتصايحوا بالانهزام، وارتدوا على أدبارهم، ولم تُجْدِ صيحات مروان بهم أن يرجعوا إلى القتال. واندفع المسوّدة من خلفهم تضرب أدبارهم. ونادى عبد الله بن مروان أباه أن ينجو بنفسه معه قبل أن يدركهم المسوّدة. ولم يكن ثمة خيار غير ذلك، وقد وقعت الهزيمة الساحقة. وقُتِل

في محاولات الفرار من جند مروان كالذين قتِلوا في المعركة، وغصّت ساحة القتال وضفة النهر وماؤه بجثث القتلى، وقُضِي الأمر. انتهت دولة بني أميّة في المشرق، فهل تصدق نبوءة مسلمة بن عبد الملك، فيقيض الله من يحييها في المغرب؟

ولكن الثورات الكبرى كالزلازل العظيمة، لا تنتهي إحداها بالزلزلة الكبرى، حتى تلحق بها موجات من الهزّات، يتلو بعضها بعضاً، إلى أن تستقرّ الأرض بحملها المنظور، وباطنها المستور، وتكتمل رواية المصائر التي اتصلت فيها بسبب، ومنها مصائر أصحابها ومصائر أعدائها سواء، وقد يلقى بعض أصحابها من المصير المظلم مثل ما أنزلوا بأعدائهم، وقد يلقى بعض أعدائها من المصير المجيد مثل ما يلقى المنتصر، ولو بعد حين، وبعد كفاح طويل مرير، في بلد ناءٍ آخر من أرض الله. وقد ينتهي بعض الصائدين إلى أن يصيروا صيداً، وبعض الطاردين مطرودين، وفي المقابل قد تنتهي الفريسة المطرودة أن تصير صائداً مفترساً متمرًّسا، ويصير الخائف مخيفاً. وقد يأتي زمان تستوي فيه الضحية والجلّاد، حين تجد الضحية نفسها في حال تعيد معها سيرة جلادها في خصومها المستجدّين بعد أن تتمكّن، ثم تتذرع بالأسباب نفسها التي تذرّع بها جلادوها من قبل. وعندئذٍ، لا يفترق الخصوم إلا بقدر ما يتشابهون، وقد لا يجد أحدهما إلا أن يعذر الآخر، أو حتى يُعَظّمه.

وقد قيل، الثورة تأكل بعض أبنائها. وذلك من طبائع انتقال الدول. فكيف ستنتهي مصائر كل أولئك الرجال الذين تقاطعت مصائرهم وطرقهم، واسهم كل منهم في حبك سيرة الآخر؟

أبو مسلم الخراساني، وأبو سلمة الخلّال، وسليمان بن كثير، وعبد الله بن عليّ - سفاح بني العباس الحقيقي، في المشرق!

والصميل بن حاتم، ويوسف الفهري، وآخرون في المغرب!

وعبد الرحمن بن معاوية وخادمه بدر بين المشرق والمغرب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تقلح محاولات عبد الرحمن إقناع إخوته أبان وعبد الله وعبيد الله في مغادرة دمشق على عجل والتفرّق في قرى نائية من الشام والاختفاء عن أنظار المسوّدة الذين بدأوا زحفهم نحو دمشق بعد انتصارهم الفاصل في الزاب وفرار مروان بن محمد على وجهه مع ولديه عبد الملك وعبد الله. وما كان عبد الرحمن في حاجة إلى سَوْق الحجج لإخوته، وقد علم الجميع أن عبد الله بن علي وأخاه صالحا وسائر أمراء العباسية أخذوا على أنفسهم تتبّع الأموية في كل مكان واستئصال شأفتهم بلا رحمة. كان يكفي أن تكون أموياً بالغاً حتى توضع للسيف. فمن شكّوا في بلوغه جرّدوه من ثيابه، فإن كان قد نبت شعر عانته فهو أهل للموت. فكان طريقهم إلى دمشق خطاً متصلاً من الموت والدم والدمار. أما عبد الله وعبيد الله فغرّتهم بعض الأماني بالنجاة لما اشتهر عن ذرية هشام بن عبد الملك أنهم كانوا مخالفين لمروان بن محمد وخلافته. أما أبان فلم يكن عنده مثل تلك الأوهام، ولكنه غرّه أمر آخر، وهو لقب فارس بني أميّة. وحقيق بمن عرف بهذا اللقب ألا يطلب الفرار، وأن يقاتل عن نفسه وقومه في دمشق حتى يموت كريماً. وتمثّل قول الشاعر:

أَذُلّ الحياةِ وكُرهُ المماتِ

وكلًّا أراه طعاماً وبيلا

فإن لم يكن غير إحداهما

فَسَيْرٌ إلى الموتِ سيراً جميلا

وحين يئس عبد الرحمن من إقناعه ودّعه وأخويه اللذين بقيا معه، وداع من يعلم أنه لن يراهما بعد اليوم.

وحين أدبر عبد الرحمن حزيناً، ناداه أبان، ثم اقترب منه، ومالَ عليه وهمس له مع ابتسامة باهتة:

- هل رأيت رجلاً يحسد أخاه على نبوءة أطلقها كهل لا ندري إن كان يُخلّط؟ الآن أقرّ لك أني كنت أحسدك منذ سمعت مسلمة بن عبد الملك في ذلك النهار البعيد.. ثم غبر الزمان، ونسيتها.. وكنت إذا ذكرتها أحياناً أبتسم ساخراً وأقول في نفسي: كذب المنجمّون، ومُلك بني أميّة باقٍ ما طلعت الشمس بإذن ربها. والآن، وقد وقع منها زوال مُلك بني أمية في المشرق، فإني أرجو أن يقع منها شقها الثاني: تجديد دولتهم في المغرب.. على يديك يا أبا المطرّف. يا أبا سليمان. فإن كان ذاك ولم أدركك هناك بنفسي، ولا أحسب أني أنجو، فأرسل إلى ولدي من يحمله إليك إذا نجا، فهو دون سنّ القتل، وضمّه إلى جناحك واجعله كولدك.

اعتنقا بحرارة، ثم مضى كل منهما إلى مصيره.

أما عبد الرحمن فمضى بولده الطفل سليمان وأخيه الأصغر هشام، وأختيه أم الأصبغ وأمة الرحمن، والخادمين بدر وأبي شجاع، إلى قرية دير حنا من أعمال قنسرين، وتوارى بهم في بيت متنحٍّ بعيد عن أعين الناس.

ولم يلبث عساكر المسوّدة الخراسانية بقيادة عبد الله بن علي وأخيه صالح أن بلغوا دمشق، ثم دخلوها من أبوابها المختلفة. واختفى العامة في بيوتهم، ولكن مقاتلة الأمويّة وأنصارهم أبوا إلا القتال حتى الموت. امتلأت الطرقات بجثث الموتى. واستبسل أبان بن معاوية في ذلك القتال اليائس، حتى تكسّر سيفه، وما هي حتى أحاط جند العباسية به وبأخويه، فألقوا السلاح. ثم برز لهم عبد الله بن علي من بين الجمع، وإذ عرف أنهم من حفدة هشام، ألقى إليهم نظرة تشفٍّ وحقد. وكان قد سمع بأخبار فارس بني أميّة أبان بن معاوية. فأحبّ أن يطيل عذابه، فرفض طلبه أن يقدّمه للقتل قبل أخويه، فقدّمهما للقتل أمام عينيه. ثم أمر بأبان فقُطِعت ذراعاه أولاً وكُويتا بالنار وطُلِيتا بالنفط الساخن كي يطيل احتضاره، ثم طِيف به في الطرقات على حمار، والمنادي يصيح:

- هذا فارس بني أميّة، أبان بن معاوية بن هشام.

كان يترنح على ظهر الحمار وقد طال عذابه، حتى رحمه الموت فأخذه منهم. وسقط عن ظهر الدابة مفارقاً روحه.

لم ينته الأمر في دمشق بانتهاء المقاومة. فقد شهدت الأيام التالية عمليات البحث واقتحام البيوت والإعدام والسحل والصلب على الخُشُب وفوق الأسوار، ورفع الرؤوس المقطوعة على رؤوس الرماح، حتى زاحمت الرايات السود التي نُصِبت على الأسوار. وشوهدت النساء جاثيات باكيات عند قتلاهن في كل ناحية وساحة من دمشق.

ولسوف تبقى تلك المذبحة ماثلة في أذهان الناس زمناً طويلاً، وسوف ينشد بعض الناجين من بني أمية وأنصارهم المراثي في مقاتل القوم:

تقول أمامةُ لمّا رأت

نشوزي عن المنزل المُنْفِسِ

وقلة نومي على مضجعي

لدى هجعة الأعين النُّعَسِ

أبي ما عراك؟ فقلت الهمومُ

عَرَيْنَ أباكِ فلا تُبْلسي

لفقد العشيرة إذ نالها

سهامٌ من الحَدَث المُؤيِسِ

فصرعاهمو في نواحي البلا

د، تُلقى بأرض ولم تُرْسسِ

فكم تركوا من بواكي العيو

نِ، حَرْبَى ومن صِبْية بُؤَّسِ

أولئك قومي أذاعت بهم

حوادث من زمنٍ مُتْعِسِ

فما أنسَ لا أنسَ قتلاهمو

ولا عاش بعدَهمو من نَسِـي

وحتى من لم يكن محباً لبني أميّة من عامة أهل الشام، استعظموا في نفوسهم جرائم عبد الله بن عليّ وأخيه صالح. فما ذنب من لم يكن له ذنب إلّا أنه أمويّ. وأين قول الله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى)؟ وما جريمة أولئك الفتيان الذين لم تزد أعمارهم على الثانية عشر أو دون ذلك؟ هل يكفي من أحدهم أن يكون قد خطّ شاربه ببعض الزغب، أو ظهر من ذلك على عانته، أو انكسر صوته ببحة البلوغ، حتى يوضع فيه السيف؟ أين هذا من شعار الدين والعدل وبيت النبوّة الذي دعا به بنو العباس. أين من كان يزعم أنه سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملأها بنو أمية جوراً؟ فها هو يملأها اليوم دماً وموتاً وجوراً. لكأن الأمويّ نبت شيطاني بطبيعته وجبلّته التي يولد بها، ثم يورثها أبناءه. فأين يذهب معنى التكليف والإرادة والخيار والاختبار ثم الحساب عند الله، وكلّهم يأتيه يوم القيامة فرداً بعمله دون عصبته، إذ لا أنساب بينهم يومئذٍ. وإذا كان بنو العباس يزعمون أنهم يثأرون لمصارع آل البيت على أيدي الأمويّة، فقد أفضى من اقترف ذلك إلى ربهم، وحسابهم على الله. فلماذا يرث من كان بعدهم ذنوبهم وخطاياهم التي لم يكن لهم رأي ولا شأن بها؟

ثم إن بني العباس أنفسهم لم يدخلوا قبل الآن في صدام كبير مذكور مع خلفاء بني أميّة ولم يتعرّضوا لما تعرّض له أبناء عمومتهم الطالبيّون من أبناء عليّ. فإذا كان ثأرهم الآن لأبناء عمومتهم حقاً، فأين هم سادة آل البيت الطالبيّين الآن من بني العباس وقد ملكوا؟ لماذا لا يقدّمون أحدهم ليشركهم في أمرهم؟ بل لماذا ينقمون على كل من مال إليهم ونمي عنه القول إنهم أحق بها وأهلها، وأجدر بصفة آل البيت، وتوعّدوهم بالانتقام؟ وإذا كانت تهمة بني أمية أنهم عطّلوا الشورى، وجعلوها ملكاً خاصًّا يتوارثونه في سلالتهم، فما الذي يؤسّسه الآن بنو العباس لحكمهم وسلالتهم؛ إلّا أنهم يزيدون على الأمويّة بأن أضفوا على مُلكهم الجديد وسلالتهم سبباً متَّصلا بالسماء، فهو حق قطعه الله لهم وأورثهم إياه باعتبار النسب والقربى من النبي. فمن أنكر حقهم أنكر أمراً من الدين، ومن نازعهم إياه فكأنما نازع الله أمره وسلطانه! فإذا قيل: وأين أبناء علي وفاطمة من هذا؟ قالوا: العم أقرب من ابن العم، يعنون جدّهم العباس عم النبي، وعلي بن أبي طالب ابن عمه! ثم لن يطول الزمن حتى يرى الناس من مصارع الطالبّيين على أيدي بني العباس، كالذي كان من بني أمية، وربما أكثر. ولسوف يقاتلهم الخوارج على مبدأ الشورى المعطّلة كما قاتلوا بني أميّة من قبل.

لا، لا شأن للدين في كل ذلك. إنما هو صراع المُلك والسيادة في المقام الأول، يتذرّع أصحابه بحجج الدين.

هكذا كان كثير من الناس يتهامسون بينهم، أو يحدثون أنفسهم به، وهم يشهدون فظائع المسوّدة.

على أن عبد الله بن علي، لم تنطفئ في صدره نار الثأر بعد أن فرغ من قتل من كان حياً من بني أمية في دمشق وما حولها، ووطّن نفسه على تتبع الأمويين في كل البلاد حتى يقتل آخرهم. فعمد إلى قبور خلفاء بني أمية الغابرين، فنبشها، فمن لم يجد له إلّا أثارة تشبه الرماد، أمر بإشعال النار في قبره، ومن وجد له جمجمة باقية أمر بها فرُفِعت على رمح وطِيف بها ثم رُفِعت على السور أياماً، ثم أُحرقت. ولم يجد منهم غير هشام بن عبد الملك محفوظ الجثة إلّا من أنفه. ذلك أنه كان قد سجي في مغارة أشبه بالحجرة، وسُدّ بابها، وطلي بالزئبق والكافور ونوع من الطيب الحافظ يعرف بماء «الفُوّة». فأمر بجثته فأُخرجت وشُبحت بين عمودين، وعلى مشهد من الناس جلده بالسوط حتى تناثرت أشتاتاً كأنها الغبار. ثم أمر أن تُجمَع لتُشعل بها النار!

ولما بلغ الخليفة العباسي الأول أبا العباس، وكان قد اتخذ مقرّه في الأنبار، أن الناس قد ضجّوا بإسراف عمّه عبد الله في القتل والتنكيل والنكاية، خشي أن يتغير عليهم الناس وهم في أول عهدهم، فصاح أمام أخيه أبي جعفر وعمّه داود:

- وأنا الذي يلحق بي لقب السفّاح دون عمي عبد الله!

ثم خاطب عمّه داود:

- اكتب لأخيك يا عمّاه أن يكف عن سفك الدماء إلّا بإذني. ولا والله ما أنا بآسف على دماء بني أميّة. ولكن، أخاف أن يستوحش منا جملة الناس، وتهيج عواطف بعضهم فيميلوا علينا.

ولكن رأس أبي جعفر كان منشغلاً بأمر آخر فسأل أخاه:

- وأبو سلمة الخلّال؟

- أما هذا فحق عليه الموت. إنما داريته أول الأمر حتى لا أوحش أصحابه وعسكره قبل تمام البيعة. ولكني لم أنسَ تنكّره لنا أول قدومنا. ولولا تدبير الله لقَتَلنا وصرف الخلافة إلى أبناء عمومتنا الطالبيّين. وقد هدى الله من كتب إليهم فلم يجيبوه، فكفونا وكفوا أنفسهم.

تدخّل عمه داود، وكان ذا رأي وحكمة، فقال:

- تريّث يا أمير المؤمنين. فما ندري، لعلّ الذي صنع كان عن رأي أبي مسلم، فهما متوادّان متصافيان، وكان لأبي سلمة يد عنده. ونخشى إن قتلته بنفسك أن يحتج بها أبو مسلم عليك فيتغيّر. وهو الآن أمير خراسان المطاع. وأهل خراسان هنا هم قوام جيشك، وحال أبي سلمة فيهم كحال أبي مسلم. ولكن، اكتب إلى أبي مسلم، وأعلمه برأيك، فليبعث له من يقتله. فإن امتثل فقد عرفنا صدقه وولاءه لك. واذكر أن آخر من بايع كان أخانا إبراهيم رحمه الله. ولم يَقْدُم عليك ليبايع لك.

وجّه أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم في خراسان لهذه المهمّة. وأمر أن يصطحب معه أحد الطالبيّين، هو عبيد الله بن الحسين الأعرج، ليعلم أبو مسلم أن الطالبيين موافقون لهم، فلا حجة لأبي

سلمة على بني العباس بهم.

وصل أبو جعفر إلى مرو الشاهجان في ثلاثين رجلاً بينهم عبيدالله بن الحسين الأعرج، واستقبلهم أبو مسلم مع جماعة من النقباء بينهم سليمان بن كثير وأبو النجم. وأنزلهم في دار كبيرة، وانصرف عنهم معتذراً ببعض عمله، حتى إذا فرغ منه لقي أبا جعفر فيما جاء به. وإذ كان أبو جعفر جالساً مع سائر النقباء، لحظ أن سليمان بن كثير ظل صامتاً متجهِّما. فلما استأذن القوم بالخروج، استوقف أبو جعفر سليمان بن كثير، وسأل:

- كأن في نفسك شيئاً يا أبا محمد.

أجاب:

- أعزّ الله الأمير، وأعزّ دولة أئمتنا. لقد دخلنا في هذا الأمر وهو في أوّله، لا نأمل أن نعيش لنرى ثمرته، ومع ذلك أهْدَفنا من أجله صدورنا ونحورنا حين كنا في ضعف وقِلّة، وعدوّنا في قوة وكثرة. فلما اشتد سوق الدعوة واقترب حصادها، رأينا أبا مسلم يُقدَّم علينا، ونحن ذوو الأسنان والقِدَم والسابقة، ورضينا على مضض، لا محبةً له، ولكن إخلاصاً لأئمتنا. وامتثالاً لأمرهم. ثم ظهرت الدعوة، وقامت دولتكم، فصار هذا الرجل صاحب خراسان، فأخَّرنا وقدّم أصحابه حتى صار فيها السلطان دون صاحب السلطان. قد تجبّر وتكبّر واستعلى، وبدأ بأصحابنا فبطش بهم، وزعم أن ذلك بأمر الإمام إبراهيم، رحمه الله. وبثّ عيونه في كل مكان، وبين أهل الدعوة، حتى صار الرجل لا يأمن ولده وأخاه وابن عمّه، يخشى أن يقول الكلمة فتصل إليه، فيُؤَوّلها إن شاء على غرضه، وأنها تنطوي على غش الإمام والخليفة، فيبيح دمه باسمكم يا مولاي. هذا ما أهمّني يا سيدي. وانظر حاله معكم. قد مضى على قدومكم يومان، ولم يسألكم فيمَ قدمتم، ومنذ أنزلكم هذه الدار لم يزركم. فهو ينتظر أن تبادروا إليه في دار الإمارة أولاً. فهل هذا فعل عامل لكم، أم فعل سلطان مستقل بنفسه؟

أنصت أبو جعفر باهتمام بالغ، وقد وقع الكلام في نفسه. وفي اليوم التالي مضى بنفسه إلى أبي مسلم. فتلقاه حاجبه، وسأله أن يجلس في الدهليز، حتى يفرغ أبو مسلم من عمل بيده، فيُدخِله عليه!

انقبض أبو جعفر انقباضاً شديداً وقال:

- ألم يعلم بأني قادم إليه؟

أجاب الحاجب:

- بلى يا سيدي. ولكن دهمه أمر طارئ لا يُؤَجّل. ولا أحسبه يطول بعد الآن.

كتم أبو جعفر غضبه، ونزل جالساً. ثم جاءه خادم بالشراب فأبى أن يتناوله.

وحين أُدخِل أخيراً على أبي مسلم، اعتذر هذا له بما كان فيه من مشغلة. ثم أشار إلى مقعد في المجلس وقال:

- دونك يا أبا جعفر.. أهلاً ومرحباً بك.

وجلس هو على سرير الإمارة دون ضيفه الكبير.

كاد أبو جعفر أن ينفجر غضباً، لولا أنه تذكر أنه هنا في سلطان أبي مسلم، وإن كان عاملاً لأخيه أمير المؤمنين.

ثم قال أبو مسلم:

- لم نسألك يا سيدي فيما قدمت علينا حتى تنقضي أيام ثلاثة على عادة العرب.

قال أبو جعفر يُذَكّره:

- ولكني لست ضيفاً عليك يا أبا مسلم.

- بلى، كما قلت، أنت أخو مولانا أمير المؤمنين. ونحن خدمه وعُمّاله.

مرت لحظات صمت، قبل أن يتحدث أبو جعفر من جديد:

- جئتك من قِبَل الخليفة في أمر نشاورك فيه.

- قل يا أبا جعفر.

- أبو سلمة الخلّال!

اعتدل أبو مسلم في جلسته متنبهاً. وإذ بيّن له أبو جعفر الأمر، تقوس حاجباه واتّسعت عيناه، وبدا شارد التفكير، بينما أخذ أبو جعفر يرقبه منتظراً ردّه. ثم نظر أبو مسلم إلى أبي جعفر وقال بلا تردد:

- أنا أكفيكموه!

ثم صاح بصاحب الباب:

- ادعُ لي مرار بن أنس الضبيّ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كان أبو جعفر يتفقد أحوال خراسان، تمكّن سليمان بن كثير من الانفراد بعبيد الله بن الحسين الأعرج. وسأله:

- كيف وجدت أمير المؤمنين أبا العباس؟

أجاب:

- خير خليفة.

قال سليمان بلهجة مبطّنة:

- أعني هل أحسنوا لكم أنتم أبناء عمومتهم الطالبيّين؟

- ها أنت تراني في صحبة أبي جعفر.

هز سليمان بن كثير رأسه، وبدا شارداً كأنه يقلّب رأياً يراود نفسه على البوح به. ثم قال بنبرة حَذِرة:

- هذا حسن. أعني.. تعلم أن أصل الدعوة كان في إمامكم أبي هاشم، عبد الله بن محمد بن الحنفية، إمام الهاشمية. ولم يكن له ولد. فلما أحسّ اقتراب أجله وهو في طريقه إلى الحجاز، عدل إلى الحميمة، ونزل على محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس، فصرف إليه الإمامة، وأمر أصحابه بالسمع له وطاعته. وبذلك صارت الدعوة إلى بني العباس.

توقف لحظة، ثم تابع بنبرة توحي بالشك:

- أو هذا ما نقله بنو العباس وأشاعوه.

تريّث من جديد، وأخذ عبيد الله بن الحسين يتفحّصه، وقد شعر الآن بوجهة الحديث. ثم تابع سليمان:

- ونحن والله ما دخلنا دعوتهم إلّا بتلك الوصيّة من أبي هاشم. فأنتم عندنا في المنزل المقدّم. وأصل ولائنا وانتمائنا مصروف إليكم.

قال عبيد الله:

- ألا تفصح يا أبا محمد؟

هنا لم يجد سليمان إلّا أن يفصح بلا مواربة:

- بلى، وأنصت. إنا والله كنا نرجو أن يتمّ أمركم، وأن تصير الخلافة إليكم، فأنتم أحق بها وأجدر. فإن شئتم الآن فادعونا إلى ما تريدون، ولكم علينا أن ننصركم بأحسن مما نصرنا أبناء عمومتكم.

اكتفى عبيد الله بالإطراق وذهب في الشرود والتفكير.

حين رجع عبيد الله إلى أصحابه بقي في شروده ووجومه. حتى سأله أحدهم عن أمره وألحّ بالسؤال. فقصّ عليه أخيراً خبره مع سليمان بن كثير. وأبدى خوفه أن يكون سليمان دسيساً لأبي مسلم يريد أن يختبره. قال له صاحبه:

- ولكنك لم تظهر الرضا.

- ولم أنكر عليه. فإن كان أبو مسلم قد دسّه لغرض، فإني أخشى أن يُؤوَّل صمتي رضاً فيأخذني بذلك. وهذا رجل يأخذ بالظنة وقد خلا قلبه من الرحمة.

- ولكنك في صحبة أبي جعفر، أخي الخليفة؟

- ألم ترَ كيف يعامل الأمير أبا جعفر نفسه على منزلته، وهو الذي يمكن أن يخلف أخاه؟ فكيف يفعل بي؟ ونحن الآن في خراسان.. ولا سلطان في خراسان إلا لأبي مسلم.

قال صاحبه:

- إذن، أدرِك نفسك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين دخل سليمان بن كثير على أبي مسلم بدعوة منه، وجده واقفاً في انتظاره، ولما رأى عبيد الله بن الحسين الأعرج عنده، أوجس في نفسه خيفة، بينما أخذ أبو مسلم يرمقه بنظرة فاحصة قوية.

وسأل سليمان:

- فيم طلبت لقائي يا أبا مسلم.

اقترب منه أبو مسلم وخاطبه وجاهاً:

- أتحفظ قول الإمام لي: من اتهمته فاقتُله؟

ثم نقل بصره بين عبيد الله بن الحسين وسليمان، وتابع:

- فإني قد اتهمتك.

أدرك سليمان ما أوقع نفسه فيه. وألقى نظرة إلى الحرس المتأهّبين في المكان. وفجأة خارت عزيمته تماماً، وفارقه ما عُرِف عنه من الاستعلاء والتكبر والعجرفة. فتعلق بأبي مسلم متوسِّلاً:

- أنشدك الله.

دفعه أبو مسلم عنه بغلظة واستكبار، وقال:

- لا تناشدني الله، وأنت تضمر غش الإمام.

وأشار إلى الحرس الذين تحركوا فوراً، بينما تابع سليمان توسلاته:

- إنْ كانت والله لهفوة. ألا يشفع لي طول عملي في الدعوة؟ أبْقِ عليّ يا أبا مسلم.. أبقِ عليّ نشدتك الله.

جذبه الحرس بعنف وخرجوا به. وسرح أبو مسلم بتفكيره وهو يستذكر ما كان من سليمان بن كثير حين شجّه بالدواة وأهانه.. وخاطب نفسه هامساً:

- لكل شيء حين، ولكل أجلٍ كتاب!

في ساحة مقر أبي مسلم، وضع سليمان بن كثير على النطع نازلاً على ركبتيه، وقد نَزِعت عمامته وأوثقت يداه إلى الخلف، ووقف السيّاف في انتظار إشارة أبي مسلم.

تقدّم أبو مسلم بخطىً بطيئة حتى صار قريباً منه، ثم انحنى عليه وهمس له:

- هل تذكر ذلك اليوم، حين قدمت عليكم بكتاب الإمام يولّيني أمر الدعوة في خراسان؟ ما كان ينبغي لك أن تسبّني وتحقّرني ثم ترميني بالدّواة حتى سال دمي. هذه أمور تورِّث بغضاً لا يموت، وثأراً لا ينقضي.. فما ظنك الآن بغلام أبي موسى السرّاج؟

رفع سليمان بن كثير رأسه قليلاً وقال:

- إن كنت قاتلي، فلعنة الله عليك لعنةً تلحقك إلى يوم الدين..

انتصب أبو مسلم، وتراجع قليلاً. ثم أشار للسيّاف، وسقط رأس سليمان بين قدمي أبي مسلم، الذي أخذ ينظر إليه، وعضلات وجهه تنتفض حقداً وتشفياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين رجع أبو جعفر إلى مرو من بعض قرى خراسان التي كان يتفقد أحوالها، وعلم بمقتل سليمان بن كثير، أسرع إلى أبي مسلم واقتحم عليه المجلس صائحاً وقد تملكه الغضب الشديد:

- كيف سوّلت لك نفسك أن تقتله بدون إذني وأنا في جوارك؟ أتستهين بي يا أبا مسلم؟

قال أبو مسلم محافظاً على هدوئه:

- حاشاك يا أبا جعفر. ولكني أعمل بوصية الإمام إبراهيم، أخيك الأكبر.. رحمه الله.

- هذا كان قبل أن تظهر الدعوة وتقوم الدولة، ويصير لها خليفة هو وحده صاحب الأمر والنهي.

- وهل أمرني الخليفة بأمر وخالفته؟

- ما كان ليأذن لك في قتل سليمان.

- وكيف لنا أن نعرف الآن، وقد قُضِي الأمر؟

- ولكني هنا.. وكان ينبغي عليك أن..

قاطعه أبو مسلم:

- منزلتك عندنا محفوظة يا أبا جعفر.. ولكن.. العفو يا سيدي، إنما الخليفة أبو العباس. وقد جئتني بأمر منه فصدعت به. وأرسلت إلى الكوفة من يقتل أبا سلمة الخلّال.. أبا سلمة يا أبا جعفر! صاحبي وخليلي وصفيّي ومعلّمي وشريكي في تدبير الثورة. هل ترى أن هذا أمر هيِّن على نفسي؟ فكأني أقتل به بعض نفسي. ولكنه هانَ عندي عندما علمت بانحرافه وغشّه للخليفة. فهل يكون دم سليمان بن كثير

أغلى عندي وعندكم من دم أبي سلمة؟ وهل ينكر أحد أنه كان القائم بأمر الدعوة ووزير بيتكم قبل أن يتغير عليكم، فنتغيّر عليه؟ فإن كنت قد أطعتكم فيه، فلماذا أستأذن في سليمان بن كثير وقد ظهر منه مثل الذي ظهر من أبي سلمة؟ إنما أخذته بالذنب نفسه الذي آخذ به أبا سلمة.

كانت حجته أقوى من أن يردّها أبو جعفر، فخرج من فوره لا يلوي على شيء. وحين غاب وراء الباب، لوى أبو مسلم شدقه وهو يقلّد كلامه متهكماً:

- كيف تقتله بدون إذني وأنا في جوارك، أتستهين بي يا أبا مسلم؟ هه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على مائدة الطعام مع زوجته جلنار، أخذ أبو مسلم يقهقه وهو يقصّ خبره مع أبي جعفر، وكيف أفحمه بالحجة القاطعة، فلم يملك له ردًّا. ولم تشاركه جلنار في الضحك، بل ازداد وجهها وجوماً، وقالت:

- ألا تخشاه؟

أجاب بنبرة قاطعة:

- أنا لا أخشى أحداً.

- أعني.. إنه أخو الخليفة، والمقدَّم من أهل بيته، ولربّما استخلفه من بعده!

قال أبو مسلم بثقة:

- فليكن. قد علموا قوتي وأدركوا حاجتهم إليّ.. وإلّا، ما الذي جاء بأبي جعفر من عند الخليفة فقطع تلك المسافة ليستشيرني في أمر أبي سلمة؟ لا والله ما أراد المشورة، ولكنه خشي إن قَتَل أبا سلمة بنفسه أن أخرج عليهم بدم أبي سلمة، وهو مني بمثابة الأخ الأكبر. وقد علم بنو العباس أن جيش الخراسانية عندهم هم رجالي وأصحابي. أفلا يدلّك ذلك على شيء؟

سألت:

- وقد دبّرت قتله حقاً؟

هز رأسه. وقالت:

- وهو منك بمثابة الأخ الأكبر كما تقول، وكان بينكما من الصحبة والشراكة ما كان.

هز أبو مسلم كتفيه استخفافاً وقال:

- هكذا حال السلطان. نصنعه ثم يصنعنا! وهو يلزمنا أن نفرّق بين القلب والسيف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كالعادة، لم تكن لتجد غير أبيها أبي النجم لتبثه مخاوفها وهواجسها، فقالت:

- كنت أخافه والآن أخاف عليه.

نظر إليها أبوها مستطلعاً، فزادت:

- لم يبقَ رجل فوقه إلّا الخليفة. بل يرى نفسه أقوى من الخليفة، وأن حاجته إليه أكبر من حاجة أبي مسلم إليه. والآن وقد قتل كل منافسيه، لم يبقَ على ذروة الجبل إلّا هو وبيت الخلافة. وقد تعلّمت منه أن الذروة لا تتّسع لرجلين. وهو وإن ظن أنه الأقوى فإن للخلافة منزلاً لا يساميه أحد. أما أبو مسلم وإن بلغ الآن ما بلغ، فدونه ودون منازل الخلافة العرق والنسب وحزّ الأعناق.

قال أبو النجم متسائلاً:

- ألا يفطن إلى ذلك وهو أذكى الناس، وأذكى منكِ ومني؟

أجابت بنبرة التأمّل:

- أنت أجدر بأن تعلم هذا يا أبتِ.. السلطان.. السلطان وفرط القوة.. كالخمرة لا ينتشي منها شاربها إلّا بقدر ما تغيّب عقله، وإن كان أذكى الناس، لا سيما رجل لم يولد في العز والسلطان، بل نبت في الفقر وضعف الحال، مجهولاً إلّا من نفسه، معدماً إلّا من طموحه وعزيمته وموهبته، يمرّ به الناس ولا يرونه، وربّما نهره بعضهم وحقّره. ثم إذا هو في بضع سنين قد ساد الجميع وصار فوقهم، وسيفه مُسَلّط على رؤوسهم، وحكمه ماضٍ فيهم. فإذا خلا إلى نفسه ونظر إلى سلطانه، داخله العُجْب وتساءل: لماذا اختارتني الأقدار دون غيري.. ودون فلان الذي كان صاحبي في سوق السّراجين، وفلان الذي كنت أقاسمه رغيف الخبز الجاف، وأنام وإيّاه على الحصير. لقد بقي هذا سرَّاجا، وبقي ذاك أجيراً، أما أنا.. فها هنا الآن، أنا السلطان. ثم يسلمه ذلك إلى أن يعتقد أن الأقدار قد اختارته على عينها، وأنه منذ ولادته كان منذوراً للمهمة العظيمة، وما دامت الأقدار هي التي صنعته وألهمته، فالأقدار هي التي تحميه، وليس في وسع أحد على الأرض أن يعاند الأقدار فيه، فيضُرّه بشيء.. هذا هو أبو مسلم يا أبتِ.

تأمّلها أبو النجم معجباً بحكمتها، ثم سأل:

- ألا تنصحينه يا بنيّة بهذه الحكمة البالغة؟

قالت بأسى:

- ليتني أستطيع أن أبلغ من نفسه شيئاً. وليتني أستطيع أن أفديه من مصيبة قادمة لا محالة، إلّا أن يهديه الله فيرجع من غرور السلطان إلى فطرة الإنسان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجع أبو جعفر من خراسان دون أن تفارقه النقمة على أبي مسلم. وكان يحدِّث نفسه أن دولة بني العباس لن تصفوَ لبني العباس بقتل الأمويّة في كل البلاد، والتوصل إلى مروان بن محمد الفارّ على

وجهه، وقتله، حتى يُقَتل الرجل الذي أقام دولتهم وهزم بجنده عدوّهم! وتلكم هي المفارقة، ألا تستقيم الدولة الجديدة لأصحابها إلّا بالقضاء على فلول الدولة السابقة وعلى من فلّ شوكتهم معاً!

وما إن لقي أبو جعفر أخاه أبا العباس حتى ابتدره قائلاً:

- لستَ خليفة، ولا لك من الأمر شيء، إن تركت أبا مسلم ولم تقتله. فوالله ما يصنع إلّا ما أراد. وقد اغترّ بقوته، واستقل بشوكته في خراسان، فهو كسرى جديد في ثوب مسلم. وهو الذي كان يحمل لأخينا إبراهيم خُفَّيْه، ويحمل متاعنا ويسرج خيولنا.

ثم قصّ عليه ما كان من أمره معه، وكيف أجلسه في دهليزه منتظراً حتى أذن له، ثم استعلى عليه واستخفّ به، وقتل سليمان بن كثير دون أن يستأذنه فيه وهو في جواره.

ثم قال:

- فهل هذا عمل رجل تابع لنا؟

قال أبو العباس:

- وما الحيلة فيه يا أبا جعفر وهو من تعلم قوته، وحاجتنا إليه لم تنقضِ بعد. فأغضِ الآن عن بعض ما تكره من أجل ما تحب. واكتم غضبك. فالآن نقتل به، حتى إذا حان الوقت قتلناه. ولا أحسب أن يكون هذا في عهدي، فقد ترى اعتلال جسمي.

- أطال الله عمرك يا أخي.

ثم دخل الأخوان مجلس الخلافة، فقام لهما الحضور، ومن بينهم أبو سلمة الخلّال. وقبل أن يجلس أبو العباس نادى أبا سلمة أن يجلس إلى جواره. فظهر عليه الارتياح، وقبّل يد الخليفة، ووضع الخليفة يده على كتفه وأعلن في الحضور:

- أيها القوم، أشهدوا أني رضيت عن أبي سلمة، وهو وزيرنا وصاحب دولتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الوقت ليلاً حين خرج أبو سلمة من مجلس الخليفة. وبينما كان يمضي على بغلته في الطريق، خرج له من عتمة الليل مرار بن أنس الضبيّ الذي انتدبه أبو مسلم لقتل أبي سلمة، مع نفر من أصحابه. فانقضّوا على أبي سلمة، وجذبوه إلى الأرض، وانهالوا عليه بالخناجر والسيوف حتى خمدت أنفاسه.

ثم أعلنوا في الناس أن الخوارج عدَوْا على أبي سلمة، وزير الخليفة والذي كان قائماً بأمر دعوته، فقتلوه غيلةً في جوف الليل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الوقت الذي قتِل فيه الرجل الذي قام بأمر الدعوة، قتِل الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد!

فما زال صالح بن عليّ يتتبع آثاره حتى قاده البحث إلى صعيد مصر. فانتدب جماعة صغيرة من جنده على رأسهم أبو عون عامر بن إسماعيل الحارثي للتوصّل إليه. فأدركه في قرية بوصير، وعلم أنه مختبئ مع جماعة من جنده في كنيسة القرية. وكان قد دخل الليل. وأبى أبو عون أن ينتظر حتى صباح اليوم التالي. وقال لأصحابه:

- نحن في قلّة، فإن أصبحوا ورأوا قلّتنا أهلكونا، فإنهم إنما يقاتلون عن حياتهم. ولكنّ الليل لنا غطاء. ولنا عليهم فضل المفاجأة.

ولما أحس مروان ومن معه جلبة الخيل حول الكنيسة، وأدركوا الخطر، لم يسعهم إلا الخروج والقتال. ولم تكن جماعة المسوّدة لتميّز مروان بن محمد، حتى صاح صائح من جماعته والقتال دائر:

- صُرع أمير المؤمنين..

ثم فرّ من استطاع الفرار، وقُتِل سائرهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مقر أبي العباس السفاح في الأنبار، دخل رسول عمّه صالح بن عليّ بصندوق وضعه أمامه، ثم فتحه. فنظر السفاح إلى رأس مروان بن محمد مُصبَّراً بالملح والكافور لحفظه على بُعد المسافة. نظر إلى الرأس متشفًّيا وقال:

- إلى جهنم وبئس المصير يا مروان بن محمد.

ثم أنشد:

لو يَشْـربون دمي لم يُرْوَ شاربُهم

ولا دماؤهمو للغيظ ترويني

ثم أمر أن يؤخذ الرأس إلى الكوفة، فيُنصَب على أسوارها ليراه الناس، فيعلموا أنه لم يعد لهم بعد الآن إلّا خليفة واحد.

ولكن الخليفة الواحد لا يعني أنه صاحب الدولة الوحيد، حتى لا يبقى معه في قمة السلطان شريك من أهل دولته.. بل حتى من أهله إذا نازعه أحد عليها!

ذلك ما كان أبو جعفر يفكّر به، وفي خاطره أبو مسلم. ولم يقع في خاطره في تلك الساعة عمه عبد الله بن علي، الذي غدا أمير الشام الآن، معقل بني أمية السابق، بعد أن تولى بنفسه القضاء على جيش مروان بن محمد في معركة الزاب الأخيرة الفاصلة، ثم أخذ نفسه بتتبع الأمويين في كل ناحية واستئصال شأنهم حتى تخلو الأرض منهم. فهو إذن أحق الناس بأن ينسب إليه سقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس. وهو بعد عم الخليفة الأول، وأخو الإمام محمد بن علي الذي مكن للدعوة

السرية حتى استوت على سوقها. وما كان ليطمح بالإمامة في ذلك الحين، فسلم بالإمامة لابن أخيه إبراهيم بن محمد بعد وفاة أبيه، ثم لابن أخيه أبي العباس بن محمد، الذي غدا الخليفة الآن. ولكن ذلك كله كان قبل بلائه العظيم في القضاء على بني أمية وتصدره المخاطر دون غيره، فلولاه لما كان رأس مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، منصوبا الآن على أسوار الكوفة، لتكون الخلافة خالصة لبني العباس من دون الناس!

هذا ما بدأ يطوف في خاطره.

ولكن لكل شأن حين. وهو لم يفرغ بعد من ملاحقة فلول بني أمية الشاردين والمتخفين في الأنحاء، وأهمهم عنده ذلك الفتى الأموي ذو الجديلتين، حفيد هشام بن عبد الملك: عبد الرحمنِ بن معاوية. فهو لا يطلبه لذاته فقط، وإنما كذلك ليقتل به الرؤيا التي تصاحبه، والتي أوحى بها مَسْلَمة بن عبد الملك وشاعت بين الناس، بأنه الفتى الذي يحيي ملك بني أمية في المغرب بعد زواله في المشرق. وها هو قد زال في المشرق حقا.

ولكن تحقق الشق الأول من الرؤيا لصالح بني العباس وبؤس بني أمية، هو ذاته الذي يغذي آمال ذلك الأموي الشارد ومخاوف بني العباس بتحقق الشق الثاني منها! ولذلك يجب أن يَجِدَّ عبد الله بن علي وأخوه صالح بن علي، بالبحث عن ذلك الفتى الأموي، ووأد الحلم في موضعه من العقل والقلب والمخيلة، قبل أن يفر به صاحبه نحو الآفاق المغربية البعيدة!

لا، لم تستوف النار العظيمة التي أشعلها بنو العباس حقها بعد من أعدائها... ومن أهلها!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الرايات السود..

ولكن الثورات الكبرى كالزلازل العظيمة. لا تنتهي إحداها بالزلزلة الكبرى حتى تلحق بها موجات من الهزات يتلو بعضها بعضاً. إلى أن تستقر الأرْض بحملها المنظور وباطنها المستور. وتكتمل رواية المصائر التي اتصلت فيها بسبب. ومنها مصائر أصحابها ومصائر أعدائها سواء. وقد يلقى بعض أصحابها من المصير العظيم مثل ما أنزلوا بأعدائهم. وقد يلقى بعض أعدائها من المصَير المجيد مثل ما يلقى المنتصر, ولو بعد حين, وبعد كفاح طويل مرير. في بُلد ناء آخر من أرض الله؛ وقد ينتهي بعض الصائدين إلى أن يصيروا صيداً؛ وبعض الطاردين مُطرودين. وفي المقابل قد تنتهي الفريسة المطرودة أن تصير صائدا مفترسا. ويصير الخائف مخيفا, وقد يأتي زمان تستوي فيه الضحية والجلاد. حين تجد الضحية نفسها في حال تعيد معها سيرة جلادها في خصومها المستجدين بعد أن تتمكن , ثم تتذرع بالأسباب نفسها التي تذّع بها جلادوها من قبل؛ وعندئذ لا يفترق الخصوم إلا بقدر ما يتشابهون. وقد لا يجد أحدهما إلا أن يعذر الآخر. أو حتى يعظمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

الكتاب الأول

وميض النار

الكتاب الثاني

إعصار النار

الرايات السود..